إعجاز القرآن ونظمه
عند السكاكي

تأليف

دكتور فوزي السيد عبد ربه عيد
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

مطبعة الحسين الإسلامية
٢٥ حارة المدرسة - خلف جامع الأزهر - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته وتمسك بسنته إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن الدراسات القرآنية لها خطرها وشأنها بين المعارف والعلوم على كثرتها واتساعها، ولعل مصدر هذا الخطر هو تعلق هذه الدراسات بالعقيدة نفسها ، فالقرآن الكريم دستور هذه الأمة ومعجزة دينها، وفهم هذا الكتاب ومعرفة وجه إعجازه من أهم ما يوقف المسلم على دينه ويبصره بمنهجه ، كما يمكن المسلمين من الدفاع عن عقيدتهم ضد الملحدين والمشككين .

ومن ثم كثرت الدراسات حول القرآن الكريم ، ولم يحظ كتاب فى لغة من اللغات بمثل ما حظى به كتاب الله الكريم ، فقد كان موضع اهتمام الدارسين والباحثين ـ على اختلاف معارفهم ومشاربهم ـ منذ نزل على رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا ، وأصبح أمامنا من نتاجهم هذه الثروة الهائلة من الكتب والمؤلفات التى كان مصدرها هذا الكتاب الكريم تارة ، أو وضعت لخدمته تارة أخرى .

ولعل من أهم ما دار حول القرآن الكريم من دراسات تلك التى لها عناية خاصة ببيان إعجازه ، وما يقوم عليه هذا الإعجاز من أدلة ووجوه،

لتثبت أن القرآن فى أعلى مراتب الكلام ، وأنه فوق طاقة البشر أجمعين .
وقد عرفت المؤلفات التى ضمنت هذه الدراسات بكتب الإعجاز القرآنى، كما أطلق على الموضوع الذى تعالجه : قضية الإعجاز .

وقد كثر الجدل حول الإعجاز القرآنى ، وطال حديث العلماء فيه ، كما تعددت مناهجهم فى معالجة هذه القضية ، واختلفت أدلة الإعجاز عندهم تبعا لاختلاف مناهجهم وثقافاتهم .

ومهما كثرت أدلة الإعجاز وتعددت وجوهه فإن إعجاز القرآن من جهة نظمه وبلاغته يحتل من هذه الوجوه مكان الصدارة ، فهو الوجه الذى يتفق وسنة الله فى تأييد رسله بالمعجزات ، « وإعجاز القرآن من هذه الوجهة حجة على العرب ، لأنهم هم الذين يدركون هذا المعنى فيه ، والعرب حجة على سائر الناس لأنهم إذا رأوا أن أرباب هذه اللغة وأدباءها قد قصر بهم الطوق عن تأليف مثله أدركوا أنه معجز وأنه ليس مما يقدر عليه البشر»[1].

وهذا ما نفسر به عناية العلماء واهتمامهم بهذا الجانب ، يفسرونه ويشرحونه ، ويقدمون له الأدلة والبراهين ، فالذين كتبوا فى الإعجاز القرآنى من هذه الناحية كثيرون على اختلاف مناهجهم ومشاربهم .

ولعل أول من عرض لهذه القضية من هذا الجانب أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠ هـ) فى كتابه « مجاز القرآن ، وجاء بعده الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) فعالج هذه القضية فى كتاب أسماه « نظم القرآن » ثم تتابعت المؤلفات والمصنفات فى هذا الميدان إلى أن جاء الإمام عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١هـ) فبسط قضية النظم ورد الإعجاز القرآنى إليها ، وأخذ فى شرح هذه النظرية

---

(١) الإعجاز فى نظم القرآن ص ٢٢ .

وما تقوم عليه من أصول وأحكام كاشفاً سر النظم وموضحاً دلالاته فى آيات الذكر الحكيم .

وعبد القاهر يرى أنه لابد أن تعرف خصائص النظم ، وأن تدرك تلك الخصائص فى صورة واضحة متميزة لتكون أدلة على إعجاز القرآن فى نظمه وأسلوبه ، وقد قدم هذه النظرية وأدلتها فى كتابه : « دلائل الإعجاز » .

والكاتبون فى هذه القضية حتى عصر عبد القاهر كانوا أقرب إلى الروح الأدبى وتذوق الجمال فى الأدب وإدراك الخصائص الأسلوبية بحاسة مرهفة فجاءت قواعدهم التى وضعوها لشرح هذه القضية غير منفصلة عن حقلها الأدبى الأصيل .

وليس من شك فى أن فساد الأذواق وانحراف الملكات وتضاؤل الطبع فى نفوس العرب واتساع الفتوحات الإسلامية وامتزاج العرب بالشعوب المغلوبة ، وظهور أثر هذا الامتزاج فى الألسنة والطباع ، وما أثمرت عنه حركة النقل للعلوم والحضارات المختلفة إلى اللغة العربية ، ليس من شك فى أن هذا كله كان باعثاً على ضبط أصول نظرية الإعجاز القرآنى من ناحية نظمه وبلاغته ، ووضعها فى قوالب وقوانين أقرب إلى العلوم وطبيعتها منه إلى الأدب وجموحه وتشعبه ، وذلك تمشيا مع العصر وسنة الحياة فى التطور ، وحفظا لقواعد هذه النظرية من العبث والضياع أو الإهمال والنسيان فى خضم الدراسات القرآنية أو الأدبية على السواء .

وقد اضطلع بهذا الدور الإمام أبو يعقوب السكاكى (ت ٦٢٦ ﻫ) صاحب كتاب : « مفتاح العلوم » فقد قدم فى عصره — وبكل إخلاص العالم الدائب — أقصى ما يمكن أن يقدمه عالم دارس فى سبيل هذه القضية، وعالج هذه النظرية وعناصرها بطريقة تناسب عصره ، وتلبى حاجة ملحة

لأهل زمانه فضبط معاقلها وخلصها من كل ما علق بها مما ليس منها ، وجمع شاردها وواردها ووضعها فى قوالب العلوم وحدودها .

نظر السكاكى فوجد أن أصول هذه القضية وما تقوم عليه ضالة مبعثرة تكاد تضيع فى بحوث أدبية وأخرى نقدية وثالثة كلامية أو أصولية أو ما إلى ذلك ، وكان مقتنعاً بما صنعه عبد القاهر إلا أنه لم يطمئن إلى عصره فى فهم ما كتبه عبد القاهر وما ترمى إليه لمحاته ، وما تقوم عليه أحكامه ، فعصره لا يميل إلى هذا النهج الذى نهجه ، وإنما يعرف الحدود والأقسام ، فكان عليه أن يرتب مسائل هذه النظرية ويبوب أبوابها .

هضم السكاكى تراث السابقين ممن تعاقبوا على هذه القضية وآمن بفكرة النظم إيمانا لا يخالجه شك ، وكان تلميذاً وفياً إلى حد بعيد على ما كتبه عبد القاهر . كما آمن بأن مفتاح هذه الفكرة والموصـــل إليها هو علوم الأدب ، فلابد من معرفة هذه العلوم للتعرف على أمر الإعجاز القرآنى .

ذلك لأن مدار الخطأ أو اللبس يكون إما فى المفرد أو التأليف أو مطابقة الكلام لما يجب أن يتكلم به ، وهذا بالطبع بعد اتقان اللغة مرده إلى علم الصرف ويتبعه الاشتقاق ، وإلى علم النحو ، وإلى علم المعانى والبيان ، فلكى يفهم الإعجاز على وجهه ينبغى البصر بهذه العلوم وما يتعلق بها ، فكان مفتاحه مفتاحاً لهذه العلوم الموصلة لأمر الإعجاز وإدراك كنهه .

إن المهمة الرئيسية للعمل الذى قدمه السكاكى هى حفظ أصول هذه النظرية وحماية قواعدها من الضياع ، ونشر هذه الأصول والقواعد فى كل الأرضين التى فتحها المسلمون ، وجلتهم من الأعاجم الذين يألفون القواعد والقوانين ولغة العلوم ، وأعتقد أن السكاكى من ـ هذه الناحية ـ

قدم عملا عظيما محمودا ، ورحم الله أشياخنا فقد كانوا يقولون « لولا الأعرجان لذهبت بلاغة القرآن » يعنون الزمخشرى والسكاكى.

إننا جميعاً نعلم مكانة السكاكى فى تاريخ البلاغة ، فهو يعد خاتم المدرسة الكلامية أو العلمية فى دراسة البلاغة ، وقد أخذت البلاغة صورتها النهائية على يديه وأصبحت علما مميزا مستقلا عن سائر علوم العربية ، كما جعلت أقساماً ثلاثة ، المعانى والبيان والبديع بما قدمه فى القسم الثالث من مفتاحه، بل إن دراسة البلاغة طبعت بطابعه ولم تخرج عن القالب الذى أراده لها من لدن عصره وحتى يومنا هذا .

إلا أن مكانة الرجل بين علماء الإعجاز مازالت غائمة ، ومنهجه فى قضية الإعجاز القرآنى ، وما قامت عليه من أسس النظم وقواعده ماتزال بحاجة إلى إلقاء الضوء عليها .

إن اقتطاع جزء من المفتاح ظلم كبير للعمل وصاحبه وإبعاد له عن الهدف الذى وضع من أجله كتابه ، ومن حق السكاكى ألا نقطع عمله ، وإنما ننظر إليه على أنه جسد واحد ، وكل لا يتجزأ ، وأن نربط هذه النظرة بين العمل والهدف الذى وضع من أجله .

وقد اضطلع هذا البحث بالكشف عن فكرة الإعجاز عند السكاكى بدءاً من عنوان كتابه إلى خاتمته .

كما عنى البحث بالوقوف على منهج الرجل فى عرض قضية الإعجاز ومعالجة فكرة النظم . ولم يغفل اهتمام السكاكى بالنظم القرآنى وتوضيحه للكثير من الأسرار واللطائف التى حواها النظم وقام عليها أمر الإعجاز .

كما اهتم البحث بالقاء الضوء على الأصول التى استقى منها السكاكى وتأثر بها فى بسط هذه القضية ومعالجتها ، خصوصاً الأئمة : عبد القاهر

والزمخشرى والرازى وألق الضوء - أيضا - على أثر المفتاح فى مجال الدراسات البلاغية والقرآنية على وجه العموم .

وحتى يتضح الجهد الذى قام به السكاكى فى هذا الميدان رأيت أن أعرف - بإيجاز - بالجهود التى بذلت قبله وفى بيئته حول هذه القضية .

وأرجو الله أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه، وأن يلهمنى الصواب ويجنبنى الخطأ ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

المــــؤلف

د / فوزى السيد عبد ربه

تمهيد

نبذة عن السكاكى : عصره وحياته

أولا : عصر السكاكى وبيئته :

عاش السكاكى فى بيئته خوارزم فى النصف الثانى من القرن السادس وأوائل السابع الهجرى . واتفق كثير من المؤرخين على أن خوارزم تميزت بوفرة خيراتها ، وجمالها ، كما اتفقوا على حسن أخلاق أهلها [1].

وكانت مدينة الجرجانية عاصمة خوارزم ، وقد ذكر ياقوت أنه لا يعلم مدينة رآها أعظم منها ، ولا أكثر أموالا وأحسن أحوالا [2] .

وقامت فى خوارزم الدولة الخوارزمية ، فلعبت دوراً كبيراً فى تاريخ آسيا الوسطى وأخذت تتوسع على حساب الدولة السلجوقية حتى قدر لدولة السلاجقة أن تزول فى فارس والعراق على أيدى دولة خوارزم الناشئة .

وتنسب الدولة الخوارزمية إلى نوشتكين أحد الأتراك فى بلاط ملكشاة ، وقد حكم هذه الدولة ثمانية ملوك ، عاصر السكاكى خمسة منهم، ولعب دوراً بارزاً فى عهد اثنين ، هما : علاء الدين محمد (٥٩٦ - ٦١٧ هـ) وجلال الدين منكبرتى (٦١٧ - ٦٢٨ هـ) .

وكثيرا ما كانت تنشب الصراعات بين دولة خوارزم وبين جيرانها .

---

(١) أنظر أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٨٤ .

(٢) انظر معجم البلدان ٢ / ٧٩ .

وقد شاهد السكاكى كثيرا من هذا الصراع وعاشه ، فلم يكن بعيداً عن السياسة ، بل كان قريبا من البلاط وما يحدث فيه .

وقد ساعدت هذه البيئة الخصبة الكثيرة الخيرات على ازدهار الحركة العلمية فيها ، وإقبال العلماء على التأليف والتصنيف ، خصوصا فى مجال علوم العربية ، التى كان لها حظ وافر من هذه الحركة النشطة . فظهرت آثار فى اللغة والنحو والبلاغة ، وصنفت كتب فى الأدب ، وجمع تراث العرب وزاد الإقبال على جمع هذا التراث .

ويصور المقدسى الحركة العلمية فى خوارزم ومدى خصوبتها فى قوله عن أهل خوارزم : هم أهل فهم وعلم وفقه وقرائح وأدب ، وما من إمام فى الفقه والأدب والقرآن لقيته إلا وله تلميذ خوارزمى قد تقدم وزجا [1] .

وكان الاعتزال هو المذهب السائد فى بيئة خوارزم ، وساعدت روح الإسلام فى هذه البيئة على انتشاره ، حتى أصبحت لفظة خوارزمى ترادف « معتزليا » ويحكى ياقوت الحموى قصة طريفة عن القاسم بن الحسين ابن أبى بكر الخوارزمى يقول : « قلت له : ما مذهبك ؟ فقال : حنفى ، ولكن لست خوارزميا ، لست خوارزميا ، يكررها ، إنما اشتغلت ببخارى فأرى رأى أهلها . نفى عن نفسه أن يكون معتزليا رحمه الله [2] .

وقد كان لانتشار هذا المذهب أثره على الحركة العلمية والحياة العقلية فى خوارزم فكثر فيها المفسرون والنحويون والبلاغيون والمتكلمون . كما كثر الأدباء والشعراء .

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٢٨٤ .

(٢) معجم الأدباء ١٩ / ٢٣٩ .

كما ساعد سلاطين خوارزم على إذكاء العلم ، وبعث التأليف والتصنيف في كافة المجالات ، فشجعوا العلماء وأغدقوا عليهم من العطايا والهبات الأموال الطائلة ، فكثرت المصنفات ، وتمخضت هذه البيئة عن كثير من العلماء الذين أثروا العديد من مجالات العلم المختلفة .

وما تزال كتب هذه الفترة وهذه البيئة غذاء روحيا وعقليا ، وما كتب عبد القاهر الجرجاني والزمخشري والرازي والمطرزي والسكاكي وغيرهم إلا دليل واضح لا يرقى إليه أدنى ريب على تقدم هذه البيئة [١] » .

ثانيا : اسمه ومولده وحياته :

هو الإمام سراج الدين والملة أبو يعقوب يوسف ابن أبي بكر محمد ابن علي السكاكي [٢] . وقد ولد ثالث جمادى الأولى عام ٥٥٥ هـ في عهد السلطان ايل ارسلان بن آتز .

وقد أجمع المؤرخون على تاريخ ولادته [٣] ، ولم يشذ عنهم إلا ياقوت الحموي الذي ذكر أنه ولد عام ٥٥٤ هـ [٤] ولعل رواية ياقوت أقرب إلى الصحة ، لأن الحموي كان معاصراً له عندما كتب معجم الأدباء ، فقد قال عنه : « وهو اليوم حي ببلدة خوارزم » [٥] .

---

(١) البلاغة عند السكاكي ص ٣٨ .

(٢) انظر تاج التراجم في طبقات الحنفية ص ٦٠ ، ومفتاح العلوم ص ٢ .

(٣) انظر تاج التراجم ص ٦٠ ، والاعلام ٩ / ٢٩٤ .

(٤) معجم الأدباء ٢٠ / ٥٩ .

(٥) انظر البلاغه عند السكاكي ص ٤٦ .

واشتهر أبو يعقوب بلقب السكاكى حتى غلب عليه ، وقد لقب بهذا اللقب نسبة إلى صنعة السكة ، فقد كان يشتغل بالصناعات الحديدية اليدوية وذهب صاحب روضات الجنات إلى أن هذه النسبة جاءت لأن أحد أصوله كان يعمل بهذه الصناعة (١) .

وقد عمل السكاكى فى أول عهده حدادا ـ كما أشرنا ـ وبعد أن أمضى فى هذه الصناعة قرابة ثلاثين عاما انصرف انصرافا كليا إلى العلم والدرس ، وقد كان فى أول عهده بالعلم متعسراً فى تحصيله حتى كاد اليأس أن يسيطر عليه لولا أن من الله عليه فشرح له صدره وأقبل عليه ، فانكب عليه وزاد إقباله على تحصيل العلوم المختلفة حتى صار عالما محققا فى الفنون العربية والعلوم العجيبة ، وعلم تسخير الجن ودعوة الكواكب وفن الطلسمات والسحر والكيمياء ، وعلم خواص الأرض وأجرام السماء وغير ذلك (٢) .

أما عقيدة السكاكى ، فقد كان على مذهب الاعتزال فى الأصول ، أما فى الفروع فقد كان حنفى المذهب .

واتصل السكاكى بسلاطين خوارزم . فاتصل بعلاء الدين تكش الذى حكم فى الفترة من ٥٦٨ - ٥٩٦ هـ إلا أن اتصاله بخلفه علاء الدين محمد الذى حكم من سنة ٥٩٦ هـ كان أكثر حتى نال عنده حظوة كبيرة .

وبعد سقوط خوارزم على أيدى التتار سنة ٦١٨ هـ اتصل السكاكى بالسلطان جغتاى خان بن جنكيز خان ، وقد علت منزلة السكاكى عنده على أثر حادثة وقعت لهذا السلطان مع السكاكى .

---

(١) روضات الجنات ٤ / ٢٣٨ .
(٢) الفوائد البهية فى تراجم الحنفية ص ٣٠١ .

فيحكي اللكنوي أن السكاكي كان جالساً مع هذا السلطان ذات يوم فرت طيور تطير في الهواء ، فأراد السلطان صيدها ، وأخذ السهم والقوس بيده ، فقال السكاكي أي طير تريد ؟ فأشار إلى ثلاثة منها ، فخط السكاكي في الأرض خطا مدوراً ، وقرأ شيئا فسقطت تلك الطيور ، فمنذ ذلك زاد اعتقاد جغتاي ، حتى إنه كان يجلس بين يدي السكاكي مؤدبا [1] .

وقد كانت هذه الحظوة للسكاكي عند هذا السلطان سببا في اشتعال نار الحقد في قلوب بعض أقرانه ، كما حسده بعض الوزراء فأفسدوا ما بينه وبين السلطان ، ولم يهدأ بالهم حتى أوغروا صدر السلطان عليه فحبسه ، وظل في حبسه حتى مات .

واختلف في سنة وفاته ، فقيل سنة ٦٢٣ هـ ، وقيل سنة ٦٢٦ هـ ، وقيل ٦٢٧ هـ .

ثالثا : مؤلفاته :

استطاع السكاكي أن يتبحر في العلوم المختلفة ، وأن يحذق فيها في مدة قصيرة من عمره ، ولا سيما علوم العربية التي زاد إقباله عليها ، وقد كانت ثقافته تمثل عصره تمثيلا كاملا ، فتنوعت من دراسات قرآنية إلى فقهية ، إلى جانب نبوغه في العلوم اللغوية ودراسة المنطق ، وعلم الكلام . وكان إلمامه بالمنطق وعلم الكلام يفوق أي جانب آخر من جوانب ثقافته المتعددة .

وقد اتسعت دراسته اللغوية لتشمل علم اللغة والاشتقاق والصرف والنحو والمعاني والبيان والعروض والأصول والاستدلال .

---

(١) ينظر الفوائد البهية ص ٢٠١ .

وقد وصفه ياقوت بأنه « فقيه متكلم متفنن فى علوم شتى ، وهو أحد أفاضل العصر الذين سارت بذكرهم الركبان »(١) .

ولم تقتصر معرفته على لغة العرب وآدابها ، بل امتدت إلى معرفته باللغتين التركية والفارسية ، وكان لهما الأثر الأكبر فيما عرف عنه من إلمام بالسحر والطلسمات ، وإن كان اشتغاله بالسحر قبل اشتغاله بالعلوم .

وبالرغم من تنوع ثقافته ، وتبحره فى كثير من العلوم والفنون لم يؤثر عنه إلا بضعة مصنفات معظمها لا وجود له . وإليك هذه المؤلفات كما ذكرتها كتب التراجم : -

١ - مفتاح العلوم ، وهو مطبوع وإن كان بحاجة إلى تحقيق يعالج كثيرا من جوانب النقص الوارد فى هذا الكتاب .

٢ - التبيان ، ذكره ابن خلدون فى قوله عن الكتاب السابق . « لخصوا منه أمهات هى المتداولة لهذا العهد ، كما فعله السكاكى فى كتاب التبيان »(٢) ، وقد حاولت الوقوف على موضوع هذا الكتاب ، فلم أجد هاديا فيما تحت يدى من مصادر .

٣ - كتاب « شرح الجمل » فى النحو ، وهو عبارة عن شرح كتاب « الجمل » للإمام عبد القاهر الجرجانى ، وقد أشار إليه السكاكى فى مفتاح العلوم »(٣) .

٤ - رسالة فى المناظرة . ذكرها الزركلى فى الأعلام(٤) .

---

(١) معجم الأدباء ٢٠ / ٥٩ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٢ .
(٣) مفتاح العلوم ص ٣٨ .
(٤) الاعلام ٩ / ٢٩٤ .

ويبدو من اسم الرسالة أن موضوعها علم المناظرة ، وأنها فى قواعد هذا العلم .

٥ — كتاب الطلسم ، وهو باللغة الفارسية : ذكره صاحب روضات الجنات [١] .

هذه مؤلفات السكاكى التى ذكرتها كتب التراجم ، ولو صح أن السكاكى لم يؤثر عنه غيرها لـكان مقلا فى مصنفاته إذا قيس بغيره من العلماء الذين هم فى مثل مكانته العلمية ، بل ربما أقل منه مكانة وأثرا .

وقد قامت دراستنا فى هذا البحث على كتاب « مفتاح العلوم » ، وهو الكتاب الوحيد الباقى من تراث السكاكى ، والذى يحكم من خلاله على السكاكى وعلى ثقافته .

---

(١) روضات الجنات ٤ / ٢٣٩ .

الفصل الأول

الإعجاز والنظم القرآنى قبل السكاكى

وفيه مبحثان :

الأول : قضية الاعجاز بالنظم قبل السكاكى .

الثانى : الاعجاز القرانى والبلاغة فى بيئة السكاكى .

المبحث الأول

قضية الإعجاز بالنظم قبل السكاكى

قضت حكمة الله - تعالى - فى إرسال رسله على تأييدهم بمعجزات تكون دليلا على صدقهم فيما يبلغون به أقوامهم، ويتحدون بهذه المعجزات كل من يعارضهم، كما جرت حكمته أن تكون هذه المعجزات مما يناسب حال كل قوم والعصر الذى بعث فيه كل رسول، وأن تكون من نوع مانبغ فيه قوم كل رسول من رسل الله.

ولما أرسل الله رسوله محمداً ﷺ إلى الناس كافة بالهدى ودين الحق؛ وجعله خاتم الرسل والأنبياء، جعل معجزته معجزة عقلية خالدة، هى كتاب تتلى آياته إلى أن تقوم الساعة، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وهناك الكثير من الأسرار والحكم التى من أجلها كانت معجزة الإسلام هى القرآن الكريم وأهم هذه الأسرار:

١ - أن العقل البشرى فى عصر الرسول الكريم كان قد نضج وارتقى، بحيث يمكن أن يدرك بأدنى تأمل أن هذا الكلام لا يقوله بشر، خصوصاً وأنهم يعرفون محمداً كما يعرفون أبناءهم وأنه عندهم الصادق الأمين.

٢ - أن رسالة الإسلام لما كانت خاتمة ناسب أن تكون معجزتها باقية تحمل منهج هذه الرسالة للأجيال من لدن نزولها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فكان القرآن الكريم المعجزة التى لا تنقطع.

٣ - لما كانت العرب قد ارتقت فى لغتها وبيانها، ووصلت فى الفصاحة

والبلاغة إلى الدرجة التى ارتقى إليها قوم فرعون فى علمهم وسحرهم ، والرومان فى طبهم جعل الله ـ تعالى ـ آية محمد الكبرى ومعجزته كتابا معجزا لهم ولسائر الخلق فى نظمه وأسلوبه وفصاحته وبلاغته ، فقامت عليهم الحجة بأقوى مما قامت بآيات موسى وعيسى على قومهما .

وقد تحدى القرآن الكريم البشر جميعا أن يعارضوه أو ينسجوا على منواله ، وطاولهم فى المعارضة وتنازل لهم عن التحدى بجميع القرآن فى قوله تعالى « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين »[1] إلى التحدى بعشر سور مثله فى قوله تعالى « فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله »[2] فعجزوا فأرخى لهم العنان إلى التحدى بسورة واحدة فى قوله تعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين »[3] فكان عجزهم أشنع وأبشع ، فسجل الله عليهم الهزيمة أبد الدهر ، فلم يفعلوا ولن يفعلوا ودحضت حجتهم وظهر أمر الله وهم كارهون .

وقد وقف المعاندون من القرآن الكريم موقف المبهور المتحير ، وسجلت آيات القرآن حيرتهم وتخبطهم « بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر »[4] ، « وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين »[5] « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا »[6] « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »[7] . إلخ ما قالوا.

---

(١) الطور ، ى : ٣٤ .
(٣) هود ، ى : ١٣ .
(٣) البقرة ، ى : ٢٣ ، ٢٤ .
(٤) الأنبياء ، ى : ٥ .
(٥) سبأ ، ى : ٤٣ .
(٦) الفرقان ، ى : ٥ .
(٧) الزخرف ، ى : ٣١ .

وكان في أقوالهم المحمومة ، ومزاعمهم الباطلة ، وحيرتهم التي لم يخفوها دليل على عجزهم واعتراف بعظمة هذا الكتاب المنزل ، واستيلائه على نفوسهم ، وبخاصة النفوس التي تقدر جمال البيان وتعرف مناهج البلغاء .

أما أولئك الذين هدى الله بالقرآن نفوسهم ، وأعاد إليهم الأمن الذى سلبوه أحقاباً طويلة فهؤلاء كانوا إذا خلوا إلى قرآنهم اندمجوا فى معانيه يتشربون روحه وينهلون من بحار فيضه فانعقدت الصلة بين نفوسهم وبين القرآن الكريم فخشوا وبكوا ، وأدركوا مدى هدايته وإعجازه . فسلمت به عقولهم ، ورضيته أذواقهم واطمأنوا إلى سلامة دينهم .

ولما كانت حركة الفتح الإسلامى وامتزاج ثقافة الأمة العربية بغيرها من الأمم ودخول تلك الأمم فى الإسلام أخذ الإسلام يتعرض لحركة طعن وتشكيك من أصحاب الديانات القديمة وكان طبيعيا أن يتجه هم الطاعنين إلى ذلك الكتاب الذى أحدث تلك النهضة العربية وأدال من دولهم وأديانهم وأحبوا أن ينقضوا معجزة هذا الدين ، والله يقول من قرآنه « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً »[1]. ومن ثم راحوا يلتوون بمعانيه ويحكمون عليه بالتناقض واللحن وفساد النظم[2] .

وظهر فى المجتمع الإسلامى من يسأل أو يشكك فى إعجاز القرآن الكريم يروى صاحب معجم الأدباء عن أبى عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠ هـ) أنه قال : « أرسل إلى الفضل بن الربيع والى البصرة فى الخروج إليه سنة ثمان وثمانين ومائة فقدمت بغداد واستأذنت عليه فأذن لى فدخلت عليه وسلمت عليه بالوزارة فرد وضحك واستدنانى حتى جلست إليه على فرشه،

---

(١) النساء . ى : ٨٢ .

(٢) انظر منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

ثم دخل رجل من الكتاب له هيئة فأجلسه إلى جانبي وقال له . أتعرف هذا ؟ قال : لا . قال : هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه . فدعا له الله وقرظه لفعله هذا ، وقال لي : إني كنت إليك مشتاقاً، وقد سألت عن مسألة أفتأذن لي أن أعرفك إياها ، فقلت : هات ، قال : قال الله عز وجل « طلعها كأنه رؤوس الشياطين »(١) وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله وهذا لم يعرف، فقلت : إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرىء القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط ، ولكن لما كان أمر الغول يهولهم أو عدوا به ، فاستحسن الفضل ذلك ، واستحسنه السائل ، وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتابا في القرآن في مثل هذا وأشباهه ، وما يحتاج إليه من علمه ، فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سميته « المجاز »(٢) .

وبذلك أصبحت قضية الإعجاز القرآني مطروحة على مائدة البحث، وشغلت أذهان العلماء باحثين عن السر وراء عظمة القرآن الكريم وإعجازه .

وقد كان من أوائل الذين تعرضوا لقضية الإعجاز القرآني إبراهيم بن سيار المعروف بالنظام (ت ٢٣١ هـ) الذي قال بالصرفة ، أي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن الكريم مع إمكانهم تلك المعارضة ، ولم يعجب هذا الرأي كثيراً من العلماء الذين نظروا إلى وجوه وأدلة تكمن في النص القرآني من أجلها عجز البشر عن معارضته والإتيان بمثله .

---

(١) الصافات . ي ٦٥ .

(٢) انظر معجم الأدباء ١٩/١٥٨ ، ١٥٩ .

وبالرغم من تعدد وجوه الإعجاز القرآنى إلا أننا سنقصر الحديث على الجهود التى تناولت الإعجاز من الوجه البلاغى ، وذلك لسببين :

أولهما . أنه الوجه الذى يتفق وسنة الله فى تأييد رسله بالمعجزات ، فقد كانت معجزاتهم من نوع ما نبغ فيه أقوامهم ، وما تفوق العرب فى شىء مثلما تفوقوا فى لغتهم وبيانهم .

ثانيهما . أنه الوجه الذى أقام عليه السكاكى قضية الإعجاز القرآنى ، وتناوله بالشرح والتوضيح .

والجهود التى تناولت الإعجاز القرآنى من الوجه البلاغى قبل السكاكى يمكن إجمالها فيما يلى :

١ - لعل أبا عبيدة معمر بن المثنى بكتابه « مجاز القرآن » يعد أول كاتب فى قضية الاعجاز القرآنى وإن لم يصرح بذلك ، فقد كان هدفه أن يثبت أن القرآن الكريم جاء على سنن كلام العرب ، وأن أسلوبه نمط من أساليبهم ، فكان كتابه تدليلا على قول الله تعالى « بلسان عربى مبين »[1] ، وأنه مشتمل على ما اشتمل عليه كلام العرب سواء من وجـــوه الاعراب أو المعانى .

ويصرح أبو عبيدة بهذا الهدف فى مقدمة كتابه ، وذلك قوله . « لم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبى ﷺ أن يسألوا عن معانيه ، لأنهم كانوا عرب الألسن ، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه ، وعما فيه مما فى كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص وفى القرآن مثل ما فى الكلام العربى من وجوه الاعراب ، ومن الغريب والمعانى »[2] .

---

(١) الشعراء . ى ١٩٥ .   (٢) مجاز القرآن ١ / ٨ .

وهكذا صار نظم القرآن ومعانيه أمام هجوم عنيف ، فقام علماء المسلمين - من أمثال أبي عبيدة - يدافعون عنه ويناضلون عن حجة النبي ﷺ .

٢ - وجاء الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) بعد أبي عبيدة ، فلم يعجبه رأي النظام القائل بالصرفة ، ورأى أن إعجاز القرآن الكريم في نظمه وأسلوبه ، ويؤلف في ذلك كتاباً أسماه « نظم القرآن » يقول عنه أبو الحسين الخياط (ت ٢٩٠ هـ) : « لا يعرف المتكلمون أحداً منهم نصر الرسالة واحتج للنبوة بلغ في ذلك ما بلغه الجاحظ ، ولا يعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه ، وأنه حجة لمحمد صلى الله عليه وسلم على نبوته غير كتاب الجاحظ[١] » .

ويبدو أن الجاحظ في هذا الكتاب أحاط بأطراف القضية وعرض لأقوال المعاندين والرد عليها ، ليحتج للقرآن الكريم ، ويبين أن ما اشتمل عليه من الإيجاز والحذف والزوائد والفضول ، والاستعارات وغيرها لها من الفضل والمزية بحيث تبطل قول المبطلين ورد طعن الطاعنين .

وذلك قوله « ولي كتاب جمعت فيه آياً من القرآن لتعرف بها فضل ما بين الإيجاز والحذف وبين الزوائد والفضول والاستعارات ، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة »[٢] .

ويصرح الجاحظ بغايته من الكتاب في قوله عنه «أجهدت فيه نفسي وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن والرد على كل طعان »[٣] .

---

(١) الانتصار ص ١٥٤ ، ١٥٥ .
(٢) أنظر الحيوان للجاحظ ٢/١٢١ ، ١٢٢ .
(٣) رسائل الجاحظ ٢/١٢١ ، ١٢٢ .

٣ — وجاء ابن قتيبة « ت ٢٧٩ هـ » بكتابه تأويل مشكل القرآن ، ليقدم دراسة قرآنية خصبة تتصل بأسلوب القرآن وبلاغته ، ليثبت من ورائها عظمته وإعجازه .

ويفصح ابن قتيبة في مقدمة كتابه عن هذا الهدف بقوله « الحمد لله الذي نهج لنا سبل الرشاد، وهدانا بنور الكتاب ، « ولم يجعل له عوجا[1] ، بل نزله قيما مفصلا بينا ، « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد[2] » . وشرفه وكرمه ورفعه وعظمه ، وسماه روحا ورحمة وشفاء وهدى ونورا ، وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين ، وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلفين ، وجعله متلوا لا يمل على طول التلاوة ، ومسموعا لا تمجه الآذان ، وغضا لا يخلق على كثرة الرد ، وعجيبا لا تنقضي عجائبه[3] » .

وابن قتيبة لا ينهج في كتابه نهج المفسرين الذين يتابعون آي القرآن آية آية ، ويشرحون ما فيها من معنى لفظ ، أو بيان عظة ، أو سرد خبر ، وإنما يعرض ابن قتيبة لما خفي عن العامة الذين لا يعرفون إلا اللفظ وظاهر دلالته على معناه .

وإذا كان القرآن الكريم نمطاً فريداً ، ونظاماً محكما ففيه من القوة والجمال ما قد يخفى على غير أهل الذوق وأرباب البصيرة بالفن الأدبي ،

---

(١) الكهف . ى : ١ .
(٢) فصلت . ى : ٤٢ .
(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٣ .

ولذلك — كما يرى ابن قتيبة — فإنه لا يعرف فضل القرآن إلا من كثر نظره واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب وافتنانها فى الأساليب ، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات ، فإنه ليس فى جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال ما أوتيت العرب[١] .

وقد تعرض ابن قتيبة فى كتابه للكثير من طرق القول وفنونه كالاستعارة والتمثيل ، والتقديم والتأخير ، والإظهار والإخفاء ، والكناية والتعريض ، وغير ذلك من فنون الكلام ليثبت أن القرآن الكريم نزل بكل هذه الأساليب ، وجاء بكل هذه المذاهب ، ولذلك لا يقدر أحد من التراجم عن أن ينقله إلى شىء من الألسنة ، لأن العجم لم تتسع فى هذه الطرائق اتساع العرب فيها . فكان القصد من تأليف هذا الكتاب أن يدفع طعن الطاعنين على لغة القرآن ، والقائلين كما قال أسلافهم : « لو نشاء لقلنا مثل هذا[٢] .

وقد أفصح عن هذه الغاية بقوله : « أحببت أن أنضح عن كتاب الله ، وأرمى من ورائه بالحجج النيرة والبراهين البينة ، وأكشف للناس ما يلبسون فألفت هذا الكتاب جامعاً لتأويل مشكل القرآن ، مستنبطاً ذلك من التفسير ، بزيادة فى الشرح والإيضاح ، وحاملا ما لم أعلم فيه مقالا لإمام مطلع على لغات العرب[٣] .

٤ — ثم يجىء أبو الحسن على بن عيسى الرمانى (ت ٣٧٤ هـ) فيقدم

---

(١) أنظر البيان العربى ص ٢٩ وما بعدها ، وتأويل مشكل القرآن ص ١٢ .

(٢) الأنفال . ى : ٣١ .

(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٢٣ .

درساً مستفيضاً في إعجاز القرآن من جهة نظمه وبلاغته في كتابه « النكت في إعجاز القرآن ».

وقد قرر الرماني أن القرآن معجز ببلاغته وأسلوبه ، وما تحدثه هذه البلاغة في النفوس . وقد عرف البلاغة بأنها إيصال المعنى إلى القلب في حسن صورة من اللفظ ، وهي عنده ثلاث طبقات ، فأعلاها طبقة معجز ، وهو بلاغة القرآن الكريم ، والإعجاز ليس للعرب وحدهم ، وإنما للعرب والعجم على السواء ، ومنها ما هو أدنى طبقة ، ومنها ما هو في الوسط بين أعلاها وأدناها ، وما سوى أعلاها هو كلام الناس الذي تتفاوت أوصافه وفضائله تبعاً لتفاوت خصائصه وما حواه من وجوه .

وقد عرض الرماني وجوهاً أخر غير الوجه البلاغي ، إلا أنه أدار كتابه حول دراسة الوجه البلاغي لإعجاز القرآن الكريم .

من ثم فقد قسم البلاغة أقســـاماً عشرة هي : الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف والتضمين والمبالغة ، وحسن البيان . وعرف كل قسم من هذه الأقسام العشرة ، ممثلا لها من القرآن الكريم وبليغ الكلام[1] .

وقد استطاع الرماني بمنهجه في عرض البلاغة القرآنية أن يوضح لنا رأيه في وجه الإعجاز كما أبان عن تمكنه من فهم بلاغة القرآن ، فهو يتناولها تناول المتذوق لحلاوتها المدرك لما حوته من لطائف وأسرار .

● — ثم يجيء أبو سليمان محمد بن إبراهيم الخطابي (ت ٣٨٥ هـ) فيرى أن في القرآن الكريم نظماً وتأليفاً يباين كلام العرب وإن جاء على لغتهم .

---

(١) أنظر النكت في إعجاز القرآن ص ٧٥ وما بعدها .

فقد جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظم مضمناً أصح المعانى ، واصفاً كل شىء منها فى موضعه ، وأن إعجازه فى نظمه وتركيبه وتأليفه ، وهذا الإعجاز من وجهين :

أولها : الإحاطة الإلهية بأسرار اللغة ومعانى الأشياء ودقائقها ، حتى جاء القرآن معبراً عن كل معنى بأدق الألفاظ وأكلها ، وأبدع الأساليب وأرقاها .

يقول : « إنما تعذر على البشر الاتيان بمثله لأمور منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبأوضاعها التى هى ظروف المعانى والحوامل لها ، ولا تدرك أفهامهم جميع معانى الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ . ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التى بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله ، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لها ناظم . وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه فى غاية الشرف والفضيلة[1] » .

ثانيهما : أن القرآن الكريم له أثر خاص فى استمالة النفوس إليه ، وانجذاب القلوب حوله ، فألفاظه وتراكيبه لها وقع خاص ، يستوى فى ذلك من آمن به ومن كفر .

يقول : « فى إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم ، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره فى النفوس ، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى أخرى

---

(١) إعجاز القرآن للخطابى ص ٢٧ وما بعدها .

ما يخلص منه إليه تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب والقلق وتغشاها من الخوف والفرق ما تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها[١] ».

ثم يمضى الخطابى فى شرح هذين الوجهين ، ليصل إلى غايته ، وهى أن القرآن الكريم أعلى مراتب الكلام ، مؤيداً قوله بالأدلة والبراهين .

٦ — وتناول قضية الإعجاز القرآنى بعد الخطابى رجل من أعلام الأشاعرة هو أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى (ت ٤٠٣ هـ) فأفاض القول فيما يوجه إلى القرآن من المطاعن . وكتابه « إعجاز القرآن » يعد سجلا حافلا بالدراسات الجادة والمادة الغزيرة والعرض الجميل والتحليل الممتع .

وقد تعرض الباقلانى لآراء العلماء فى الإعجاز ، فيذكر جملة من وجوه الإعجاز عندهم ، ومن هذه الوجوه أن القرآن بديع النظم عجيب التأليف ، متناه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه ، وهذا الوجه هو أهم الوجوه التى عنى بها العلماء وتكلموا عنها فى إفاضة .

كما تعرض لكتاب « نظم القرآن » للجاحظ ، فقرر أنه غير كاف فى التدليل على بلاغة القرآن وسر روعته ؛ فلم يزد الجاحظ — فى رأيه — على ما دله المتكلمون قبله ؛ لأن أسلوب القرآن ونظامه ينبغى النظر إليهما على أنهما خارجان عن مألوف كلام العرب ، سواء فى منظومه أو منثوره فهو ليس بالشعر ولا بالنثر ولا بالسجع ؛ وإنما هو أسلوب انفرد به وحده وتصرف فى فنون القول لا تجدها إلا فيه ؛ ولهذا جاء معجزاً لا يمكن معارضته .

---

(١) المصدر السابق ص ٩٢ .

ثم يذكر الباقلانى فضل القرآن على سائر كلام العرب نظماً ونثراً ، فيعدد وجوهاً يباين فيها النظم القرآنى كلام العرب ، منها : أن كلام البلغاء يتفاوت تفاوتاً بيناً فى الفصـــل والوصل ، والعلو والنزول ، والتقريب والتبعيد وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع ، ومنها : أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الصفة والغرابة والتصرف فى البديع والمعانى اللطيفة والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب فى البلاغه ، والتشابه فى البراعة على هذا الطول ، وعلى هذا القدر، ومنها : أنه سهل سبيله ، خارج عن الوحشى المستكره والغريب المستنكر ،وعن الصنعة المتكلفة ، ومع ذلك فهو ممتنع المطلب ، عسير المتناول غير مطمع مع قربه فى نفسه ، ولا موهم مع دنوه فى موقعه أن يقدر عليه أو يظفر به[1] .

ثم ينتقل الباقلانى إلى المقارنات ، فيعقد مقارنات بين القرآن الكريم وما اشتهر من كلام العرب شعراً ونثراً ، فيقارن بينه وبين خطب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبينه وبين أشعار امرىء القيس والبحترى وغير ذلك من مأثور كلام العرب وبلغائهم . وهو يرمى من وراء هذه المقارنات إلى أن القرآن نمط فريد من القول لا يوازن بشعر ولا بنثر ، لأن مزيته عليهما تظهر لمن عرف كلام العرب ومناهجهم فى القول ، ولمن وقف على بلاغتهم وأساليب كلامهم .

ثم هو عندما يصل الى جمال الأسلوب القرآنى وعظمته يصف إحساسه وعجزه عن إدراك ذلك الجمال فيقول : « فأما منهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه فإن العقول تتيه فى جهته ، وتحار فى بحره ، وتضل دون وصفه ،

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٦ وما بعدها .

وهو أرق من السحر وأهول من البحر ، وأعجب من الشعر[1] .

وقد حاول الباقلانى لفت الأنظار إلى أدلة هذا السحر القرآنى ، فتصور سائلا يسأله ، هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما يتضمن من البديع ؟

ولذا فإنه يعرض نماذج من فنون البديع القرآنية[2] كالتشبيه والاستعارة والغلو ، والمطابقة ، والتجنيس . والمقابلة ، والموازنة ، والالتفات وغير ذلك من فنون الكلام ، وخصائص الأدب .

وإذا كنا نثنى على الباقلانى إطالته وإفاضته فى عرض وجوه البلاغة وحديثه عن النظم ، وأنه استطاع أن يقدم هذا العرض بأسلوب جميل فيه دقة العالم وذوق الأديب إلا أنه مع ذلك لم يستطع أن يبلور نظرية النظم أو يقدمها فى إطار واضح محدد .

٧ — وجاء بعد الباقلانى أبو الحسن محمد بن الطاهر الشريف الرضى (ت ٤٠٦ هـ) فتناول النظم القرآنى فى كتابه « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » .

وكلمة المجاز عند الشريف الرضى يختلف معناها عن المعنى الذى أراده أبو عبيدة فى كتابه « مجاز القرآن » سالف الذكر ، فأبو عبيدة يريد منها معناها اللغوى ، وهو التفسير والبيان أما الشريف فقد أراد المعنى المقابل للمعنى الوضعى . ولكنه لم يفرق تفرقة دقيقة بين أنواع المجاز ، حتى إنه أدخل صور المجاز العقلى فى الاستعارة ، فنراه يورد من الشواهد قوله

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٨ وما بعدها .

(٢) المراد بالبديع عند الباقلانى هو المعنى الأدبى وهو : محاسن الكلام وخصائص الأدب المميزة له . وليس معناه عند المتأخرين .

تعالى : « فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيبا »[1] ، ويعلق على الآية بقوله : «وهذه استعارة ، والمراد بها أن الولدان الذين هم الأطفال لو جاز أن يشيبوا لرائع خطب أو طارق كرب لشابوا فى ذلك اليوم لعظيم أهواله ، وفظاعة أحواله ، وذلك كقول القائل : قد لعيت من هذا الأمر ما تشيب منه ، كناية عن فظيع ما لاقى ، وعظيم ما قاسى »[2] .

والآية عند المتأخرين من علماء البلاغة من قبيل المجاز العقلى من باب إسناد الفعل إلى زمنه ، وليست من قبيل الاستعارة .

والشريف يقصر البحث فى كتابه على مجازات القرآن ، فهو - كما يقول - لم يجد أحداً ممن تقدم رمى إلى هذا الغرض ، وأجرى إلى هذا الأمد ، فذكر فى هذا الكتاب ما يشتمل عليه القرآن من عجائب الاستعارات ، وغرائب المجازات التى هى أحسن من الحقائق معرضاً وأنقع للغلة معنى ولفظا ، ونبه إلى قيمة المجاز والاستعارة ، كما فضل الاستعارة على الحقيقة ، فيقول : « إن اللفظة التى وقعت مستعارة لو أوقعت فى موقعها لفظة الحقيقة لكان موضعها نابياً بها ، ونصابها قلقاً بمركبها ، والحكيم - سبحانه - لم يورد ألفاظ المجازات لضيق العبارة ، ولكن لأنها أجلى فى أسماع السامعين وأشبه بلغة المخاطبين[3] » .

وقد قدم الشريف الرضى بكتابه بحثاً عميقاً فى الإعجاز القرآنى ، أعانه على ذلك علمه الواسع بلغة آبائه وأجداده ، وتبحره فى أدب العرب شعره ونثره ، فوق أنه كان من فحول الشعراء ، والقوامين على لغة قومه وأمجادهم

---

(١) المزمل - ى : ١٧ .

(٢) تلخيص البيان ص ٣٥٢ .

(٣) المصدر السابق ص ١ .

كما كان عميق الفهم لآى الذكر الحكيم ، وفيه من قوة التأمل وصدق الحس ما يوازى ذوقه ودقة نظره .

٨ — وبعد الشريف الرضى جاء علم من أعلام المعتزلة هو القاضى أبو الحسن عبد الجبار الأسدى أبادى قاضى قضاة الدولة البويهية بإيران والمتوفى عام ٤١٥ هـ .

وقد فصل القاضى عبد الجبار القول فى إعجاز القرآن ، وكتابه « المغنى فى أبواب التوحيد والعدل » يعد من أهم مؤلفـــاته . وقد خصص الجزء السادس عشر من هذا الكتاب لقضية الإعجاز القرآنى .

وقد استطاع القاضى عبد الجبار أن يبلور فكرة النظم ، ولم يعجبه آراء السابقين فيها ، فقدم تحليلا دقيقاً لهذه النظرية التى بسطها الإمام عبد القاهر الجرجانى ورد أمر الاعجاز إليها .

وتقوم نظرية النظم عند القاضى عبد الجبار على الأصول الآتية :

١ — أن إعجاز القرآن الكريم ليس له من تفسير إلا فصاحته .

٢ — أن الفصاحة لا تظهر فى كلماته الأفراد ، وإنما تظهر فى الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ، ولا بد مع الضم أن يكون لكل كلمة صفة ، وتلك الصفة تكون بواحد من ثلاثة :

(أ) إما بالمواضعة .

(ب) وإما بالاعراب الذى له مدخل بالضم .

(جـ) وإما بموضع الكلمة من الجملة .

يقول القاضى : « اعلم أن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلام ، وإنما تظهر فى الكلام بالضم على طريقة مخصوصة . ولا بد مع الضم من أن

يكون لكل كلمة صفة ، وقد يجوز فى هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التى تتناول الضم . وقد تكون بالإعراب الذى له مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع ، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع . لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة أو حركاتها ، أو موقعها ، ولابد من هذا الاعتبار فى كل كلمة ، ثم لابد من اعتبار مثله فى الكلمات ، إذا انضم بعضها إلى بعض ، لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة ، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها فعلى هذا الوجه الذى ذكرناه إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ماعداها ، فإن قال قائل: قد قلتم إن فى جملة ما يدخل فى الفصاحة حسن المعنى فهلا اعتبرتموه ؟ قيل له: إن المعانى وإن كان لابد منها فلا تظهر فيها المزية ، ولذلك نجد المعبرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر والمعنى متفق ، على أنا نعلم أن المعانى لا يقع فيها تزايد ، فإذن يجب أن يكون الذى يعتبر التزايد عنده الألفاظ التى يعبر بها عنها ، فإذا صحت هذه الجملة فالذى تظهر به المزية ليس إلا الإبدال الذى به تختص الكلمات أو التقدم والتأخر الذى يختص الموقع أو الحركات التى تختص الإعراب ، فبذلك تقع المباينة بين الكلام »[1].

هذه خلاصة الرأى فى قضية الإعجاز القرآنى عند القاضى عبد الجبار ، والذى يدور حول قضية النظم والفصاحة ، ففكرة الفصاحة — عنده — على هذا التحليل إنما هى مرادفة لفكرة النظم ، ولأن الكلمة كثيراً ما تكون لها مزية على غيرها بحسب الوضع إما من حيث معناها أو من حيث بنيتها .

وعبد الجبار — بهذا التحليل — نراه قد وقف على معنى النظم الذى استمد منه عبد القاهر الجرجانى نظريته فيه ، والتى أودعها كتابه « دلائل

---

(١) المغنى فى أبواب التوحيد والعدل ١٦ / ١١٩ وما بعدها .

الإعجاز ، فهو صاحب النظرية أصلا ، وفضل اكتشافها وابتكارها ينسب إليه ، وعبد القاهر له فضيلة تفسيرها تفسيراً دقيقاً ، حتى أصبح فعلا صاحبها الذى صورها وطبقها واستخرج على أساسها علم المعانى المعروف الآن بين علوم البلاغة"(١).

٩ — ثم يأتى الإمام عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١ هـ) فألف فى الإعجاز القرآنى كتابين هما : الرسالة الشافية ، ودلائل الإعجاز . وبعد أن برهن عبد القاهر برهنة تاريخية على أن العرب قد عجزوا عن الاتيان بمثل القرآن لم يعجبه رأى القائلين بالصرفة، وعرض للرد على كثير من المتكلمين فى الوجوه التى ذهبوا إليها .

وقد خلص من هذا كله إلى فكرته التى خصص لعرضها وتفصيلها وفلسفتها والتطبيق عليها كتابه « دلائل الاعجاز » .

إن فكرة عبد القاهر تتلخص فى أن الوجه الوحيد لاعجاز القرآن الكريم إنما يكمن فى بلاغته وفصاحته ، وأن هذه البلاغة تكمن فى نظم القرآن على هذا الأسلوب الذى نزل به ، لا فى ألفاظه منفردة عن هذا النظم الذى جاء به .

وقد صرح بهذا فى قوله : « ماذا أعجز العرب ؟ وعن ماذا عجزوا ؟ أعن معان من دقة معانيه وحسنها وصحتها فى العقول ؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه . ثم يعود عبد القاهر فيجيب عن ذلك بقوله: أعجزتهم مزايا ظهرت لهم فى نظمه ، وخصائص صادفوها فى سياق لفظه ، ومبادىء راعتهم من مبادىء آيه ومقاطعها ، ومجارى ألفاظه ومواقعها ، وفى مضرب كل مثل ، ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام، وترغيب فى كل حجة

---

(١) فكرة النظم بين وجوه الاعجاز ص ٦٨ .

وبرهان، وصفة بيان وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة وعشراً عشراً، وآية آية فلم يجدوا فى الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح مكانا أو أشبه، أو أحرى وأخلق بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاماً، واتقانا وإحكاماً لم يدع فى نفس بليغ منهم ولو حك بيافوخه السماء موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدعى وتقول، وخلدت القروم فلم تملك أن تصول »[1].

و ٣ - اهتم عبد القاهر اهتماما كبيراً استغرق كل كتابه بقضية النظم، حيث إنها الوجه الوحيد للإعجاز، ففصل القول فى بيان حقيقة النظم، والكشف عن فصوله وألوانه. وبيان مقوماته، فيفصح أن ليس النظم سوى توخى معانى النحو وقواعده فيما بين الكلم على حسب الأغراض التى يساق لها الكلام، فيقول: « واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التى رسمت فلا تخل بشىء منها »[2].

ويفرق عبد القاهر بين نظم الحروف ونظم الكلمات، فنظم الحروف يأتى بحسب توالها فى النطق، وليس نظمها - أى الحروف - بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتض فى ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى فى نظمه لها ما تحراه، وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، أى كنظم الحروف، لأنك تقتضى فى نظمه آثار المعانى، وترتيبها على حسب ترتيب المعانى فى النفس، فهو - إذن - نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذى معناه ضم الشىء إلى الشىء كيف جاء واتفق، وكذلك كان

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٧ - ٣٨.
(٢) المصدر السابق ص ٦٤.

عندهم نظيرا للنسج والتأليف، والصياغة والبناء والوشى والتحبير ، وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضى كونه هناك ، وحتى لو وضع فى مكان غيره لم يصلح(١)

ومعرفة خصائص النظم لا يمكن الوصول إليها إلا بتتبع كلام العرب ، والوقوف على أشعارهم وما راموه فى هذه الأشعار والاحاطة بها إحاطة كاملة ، وهذا مادعاه إلى عقد موازنات ومقارنات على نحو ما وجدناه عند الباقلانى وغيره .

وقد عرض عبد القاهر لكثير من الألوان : كالتقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والفصل والوصل ، والقصر والاختصاص ، والتشبيه والاستعارة والكناية ، وماذلك إلا لأن هذه الألوان طرق يؤدى بها النظم ، ولا سبيل إلى معرفة النظم إلا بالوقوف على تلك الخصائص .

يقول : « إنك لن تعلم فى شىء من الصناعات علما تمر فيه وتحلى حتى تكون ممن يعرف الخطأ فيها من الصواب ، ويفصل بين الإساءة والاحسان . بل حتى تفاضل بين الاحسان والإحسان وتعرف طبقات المحسنين . وإذا كان هذا هكذا علمت أنه لا يكفى فى علم الفصاحة أن تنصب لها قياساً ما وأن تصفها وصفاً مجملا وتقول فيها قولا مرسلا ، بل لا تكون من معرفتها فى شىء حتى تفصل القول وتحصل ، وتضع اليد على الخصائص التى تعرض فى نظم الكلم وتعدها واحدة واحدة وتسميها شيئاً شيئا ، وتكون معرفتك معرفة الصنع الحاذق الذى يعلم علم كل خيط من الابريسم الذى فى الديباج ، وكل قطعة من القطع المنجورة فى الباب المقطع ، وكل آجرة من الآجر الذى فى البناء البديع ، وإذا نظرت إلى الفصاحة هذا النظر ،

---

(١) المصدر السابق ص ٤٤ .

وطلبتها هذا الطلب احتجت إلى صبر على التأمل ومواظبة على التدبر ، وإلى همة تأبى لك أن تقنع إلا بالتمام ، وأن تربع إلا بعد بلوغ الغاية »[1] .

وقد كان منهج عبد القاهر الجرجانى فى بحث الإعجاز منهجاً قائماً على تربية الذوق والاحساس بممارسة الأساليب ، ونقدها والتعرف على مواطن الجمال فيها .

١٠ — وبعد عبد القاهر جاء العلامة جار الله محمود بن عمر الزمخشرى (ت ٥٣٨ هـ) بكتابه الكشاف ليقدم صورة ناطقة لبلاغة القرآن المعجزة ، وليحقق بهذا العمل جميع أمانى المتكلمين معتزلة وأشاعرة ، التى انعقدت على كشف النقاب عن البلاغة القرآنية التى هى مناط الاعجاز .

والزمخشرى — وهو أحد رؤوس المعتزلة — لم يغفل الجهود التى سبقته فى هذا الميدان ، لا فرق فى ذلك بين جهود المعتزلة أو أهل السنة ، فأقبل على الدراسات البلاغية يهضمها ويستوعبها ، فتمثلها تمثلا منقطع النظير ، لا سيما ماكتبه الامام عبد القاهر الجرجانى فى دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة ، فقد كانت كتابات الامام عبد القاهر هى المصباح الذى أضاء له الطريق لتحقيق هدفه والوصول إلى غايته .

وقد كان فهم الزمخشرى للدراسات البلاغية خصوصاً عند عبد القاهر ماجعله يؤمن بأن المعرفة بالبلاغة والوقوف على أنماطها وأسرارها هو المفتاح الحقيقى الموصل للاعجاز البلاغى فى القرآن الكريم كما تكشف عن خفايا معانيه ، ولطائفه الخبيئة .

يقول فى مقدمة تفسيره : « إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح وأنهضها

---

(١) المصدر السابق ص ٣٥ ، ٣٦ .

بما يبهر الألباب القوارح من غرائب نكت يلطف مسلكها ، ومستودعات أسرار يدق سلكها علم التفسير الذى لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذى علم ، كما ذكر الجاحظ فى كتاب نظم القرآن . فالفقيه وإن برز على الأقران فى علم الفتاوى والأحكام ، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا فى صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ ، والواعظ وإن كان من الحسن البصرى أوعظ ، والنحوى وإن كان أنحى من سيبويه ، واللغوى وإن علك اللغات بقوة لحييه . لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولا يغوص على شىء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعانى وعلم البيان ، وتمهل فى ارتيادهما آونة وتعب فى التنقير عنهما أزمنة ، وبعثته على تتبع مظانهما همة فى معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ ، جامعاً بين أمرين : تحقيق وحفظ كثير المطالعات طويل المراجعات قد رجع زمانا ورجع إليه ، ورد ورد عليه ، فارساً فى علم الإعراب ، مقدما فى حملة الكتاب ، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها مشتعل القريحة وقادها يقظان النفس دراكا للمحة وإن لطف شأنها منتبها على الرمزة وإن خفى مكانها لا كزا جاسياً ، ولا غليظاً جافيا متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والنثر ، مرتاضاً غير ريض بتلقيح بنات الفكر قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف ، وكيف ينظم ويرصف طالما دفع إلى مضايقه . ووقع فى مداحضه ومزالقه »[1].

واضح - إذن - أن الزمخشرى يجعل النظم أساساً هاماً يقوم عليه الاعجاز القرآنى ، كما أنه لا سبيل - عنده - إلى فهم النظم القرآنى وما حواه من أسرار ولطائف ، وما اشتمل عليه من خصائص ودلالات إلا بعلمين أساسيين هما : المعانى والبيان .

---

(١) الكشاف ١ / ٣٠ .

فتراه يقول عن النظم : « إنه أم الإعجاز والقانون الذى وقع عليه التحدى ومراعاته أهم ما يجب على المفسر »[1] . ويقول عن الأسرار التى حواها النظم القرآنى : « وهذه الأسرار والنكت لا يبرزها إلا علم النظم . وإلا بقيت محتجبة فى أكمامها »[2] .

وقد مضى الزمخشرى يطبق رأى الامام عبدالقاهر فى الاعجاز القرآنى ، وما وضعه من قواعد البلاغة وأصولها . مضى يطبق ذلك على آى الذكر الحكيم ، والمتصفح لتفسيره يدرك عنايته الفائقة بهذا الجانب البلاغى فى البرهنة على إعجاز القرآن الكريم .

فمن ذلك شرحه لأسلوب الوصل والاستئناف فى قوله تعالى : « ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب[3] » . يقول : فإن قلت : أى فرق بين إدخال الفاء ونزعها فى (سوف تعلمون) ؟ قلت : إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ونزعها وصل خفى تقديرى بالاستئناف الذى هو جواب السؤال مقدر . كأنهم قالوا : فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت ؟ فقال : سوف تعلمون . فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف للتفنن فى البلاغة ، كما هو عادة بلغاء العرب وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه »[4]

والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى مما يدل على قوة عارضته ،

---

(١) المصدر السابق ٢ / ٢٤ .
(٢) المصدر السابق ٢ / ٣٠٢ .
(٣) هود : ٩٣ .
(٤) الكشاف ١ / ٤٥٢ وما بعدها .

وفهمه العميق لألوان البلاغة وفنونها. وتطبيق ذلك على آى الذكر الحكيم، ليقدم بذلك درساً عمليا فى الاعجاز القرآنى. وليصل إلى غايته، وهى أن إعجاز القرآن فى نظمه وأسلوبه.

١١ — وكما هام الزمخشرى بنظرية النظم التى بسطها وشرحها الامام عبد القاهر جاء الامام فخر الدين الرازى (ت ٦٠٦ هـ) فشارك الزمخشرى إعجابه بما كتب عبد القاهر فى دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة ورأى أن الوقوف على هذين الكتابين يكشف السر وراء عظمة القرآن وإعجازه، فإعجاز القرآن فى نظمه وفصاحته، ولا سبيل للوصول إلى فهم النظم وخصائص الفصاحة إلا بهذين الكتابين.

فيقول أن «الناس كانوا مقصرين فى ضبط معاقده وفصوله متخبطين فى إتقان فروعه وأصوله. معتقدين فيه اعتقادات حائرة عن منهج الصواب والسداد زائغة عن طريق الحق والرشاد. ظانين أن كل من عرف أوضاع اللغة من اللغات، وقدر على استعمال بعض العبارات، فهو بالغ فى تلك اللغة من البيان إلى ذرى أفلاكها، مالك لمبادئها وغاياتها، واستمر الناس بهذا الوسواس إلى أن وفق الله تعالى الامام مجد الاسلام عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى تغمده الله برحمته، وأفاض عليه فنون مغفرته حتى استخرج أصول هذا العلم وقوانينه. ورتب حججه وبراهينه وبالغ فى الكشف عن حقائقه والفحص عن لطائفه ودقائقه، وصنف فى ذلك كتابين لقب أحدهما بدلائل الاعجاز. والثانى بأسرار البلاغة، وجمع فيهما من القواعد الغريبة والدقائق العجيبة والوجوه العقلية والشواهد النقلية واللطائف الأدبية. والمباحث العربية مالا يوجد فى كلام من قبله من المتقدمين. ولم يصل إليها غيره أحد من العلماء الراسخين[1]».

وكتابا عبد القاهر يبدو عليهما — كما يقول الرازى — طابع التكرار

---

(١) نهاية الايجاز ص ٤.

والإطناب ، ويعوزهما الترتيب والتبويب مما لا يسهل الاطلاع عليهما والانتفاع بهما .

لذا فقد رأى الرازى - بعد مطالعته لهما - أن يلتقط منهما معاقد فوائدهما ومقاصد فرائدهما ويؤلف فى ذلك كتابا مستقلا يراعى فيه الترتيب مع التهذيب والتحرير مع التقرير ، وضبط أوابد الإجمالات فى كل باب بالتقسيمات اليقينية ، وجمع متفرقات الكلم فى الضوابط العقلية ، مع الاجتناب عن الإطناب الممل ، والاحتراز عن الاختصار المخل . فألف لذلك كتابه « نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز (١) » .

وقد استهل الرازى كتابه بذكر آراء العلماء فى الاعجاز ، فذكر أنها أربعة هى : الصرفة ، ومخالفة أسلوب القرآن لأساليب الشعر والخطب والرسائل ، وعدم وجود اختلاف وتناقض فيه ، واشتماله على الغيب . ولكنه لم ير فى هذه المذاهب وجها من وجوه الاعجاز ، فقام بتفنيدها وأظهر فيها من بعد عن الحقيقة والصواب . ورأى أن القرآن معجز لما اشتمل عليه من فصاحة وبلاغة ، ولا يمكن التوصل إلى معرفة إعجازه إلا بدراسة البلاغة والتعمق فى مسائلها .

ثم التعمق فى مسائل البلاغة لا يكون إلا بالوقوف على ما كتبه إمامها عبد القاهر الجرجانى لذا فإن الحاجة إلى تسهيل الاطلاع على الكتابين تصبح ماسة ، وهذا ما قام به الرازى .

وقد كان ما فعله الرازى حلقة الوصل بين عبد القاهر والسكاكى ، كما كان الخطوة الأولى لضبط قواعد علم البلاغة وأصولها .

تلك بإيجاز الجهود التى سبقت أبا يعقوب السكاكى فى ميدان الإعجاز القرآنى ، وهى - كما ترى - جهود حية بحياة ما خلفه أصحابها فى هذا المضمار وخصبة بما تركوا فيها من إدراك عميق وحس مرهف بعظمة الأسلوب القرآنى وأسراره الجمالية ، وإعجاز نظمه .

---

(١) المصدر السابق — الموضع السابق .

المبحث الثانى

الإعجاز القرآنى والبلاغة فى بيئة السكاكى

نشأ السكاكى - كما أسلفنا - فى بيئة خوارزم . وهى ثغر من ثغور الإسلام ، ظل عرضة لغزوات غير المسلمين دهراً طويلا ، كما كان هدفا من جيرانها من أهل الكفر والعدوان .

ويقول ابن سمعة الكاتب عن خوارزم « هى ثغر من ثغور الإسلام قد اكتنفها أهل الشرك وأطافت بها قبائل الترك فغزو أهلها معهم دائم ، والقتال بينهم قائم ، قد أخلصوا فى ذلك نياتهم وأمحصوا عن طوياتهم ، وقد تكفل الله بنصرهم فى عامة الأوقات ومنحهم الغلبة فى كافة الوقعات ثم حصنها الله بجيحون واد عسر المعبر بعيد المسالك غزير الماء كبير المهالك ، فلا يتوغلها متوغل إلا خاطر بمهجته ، ولا سلك منافذها سالك إلا كان على يأس من سلامته [1] » .

كما تميز هذا الإقليم بالخصب والرخاء ، ووفرة الخيرات ، والجمال الذى تنوعت مناظره وتعددت ألوانه من مياه ومزارع إلى صحارى وفيافى » .

وكان لموقع خوارزم وتعرضها للعدوان من جيرانها بين الحين والآخر كما كان لوفرة خيراتها وطبيعتها الساحرة ، كان لهذا كله الأثر الواضح فى أهلها ، فتميزوا بمميزات من أبرزها :

---

(١) ربيع الأبرار - الباب التاسع .

١ — الحماس الديني الذي تربوا عليه ، يقول ياقوت « ما أظن كان في الدنيا لمدينة خوارزم نظير في ملازمة أسباب الشرائع والدين [١] .

وقد بلغ من تحمسهم لإقامة شعائر الدين أن المؤذن كان يطوف على دور جيران المسجد يعلمهم بحضور الصلاة ، ومن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الإمام بمحضر الجماعة ، وكان في كل مسجد درة معلقة برسم ذلك ، كما يغرم خمسة دنانير تنفق في مصالح المسجد ، أو تطعم للفقراء والمساكين [٢]

٢ — صفاء الأخيلة ورقة المشاعر ، فكثر في هذا الإقليم الأدباء والشعراء والمبدعون ، وقد أفرد الثعالبي لفضلاء خوارزم من أهل القرن الرابع بابا في يتيمته [٣] ، كما ترجم ياقوت لبعض آخر حتى عصره [٤] . وذكر السيوطي بعضا آخر [٥] ، فليرجع إليهم من شاء .

٣ — ازدهار الحياة العقلية ، فانشطت حركة البحث والتأليف ، لاسيما في العلوم الدينية واللغوية فراجت العلوم وكثر العلماء في شتى العلوم والفنون ، فكان المفسرون والمحدثون ، والمتكلمون ، واللغويون والنحويون والبلاغيون وغيرهم .

٤ — وخصيصة أخرى تميز بها هذا الإقليم ، وبعدها الزمخشري رأس فضائلها ، وهو شيوع مذهب المعتزلة فيها ، أو كما قال عنه جار الله دمارزقته

---

(١) معجم البلدان ٢ / ٤٨٦ .
(٢) رحلة ابن بطوطة ٣ / ٤ وما بعدها .
(٣) يتيمة الدهر ٤ / ١٩٤ وما بعدها .
(٤) معجم الأدباء ٢ / ١٣ ، ٤ / ٦٧ ، ٥ / ٣١ .
(٥) بغية الوعاة ص ٣٢٨ وما بعدها .

من المذهب السديد ، مذهب أهل العدل والتوحيد مع الباطشين فيه بقوة السواعد الرامين عنه بالنبل الصوارد الشاقين فيه دقائق الشعر المطيرين عن نحر أعدائه الشعر ، وذلك فى كل زمان ، وخاصة فى زماننا هذا ، فقد أزهر الله فيها ما شاء من السرج وأطال فيها ألسنة الحجج [1] ، وكان انتشار هذا المذهب ، وتمكنه فى أهل هذا الإقليم نتيجة طبيعية لإعمالهم العقل ، والاعتماد عليه فى كثير من الأمور خصوصاً فى مجادلاتهم لأعداء الإسلام ، ودفاعهم عن هذا الدين ضد جيرانهم من أهل الكفر والشرك ، ولذا تراهم فى مذهبهم الفقهى يتبعون أبا حنيفة وأصحابه القائلين بالرأى والقياس .

وقد كان لهذه الخصائص أثرها الذى لا يجحد فى بناء العقلية العلمية لأهل هذا الإقليم ، فأضحت هناك عقلية تمزج بين مقاييس المنطق وأصول العلوم وبين متطلبات الذوق والروح الأدبية ، كما أضحى العامل الدينى أهم البواعث فى إثارة الهمم وحفز العزائم نحو البحث والتأليف .

وكما كان لهذه العوامل أثرها على العقلية العلمية بصفة عامة ، فقد كان لها أثرها الواضح فى نهضة علوم العربية والاهتمام بها ، فراجت هذه العلوم وأدى إلى ازدهارها وجود المدارس النظامية التى تعددت وانتشرت فى مختلف المدن والممالك الاسلامية ، لاسيما فى بغداد وإيران وبلاد ما وراء النهر فكثر المؤلفون والمصنفون فى علوم اللغة والنحو والصرف والبلاغة .

وقد ارتبط البحث فى مجال العلوم العربيه واللغوية بالغيرة على الإسلام والحرص على تعاليمه والحفاظ عليه من أعدائه المحيطين به ، وأضحى هذا

---

(١) ربيع الأبرار ـ الباب التاسع .

الاتجاه واضحاً فى دراسة البلاغة وتناول مسائلها فقد قرنت دراستها بمباحث الإعجاز والمنافحة عن القرآن الكريم والمحاولات التى كثرت للتشكيك فى عظمته وإعجازه حتى قال بعضهم مثلما قال أسلافهم : « لو نشاء لقلنا مثل هذا » ، وأصبح الناس فى ذلك العصر بين رجلين : ذاهب عن الحق ذاهل عن المرشد ، وآخر مصدود عن نصرته ، مكدود فى صنعته ، وقد أدى ذلك إلى خوض الملحدين فى أصول الدين ، وتشكيكهم أهل الضعف فى كل يقين ، وقد قل أنصاره ، واشتغل عنه أعوانه ، وأسلمه أهله ؛ فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه ، حتى عاد مثل الأمر الأول على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره . فمن قائل إنه سحر ! وقائل يقول إنه شعر ، وقائل يقول إنه أساطير الأولين ! وقالوا : لو نشاء لقلنا مثل هذا . إلى الوجوه التى حكى الله عز وجل عنهم أنهم قالوا فيه ، وتكلموا به فصرفوه فيه ؛ وذكر عن بعض جهالهم أنه يساويه ببعض الأشعار ، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ؛ ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه . وليس ببديع من ملحدة هذا العصر ، وقد سبقهم إلى عظم ما يقولون إخوانهم من ملحدة قريش وغيرهم ، إلا أن أكثر من كان طعن فيه فى أول الأمر استبان رشده ، وأبصر قصده فتاب وأناب ، وعرف من نفسه الحق بغريزة طبعه وقوة إتقانه ؛ لا لتصرف لسانه ، بل لهداية ربه وحسن توفيقه ، والجهل فى هذا الوقت أغلب ؛ والملحدون فيه عن الرشد أبعد ، وعن الواجب أذهب [1] .

ومن هـــذا يتضح أن الباعث الدينى هو الذى حدا بالعلماء إلى البحث فى وجوه الإعجاز القرآنى ، وعلى الرغم من تعدد هذه الوجوه وكثرتها ـ كما أشرنا فى المبحث السابق ـ فإن الوجه البلاغى يظل مسيطراً

(١) انظر إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٠ .

على علماء الإعجاز فى هذه البيئة ؛ فقد رأوه الوجه الذى يتفق وحكمة الله فى تأييد رسله بالمعجزات .

ولم تكن علاقة الدين بمنهج البحث البيانى مقصورة على الدفاع عن القرآن والتماس وجه إعجازه ؛ بل كان هناك هدف آخر دفع العلماء إلى البحث حول بلاغة القرآن الكريم وأوجه القول فيه . ذلك الهدف هو فهم القرآن الكريم وكشف معانيه والوقوف على ما حواه من شرع الله ومنهجه وتعاليمه ؛ ولا يتم هذا الكشف إلا بالوقوف على النظم القرآنى المعجز ؛ وما حواه هذا النظم من لطائف وخصائص ؛ وهذه الغاية لا تقل عن الغاية الأولى ، فهى مقصود أساس من مقاصد الشريعة .

وبذلك نفهم قول ابن خلدون : « إن علم البيان علم حادث فى الملة » ، ومعناه أن تنظيم البحث فى الأدب ، والكلام فى عناصره ، وما يسموبه أو ينحط كان جهدا جديدا ! ودراسة لا عهد للعرب بها فى جاهليتهم ولا فى العصر الإسلامى ، وأن البيان كان من العلوم التى تولى غرسها المسلمون فى سبيل فهم كتابهم ، والذب عن قرآنهم ، وكان نماؤه بعد ذلك وتشعب مباحثه بتأثير الدين ، وبتوجيه المفكرين من حملته ورجاله [1] .

ومن ثم فقد ارتبط البحث البلاغى بالدراسات القرآنية المتعلقة بالإعجاز القرآنى ، ووجدنا فى بيئة خوارزم نشاطا كبيراً حول الإعجاز القرانى من جهة نظمه وبلاغته ، بل إن الجهود المبذولة حول مائدة الإعجاز كانت سببا فى إثراء البحث البلاغى وتعدد جوانبه وتشعب مذاهبه ، بل إن هذه الجهود انتهت بالبلاغة إلى تميز علومها واستقلالها على يد أبى يعقوب السكاكى .

---

(١) البيان العربى صـ ٢٣ .

وقد كانت جهود الإمام عبد القاهر الجرجانى فى هذا المجال الركيزة التى بنى عليها من جاء بعده دراساتهم فى إعجاز القرآن الكريم من هذه الناحية ، أعنى ناحية نظمه وبلاغته .

فالقضية التى شغلت عبد القاهر هى قضية الإعجاز ، وهذه القضية ليست فكرة جديدة حتى ندعى أن عبد القاهر مبدعها أو مبتكرها ، ولكنها قضية شغلت الأذهان منذ نزول القرآن الكريم .

وإذا كان القول بالصرفة لم يعجب الإمام عبد القاهر دليلا أو وجها لإعجاز القرآن ، فإن الإمام عبد القاهر لم يقتنع إلا بوجه واحد للإعجاز هو البلاغة والنظم ، ولم يكن هذا - أيضا - جديداً على ساحة البحث فى الإعجاز والدراسات القرآنية على وجه العموم . بل إن نظرية النظم التى بسطها وشرحها لم تكن من عنده ، وإنما سبقه بها كثيرون من أمثال السيرافى والواسطى والقاضى عبد الجبار ، وكان الدافع إلى الكلام فى هذه النظرية أو بسط أجزاء منها سواء عند عبد القاهر أو غيره هو قضية الاعجاز القرآنى .

يقول الدكتور محمد أبو موسى : « فكرة النظم معروفة فى محيط المشتغلين بمسألة الاعجاز ؛ إذ أنها وليدة الدراسة فى هذا الباب ، ولم أعرف كتابا من كتب البلاغة التى تناولت شئون الأدب والشعر قد ذكرت هذه الفكرة ، أو أضافت إليها شيئا ، وإن كانوا قد أشاروا إلى مباحث تتفرع عنها ... ومثل النظم فى هذا قليل من البحوث البلاغية التى كانت وليدة النظر فى كتاب الله مثل التكرار والفواصل والاستدراج وغير ذلك مما نبه البلاغيون إلى أنهم استنبطوه من كتاب الله . نعم قد كان الشعر من شواهد هذه الأصول ، وكان الشعر أيضا مجالا لتطبيقها . وكانت

مقياساً من مقاييس جودته ، ولكن المهم أن الذى دفع إلى الخوض فيها لم يكن هو الشعر ، ولم يكن هو النثر وإنما كان القرآن (١) .

فحديث النظم وربطه بالإعجاز القرآنى معروف قبل عبد القاهر ، وقد رأينا ذلك عند الخطابى ، كما رأيناه عند القاضى عبد الجبار ، وعرفنا أن الجاحظ له فى نظم القرآن كتاب مفقود فإن ذلك يعنى أن جهوداً كثيرة سبقت عبد القاهر فى هذا المجال ، ولكن فضل عبد القاهر فى أنه قدم إطاراً متكاملا وفلسفة واسعة حول هذه النظرية ، فقدمها فى بسط وشرح وتحليل لم يسبق إليها .

وقد كان كتابه « دلائل الاعجاز » خير ما يعبر عن هذا الربط ، فقد قدم فيه درساً بلاغيا ممتعا من خلال عرضه لقضية الاعجاز ، خصوصاً إذا عرفنا أن الدرس البلاغى بدأ يتبلور على يديه ، وأن عبارات البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة وما شاكل هذه الألفاظ تدل على معنى واحد هو : وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما كانت له دلالة ، ثم تبرجها فى صورة هى أبهى وأزين وآنق وأعجب ، وأنها جميعا عبارات يعبر بها عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا ، وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد ، وراموا أن يعلموهم ما فى نفوسهم ، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم (٢) .

والكتاب وإن كان موضوعه الإعجاز ، وكان الإعجاز بالنظم أو الاعجاز البلاغى هو الذى شغل عبد القاهر فى كتابه من أوله إلى آخره ،

---

(١) البلاغة القرآنية فى كشاف الزمخشرى ص ٨٨ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٣٩ ، ٤٠ .

فإن الكتاب يعد درساً بلاغيا ليس فى مسائل النظم وحدها ، بل فى مسائل البيان والبديع ؛ كما يتضح لمن يطالع هذا الكتاب .

وقد كانت المسائل والأسس التى أرساها عبد القاهر ، سواء فيما يتصل ببلاغة الكلام ؛ أو ربط هذه المسائل بالقرآن وإعجازه كأنها جديدة فى عصره . فبدت قلقة منكورة . وهذا ما يفسر شكواه من جهل الناس بما يقول ، أو عجزهم عن استيعابه .

وقيض الله لهذه القواعد علماً من أعلام هذه البيئة ، وهو العلامة الزمخشرى فتولى هذه الأصول وهضمها هضماً جيداً ، ثم طبقها على كتاب الله الكريم ، وقدم هذا العمل فى تفسيره « الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل » واستطاع بهذا العمل أن يحقق عدة أمور هامة :

أولهما : التطبيق العملى لنظرية النظم التى بسطها الإمام عبد القاهر على كتاب الله الكريم ، فأبان من خلال هذا التطبيق روعة النص القرآنى وعظمته وإعجازه .

ثانيها : أصالة هذه القواعد والأصول التى وضعها عبد القاهر ، وأن هذه الأصول جديرة بإظهار المزايا البلاغية لأسلوب القرآن الكريم ، وإثبات أن إعجازه من هذه الناحية .

ثالثها : أن الأدلة التى قدمها عبدالقاهر لإعجاز القرآن هى موضع اتفاق بين المعتزلة ـ شيعة الزمخشرى ـ والأشاعرة ـ شيعة الإمام عبدالقاهر .

والزمخشرى بهذه الأمور قدم جهداً بلاغياً أضفى عليه من حسه وذوقه ما يعد أصلا من أصول البلاغة العربية ، بل وغاية من غاياتها ، وهذا الجهد وإن كان مبعثرا فى تفسيره إلا أنه فى جملته يعد دليلا عملياً على روعة القرآن الكريم وإعجازه .

ومن أعلام هذه البيئة رشيد الدين الوطواط (ت ٥٧٣ هـ) صاحب كتاب « حدائق السحر فى دقائق الشعر » وقد عارض به كتاب « ترجمان البلاغة » للراوندى .

والوطواط لم يقدم جهداً خالصاً فى الإعجاز ، وإنما كان رجلا أديباً شاعراً ، شغل بمسائل البديع وفنونه ، ولم يجعل الإعجاز همه وشاغله ، لذا فإن النزعة البلاغية سيطرت على الكتاب فجاء مشتملا على كثير من مسائل البلاغة دون تمييز بين علومها الثلاثة التى عرفت فيما بعد .

وأهمية كتاب الوطواط فى ميدان الإعجاز القرآنى أنه كان ذا أثر واضح على المشتغلين فى هذا الميدان ، فقد كان هذا الكتاب أصلا هاماً اعتمد عليه المطرزى والرازى والإمام أبو يعقوب السكاكى وغيرهم من أعلام هذه البيئة فى بحوثهم حول القرآن وإعجازه .

ثم جاء الإمام فخر الدين الرازى ليدلى بدلوه فى ميدان الإعجاز البلاغى فقدم كتابه « نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز » ولم يخرج فيه عن الطريق الذى سار عليه من قبله ، بل لخص فيه جهود عبد القاهر فى كتابيه « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » مع استعانته بما نثره الزمخشرى فى كشافه ، وما كتبه الوطواط فى « حدائق السحر » ، وكان همه أن يقدم أدلة الإعجاز القرآنى من جهة نظمه وبلاغته فى صورة منظمة تهتم بالضبط والتحديد وتقسيم الأقسام ، ليمهد السبيل لفهم قواعد عبد القاهر فى إعجاز القرآن .

وكما كان لهذا الكتاب أثره وقيمته في ميدان الإعجاز القرآني فإن له قيمة لا تجحد في ميدان الدرس البلاغي وتطوره التاريخي ، إذ أنه يمثل المرحلة الأولى لحصر مسائل البلاغة ، وتحديد أبوابها ومسائلها .

وكما أصبحت مقاييس عبد القاهر وأصوله البلاغية نبراساً يهتدي به المهتدون من علماء الإعجاز في بيئة خوارزم أضحت مثلا يحتذى به كل مهتم بالأدب ونقده أيا كان هذا الاهتمام .

فهذا المطرزي من أعلام هذه البيئة ، وكان معاصراً للسكاكي يؤلف كتاباً يشرح فيه مقامات الحريري ، نعته ، الايضاح . وقدم له بمقدمة في البلاغة لتكون ميزانا للناقد يميز به بين الحسن والرديء . وقد اقتبس هذه المقدمة من كتابي عبد القاهر ـ الدلائل والأسرار ـ بحيث لم يخرج فيها عما كتبه عبد القاهر .

ونستطيع أن نقول إن قضية الاعجاز التي شغلت أذهان الدارسين والباحثين في هذه البيئة أسفرت عن نضج مسائل البلاغة وقواعدها ، سواء ظلت هذه القواعد لصيقة بحقل الإعجاز وميدانه أم تجردت لخدمة الأدب بصفة عامة .

ومن الخير قبل أن نقف على الجهد الذي قدمه السكاكي في ميدان الاعجاز القرآني أن نلقي ضوءاً على طبيعة البحث في هذا الميدان في بيئة خوارزم ، والتي أضحت لها سمات خاصة ، ومن أبرز هذه السمات :

١ — أصبح واضحاً في هذه البيئة أن الاعجاز القرآني يدور حول النظم حتى كأنه لا شيء سواه ، ومن ثم أصبح الحديث عن النظم القرآني كما رأينا عند الرازي ، أو الناحية التطبيقية الخالصة كما هو الحال في تفسير الزمخشري أو الناحية النظرية المدعمة بالتحليل والشرح وشيء من التطبيق كما صنع

عبد القاهر من قبل فى أصبح الحديث عن هذا أو ذاك هو حديث فى البلاغة بمعناها الواسع .

٢ — يخيل لمن يرصد طبيعة البحث فى ميدان الاعجـــاز القرآنى والدراسات البلاغية فى بيئة خوارزم أن الصلة تكاد تكون منقطعة بين هذه البيئة وغيرها من البيئات العربية والاسلامية . فقد أضحى لهذه البيئة منهج خاص فى دراسة البلاغة وتناول مسائل الاعجاز . بينما كان لأهل العراق والشام ومصر اتجاه آخر يختلف عن اتجاه أهل خوارزم .

٣ — كان البحث فى ميدان الاعجاز والبلاغة فى هذه البيئة لا يقوم على أساس من الذوق العربى ، أو تحكيم الروح الأدبى ، وإنما تميز البحث فى هذا الميدان بما تميز به المشارقة بصفة عامة ، وهو التأثر بالفلسفة والمنطق وعلم الكلام ، فى حين تأثر أهل العراق والشام ومصر والأندلسيون والمغاربة بالمذهب الأدبى ، لبقاء ذوقهم العربى السليم وملكاتهم الأدبية الصافية .

فمذهب أهل خوارزم فى بحث الاعجاز والبلاغة هو مذهب المدرسة الكلامية فى دراسة البلاغة وتناول مسائلها ، بل إن معظم رجال هذه المدرسة نشأوا فى بيئة خوارزم وتغذوا على ثقافتهـــا ؛ كالزمخشرى والرازى والمطرزى وغيرهم ؛ وكانوا من الأعاجم الذين غلب عليهم حبهم للمنطق والفلسفة والجدل بطبيعة ثقافتهم ونشأتهم ؛ ولذا فليس عجيبا أن تحتضن هذه البيئة مبادىء هذه المدرسة فى دراسة البلاغة وتناول الاعجاز وتطبعها بطابع خاص كان مزيجاً من الفلسفه وعلم الكلام .

وإذا كنا نجد هذه النزعة واضحة عند الزمخشرى والرازى والمطرزى وأشباهم ؛ فإن هذه النزعة كانت أقدم من هؤلاء جميعاً .

« فقد أثرت الفلسـفة فى البلاغة منذ عهد مبكر ؛ وصبغت كثيراً من

مسائلها بالنزعة العقلية البعيدة عن الروح الأدبية . وتجلت هذه النزعة بوضوح فى كتابى « أسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » لعبد القاهر الجرجانى . ولا عجب فى هذا ؛ فقد كان مؤلفهما متكلماً على مذهب الأشعرى ؛ ولكنه استطاع أن يخفف من غلواء هذه النزعة بما وهب من ذوق أدبى وقدرة على التحليل وتمييز الأساليب وإن كان الباحث فى بلاغته يجد النزعتين : الأدبية والعقلية تتصارعان فى كتابيه فنجد النزعة العقلية تغلب على كتاب « دلائل الاعجاز » ونلمس الروح الأدبية تسيطر على كتاب « أسرار البلاغة »[1] .

بل إن فكرة النظم التى أقام عليها عبد القاهر نظريته فى الاعجاز والبلاغة لم يكن هو مخترعاً لها — كما سبق أن أشرنا — وإن كان هو الذى بسط فيها القول وشرحها وحللها . ومن يتتبع هذه الفكرة عبر القرون والثقافات المتعاقبة يجد أن هذه الفكرة ظهرت واضحة فى الصراع الذى أثاره امتزاج الثقافات وتعصب حملة اليونانية لفلسفة اليونان ومنطقهم ودفاع حملة العربية عن تراثهم وثقافتهم ، ومنها الثقافة النحوية والبيانية التى هى أخص خصائصهم .

ولا تفوتنا الاشارة إلى أن مذهب المشارقة فى تناول مسائل البلاغة والاعجاز ظل هو المذهب المسيطر على البحوث البلاغية ودراسة مسائل البلاغة إلى عصرنا هذا حتى إننا نجد هذا الأثر عند من نحوا الناحية الأدبية فى دراسة البلاغة .

« فعلى الرغم من أن السبكى من أصحاب المذهب الأدبى فى دراسة

---

(١) البلاغة عند السكاكى ص ٤٠ ، ٤٢ .

البلاغة فقد أشاد بفضل المشارقة ونهج نهجهم . وهذا واضح فى قوله : « وأما أهل المشرق الذين لهم اليد الطولى فى العلوم ولا سيما العقلية والمنطق فاستوفوا هممهم الشامخة فى تحصيله واستولوا بجدهم على جملته وتفصيله ، ووردوا مناهل هذا العلم فصدروا عنها بملء سجلهم ، وكيف لا؟ وقد جلبوا عليه بخيلهم ورجلهم ، فلذلك عمروا من حصونه المشيدة مارقد عنه الحارس وبلغوا عنان السماء فى طلبه »[1] .

٤ — كان اهتمام هذه البيئة بالفلسفة والعلوم العقلية وطول ممارستهم لها سببا فى عنايتهم بعلمى المعانى والبيان أكثر من عنايتهم بالألفاظ والبديع ولذا نجد الامام عبد القاهر يرد جميع الفضائل والمزايا إلى المعـــانى ، أما الألفاظ فهى خدم للمعانى وتبع لها .

ولا نريد أن نتعرض لقضية اللفظ والمعنى ، ورأى العلماء فيها ، فلهذا مجال آخر . ولكن يمكن أن نقول — فى إجمال — إن عناية هؤلاء بالفلسفة جعلهم يهملون جانب اللفظ ويولون المعنى كل عناية واهتمام حتى إنهم عندما يتكلمون عن الألفاظ فلما لها من دور فى تأدية المعانى وإبرازها .

وقد تنبه ابن خلدون إلى عناية المشارقة بالبيان والمعـانى فيقول : « والعناية به لهذا العهد عند أهل المشرق فى الشرح والتعليم أكثر من غيره وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة . وسببه — والله أعلم — أنه كمالى فى العلوم اللسانية والصنائع الكمالية توجد فى العمران . والمشرق أوفر عمرانا من المغرب — كما ذكرناه أو نقول لعناية العجم — وهم معظم أهل المشرق — كتفسير الزمخشرى . وهو كله مبنى على هذا الفن ، وهو أصله وإنما اختص بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة . وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية ، وفرعوا له ألقاباً وعدوا له أبواباً ونوعوا أنواعا

(١) عروس الأفراح ١/٥ .

وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ . وأن علم البديع سهل المأخذ وصعبت عليهم مآخذ البلاغة والبيان لدقة أنظارهما وغموض معانيهما ، فتجافوا عنهما »[1] :

وجملة القول أن الدراسات البلاغية - في معظمها - ارتبطت إلى حد كبير بعامل ديني هو الدفاع عن القرآن الكريم ضد الملحدين والمشككين وإبراز عظمة هذا الكتاب وإعجازه . ولم يخل كتاب بلاغي في هذه البيئة من الدفاع عن القرآن وإظهار إعجازه أو الاشارة إلى هذا الوجه البلاغي في الاعجاز . وأن هذه الدراسات البلاغية وإن اختلطت بمسائل الفلسفة والعلوم العقلية فانها أصلت هذه الدراسات وخدمت قضية الاعجاز القرآني إلى حد بعيد .

* * *

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٢ .

الفصل الثانى

إعجاز القرآن عند السكاكى

وفيه مدخل وثلاثة مباحث :

الأول : مفتاح العلوم - وقفة مع عنوان الكتاب .

الثانى : مفتاح العلوم كتاب فى الاعجاز .

الثالث : منهج السكاكى فى عرض قضية الاعجاز .

مدخـــــل

سبقت الإشارة إلى أن السكاكى - على الرغم من تنوع ثقافته وتبحره فى كثير من العلوم والفنون - لم يؤثر عنه سوى كتابه «مفتاح العلوم»، وهو الكتاب الوحيد الباقى من تراث الرجل، ومن خلاله كان الحكم للرجل أو عليه.

والسكاكى رجل مشهور معروف، والدراسات التى قامت حوله كثيرة ومتنوعة، والشروح التى قامت حول مفتاحه لاتحصى عددا، إلا أن النظر إلى الرجل وكتابه يكاد يقتصر على كونه دارساً بلاغيا، تناول الدرس البلاغى بالتبويب والتقعيد، وخلط مسائل البلاغة بالفلسفة والمنطق، وتكلف فى وضع الحدود والضوابط، وأسرف فى حصر المسائل وتحديدها، ومع هذا فإن فضل الرجل على الدرس البلاغى لا يجحد، بل يذكره كثيرون، ويعدون له تمييزه لهذا العلم. وأنه صاحب فضل فى استقلاله عن العلوم الأخرى، كما أن له فضلا على تميز كل علم من علوم البلاغة الثلاثة - المعانى والبيان والبديع - وإن كان قد قصر البلاغة على علمى المعانى والبيان وجعل البديع تابعاً وذيلا لهما، كما أن فضله لا ينكر فى ضبط معاقل هذا العلم وضبط شوارده. مما حفظ لعلم البلاغة أصوله وقواعده على مر السنين والدهور.

فالحديث عن الرجل والدراسات التى قامت حول مفتاحه. والآراء التى تناولته لم تخرج عن دائرة البلاغة وقواعدها، والمنهج الذى اتبعه فى ضبط هذه القواعد، وأثره على الدرس البلاغى سواء بالثناء والقبول، أو بإلقاء اللائمة عليه، واتهامه بإفساد البلاغة وافقادها لمائها ورونقها.

فقد ذهب الشيخ على عبد الرازق إلى أن البلاغة قد تمت قبل السكاكى

بناء وتحديدا ، وانحصرت أصولها وفروعها وظهرت أسرارها وكنوزها واتضحت مباحث المعانى والبيان وعرفت أبواب كل منهما . . . . . ونظر السكاكى إلى هذا العلم نظرة فلسفية تحدد ما بينه وبين سائر علوم الأدب من النسبة والارتباط وتميزه عن غيره امتيازا تاما وتحصر أبوابه ومباحثه حصراً عقليا حتى لا يبقى محل للخوف عليها من دعى أو دخيل . . . . ولذا فإن السكاكى اخترع ترتيباً جديداً بين هذه المباحث ، فجمع منها ماكان متعلقا بمطابقة الكلام لمقتضى الحال وسماه علم المعانى ، وما كان متعلقا بإيراد المعنى الواحد فى طرق مختلفة ،وسماه علم البيان [1] ».

ويذهب الشيخ إلى أن الدافع للسكاكى إلى هذا الضبط والتحديد والتقسيم ، أنه وجد من المتقدمين من تركوا مباحث هذا العلم مفتحة الأبواب ، عامة الموضوع ، إذ كان كل بحث يتعلق بأسرار بلاغة الكلام وحسنه ، يجوز أن يضاف إلى هذا الفن ويزاد عليه ، وكان لكل رجل ظن الكفاءة بنفسه أن يلحق بهذا العلم ما يدله النظر على أنه داخل فى موضوعه [2] ».

ويقول الدكتور شوقى ضيف عن السكاكى وبلاغته : « تلخيص السكاكى لعلمى البلاغة : المعانى والبيان . وما ألحقه بهما من الفصاحة المعنوية واللفظية ، وما يتبعهما من المحسنات البديعية تلخيص أشاع فيه كثيرا من العسر والالتواء ، بسبب ما عمد إليه من وضع الحدود والأقسام المتشعبة ، فإذا المباحث البلاغية تشبه غابة ، بل دغلا ملتفا لا يمكن سلوكه إلا بمصابيح من المنطق ومباحث المتكلمين والفلاسفة ، وهى مصابيح

---

(١) أمالى على عبد الرازق ص ٢٧ ، ٦٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٦١ .

ماتنى ترسل إشاعات تخنق خلايا النضرة فى الدغل الكثيف ، وكثيراً ما تتراكم هذه الاشاعات تراكما يحجب عنا تلك الخلايا الحية التى كنا نتمتع برؤيتها عند عبد القاهر والزمخشرى ، وإن لم يحجبها أفسد أنسجتها إفساداً بما أدخل عليها من مواد غريبة ، وحقا استطاع السكاكى أن يسوى من نظرات عبدالقاهر والزمخشرى علمى المعانى والبيان ولكن بعد أن أخلاهما من تحليلاتهما الممتعة البارعة للنصوص الأدبية وبعد أن سوى قواعدهما تسوية منطقية عويصة ، حتى ليصبح المنطق ، وأيضا الفلسفة جزءا منهما لا يتجزأ [١] » .

وبينما نجد أقلاما تلقى للائمة على السكاكى ، وتصوره على أنه أفسد البلاغة ، وجفف ماءها ، نجد آراء وأقلاماً تنافح عنه وتدفع عنه هذا الظلم .

يقول العلامة ابن خلدون : « تكلم الأقدمون أولا فى علم البيان ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى ، وكتب فيها جعفر بن يحى والجاحظ وقدامه وأمثالهم إملاءات غير وافية ، ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئا فشيئا إلى أن محص السكاكى زبدته ، وهذب مسائله ! ورتب أبوابه [١] » .

وتقول الدكتورة سهير القلماوى فى دفاع عن السكاكى وصنيعه : « إن البلاغة والنقد الأدبى لابد أن يمر فى هذه الأطوار دائما ، بداية فطرية قوية مبعثرة ، ثم دراسة حية مثمرة مؤثرة ، وأخيراً خلاصة وتقنين وتقعيد جاف يؤدى بحيوية النظرية أو الفكرة أو الناحية المدروسة .

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ صـ ٣١٣ .

(٢) مقدمة ابن خلدون صـ ٥٥١ .

إن هذه هى سنة الحياة فى الأبحاث الأدبية، والفنية، كل ما فى الأمر أن معين الطور الأول طور العفونة والحيوية الفطرية الغامضة المبعثرة هو الذى نضب لأسباب معروفة إبان عصر السكاكى وبعده، وليس واحداً - من يكون - هو المسؤول عن ذلك، وإنما المسؤول أمة بأسرها وظروف فى جملتها. إن السكاكى قدم فى عصره - وبكل إخلاص العالم الدائب المتأثر بروح العصر، وما كان له إلا أن يتأثر - أقصى ما يمكن أن يقدمه عالم دارس فى سبيل علم من العلوم.

لقد كان عصره عصر جمع وتبويب، وعصر تعقيد وتقنين لجمع فنون البلاغة وكانت أشتاتا مفرقة فى كتب كثيرة، منها ما تعرض لجملة من مسائلها، ومنها ما تعرض لواحدة: ولكن دون تبويب وأكثرها تعرض من وجهة نظر عقائدية تفسيرية لنص القرآن الكريم من حيث مجازه خاصة، أو إعجازه بوجه عام. وجاء السكاكى متأثراً بأقرب هؤلاء الدارسين منه عهداً، بعبد القاهر الجرجانى، فرتب وبوب حتى نسب العلم إليه [1]».

وهكذا نجد الحديث عن السكاكى وكتابه وبلاغته بين مادح وقادح بل لعلنا لا نعرف السحر العجيب الذى سحر العلماء بعده وفتنهم بكتابه فأنساهم أنفسهم وساروا فى ركابه شارحين أو ملخصين أو مقررين، إلا كل هذه الدراسات وتلك الآراء لم تخرج عن القسم الثالث من الكتاب، والذى كان موضوعه البلاغة.

وظلم كبير للسكاكى أن ينظر إلى مفتاحه على أنه كتاب فى البلاغة، أو أن هدفه من كتابه وضع قواعد هذا العلم، كما أرى ظلماً كذلك أن

---

(١) من تقديم البلاغة عند السكاكى ص ١٢، ١٣.

يقتطع من المفتاح جزء فيتناول بالدراسة والشرح والتحليل ثم يحكم على الرجل ومنهجه وعمله من خلال هذا الجزء . فالنظر إلى الجزء لا يمكن أن يستقيم ويصدق إلا بالنظر إلى الكل ، فالجزء دائما يرتبط بهدف أكبر من أن يحققه ذلك الجزء وحده ، وإنما تتضافر الأجزاء المكونة لتحقيق هدف تسعى إليه الأجزاء مجتمعة ، ويكون غاية للكل .

وما أن قرأت المفتاح قراءة متأنية من أوله إلى آخره ، ثم وقفت مع اسم الكتاب الذى حدده له صاحبه حتى أحسست أننى أمام رجل لا عهد لى به من قبل ، بل ربما لم أقرأ عنه ولم أعرفه ، وأدركت أننى أمام رجل لم يكن همه البلاغة أو النحو أو الصرف أو وضع قواعد لأى منها ، وإنما وجدتنى أمام رجل واضح الهدف محدد الغاية ، اختار للوصول إلى هدفه أفضل الوسائل وأخصرها فى نفس الوقت ، وأنه فى كل ذلك يحدوه ذكاء شديد وإلمام تام بجانب موضوعه .

لقد كان هم السكاكى وموضوعه هو الإعجاز القرآنى ، وهدفه وغايته هو الوصول إلى أن القرآن الكريم معجز بنظمه وبلاغته الساحرة ولم تكن مسائل الصرف والاشتقاق والنحو والبلاغة والبديع والاستدلال والعروض والقوافى إلا وسائل توصله إلى غرضه وغايته .

وإذا كانت الغاية تبرر الوسيلة - كما يقولون - فإننا ندرك - بوضوح - مدى الظلم الواقع على الرجل ، حيث نترك الغاية والهدف ، ونقف مع جزء من وسائله ، وهى البلاغة التى عرضها فى مفتاحه ونحكم بها على الرجل ، دون ربط لها بالغاية الكبرى التى يرمى إليها عمله كله .

وليس من همى فى هذه الدراسة الوقوف على بلاغة الرجل أو الحكم

عليه ، فهذا معروف للقاصي والداني ، وإنما الغرض هو الكشف عن غاية الرجل وهدفه من كتابه وهو الإعجاز في نظم القرآن الكريم .

ولذا فإن الاعتماد على الدراسات التي قامت حول السكاكي وكتابه سوف لا نفيد كثيرا في هذه الدراسة ، من ثم فإني أستعين على هذه الدراسة - بعد عون الله تعالى وتوفيقه - بالمفتاح نفسه ، فهو الذي يكشف لنا خبيئة الرجل وغايته ، وكيف وصل إلى هذه الغاية .

وقضية الإعجاز القرآني - كما أسلفنا - قضية قديمة ، بدأت أصولها منذ نزول القرآن الكريم على نبينا ﷺ ، وتشعبت مباحثها وأقيمت أركانها وقواعدها مع حركة الفتح الإسلامي واختلاط العرب بغيرهم من الأمم والأجناس المختلفة ، فأصبحت قضية مطروحة على موائد البحث والمناظرة وشغل بها الدارسون والباحثون .

وما أن وصل الأمر إلى أبي يعقوب السكاكي ، حتى كانت هذه القضية قد استوت ونضجت وأصبحت ذات حدود ومعالم ، ونظر السكاكي إلى مذاهب العلماء قبله في هذه القضية فوجد أن الآراء فيها لا تخرج عن أربعة مذاهب :

الأول : أن القرآن الكريم معجز بأن صرف الله المتحدين عن المعارضة والإتيان بمثله ، مع أنه كان بمقدورهم أن يأتوا بمثله وينسجوا على منواله .

الثاني : أن وجه الإعجاز القرآني أنه جاء على أسلوب مغاير لأساليب الكلام التي ألفها العرب ، سواء في أشعارهم أو منثور كلامهم ، فلا هو بالشعر ولا بالخطب ، ولا بالحكم والأمثال ، ولا بالسجع مما عرفوه وأقاموا عليه صناعة الكلام .

الثالث : أن وجه الإعجاز هو أنه سلم من التناقض، فلو فتشت فى القرآن الكريم من أوله إلى آخره - على الرغم من طوله ونزوله على فترات متباعدة - لا تجد آية تناقض أختها أو حكما يدفع حكما آخر .

الرابع : أن الوجه فى إعجازه أنه مشتمل على الغيوب .

وهذه المذاهب الأربعة يضاف إليها وجه خامس يرى السكاكى أنه الوجه الذى ينبغى أن يفسر به إعجاز القرآن الكريم ، ويؤمن به إيمانا قويا ، وهو أن إعجاز القرآن بنظمه وبلاغته ، وما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة ، فكل كلمة فيه - فضلا عن جمله - تحتوى على لطائف .

ولهذا الوجه « تلى على أهل الوبر منهم والمدر : «وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله »[1] فما أحاروا ببنت شفة ولا صدروا هنالك من موصوف ولا صفة على أنهم كانوا الحراص على التسابق فى رهان التفاخر ، والمتهالكين على ركوب الشطط فى امتهان المفاخر »[2] .

وقد جعل السكاكى كتابه « مفتاح العلوم » خصيصا لمعالجة هذه القضية، والوصول إلى الأدلة الواضحة والبراهين الدامغة على إعجاز القرآن وأنه إنما كان من هذا الوجه « ولا استبعاد فى إنكاره ممن ليس معه ما يطلع عليه فلكم سحبنا الذيل فى إنكاره ، ثم ضممنا الذيل ما إن ننكره . فله الشكر على جزيل ما أولى ، وله الحمد فى الآخرة والأولى »[3] .

ومن حق السكاكى على هذه الدراسة أن تتأنى فى فهم كتابه وعرضه لمسائله ، وأن تقف مع كل كلمة تتصل بقضيته ، تحقيقا للغاية ووصولا إلى الهدف المنشود ، ولنبدأ بتسمية الكتاب ومدخلها فى هذه القضية .

---

(١) البقرة ى : ٢٣ .

(٢) مفتاح العلوم ص ١٢٤ . (٣) المصدر السابق ص ٢١٧ .

المبحث الأول

مفتاح العلوم ـ وقفة مع عنوان الكتاب

عنوان أي كتاب هو أول ما يصادف القارىء، وهو الذي يعطى الانطباع الأول عن مضمونه، ويدل على الغاية المقصودة منه في عبارات موجزة وكلمات موحية تكشف مضمونها عن محتواه وعن الدراسة المقصودة به. والدقة في اختيار العنوان بحيث يؤدي كل لفظ فيه، بل كل حرف مدلولا لا يؤديه غيره أمر يعد أساساً للبحث العلمى الصحيح.

وقد ترجم سلفنا الصالح هذا المعنى ترجمة دقيقة، وجعلوا منه حقائق مازلنا نستقى منها إلى اليوم، فلم يضعوا عناوين مؤلفاتهم جزافا، أو من أجل بريق يبهر أعين الناظرين، وإنما جاءت أسماء كتبهم كاشفة عن مضمونها، معبرة عن أغراضهم ومراميهم من هذه المؤلفات.

ولكي نعرف دقة السكاكي في اختياره عنوان كتابه، ومدى تحقيقه لغرضه ومقصوده، واحتواء هذا العنوان لكل ما يريده مما ضمنه كتابه علينا أن نقف مع هذه التسمية « مفتاح العلوم » لنكشف ما عناه بهذا الاسم، ولنجعل من هذه الوقفة الضوء الأول الذي يهدينا إلى غرضه، ويوقفنا على موضوع كتابه.

وهذا الاسم مكون من كلمتين « مفتاح » و « العلوم »، ولنا أن نتعرف على معنى كل منهما، ثم المراد من هذا المركب الإضافي « مفتاح العلوم ».

أما كلمة « مفتاح » فمعناها في اللغة: ما يتوصل به إلى استخراج المغلقات التي يتعذر الوصول إليها، والجمع مفاتيح ومفاتح، فمن كان في يده مفاتيح

شيء مخزون سهل عليه الحصول عليه والوصول إليه ، وفي الحديث : أوتيت مفاتيح الكلم ، وفي رواية مفاتح فقد أخبر ﷺ أنه أوتي مفاتيح الكلام وهو ما يسر الله له من البلاغة والفصاحة . والوصول إلى غوامض المعاني وبدائع الحكم ومحاسن العبادات والألفاظ التي أغلقت على غيره وتعذرت عليه[1].

فالمفتاح — إذن — موصل إلى الشيء ، وليس هو نفس الشيء ، ومن في يده مفتاح شيء مخزون ، ليس معناه أنه ملك الشيء المخزون وانتفع به ، لأنه لا يملكه ولا ينتفع به إلا إذا قدر على المحافظة على المفتاح وصانه من الضياع أو الكسر أو غير ذلك مما يفسده ، وإلا إذا أحسن استخدامه واستطاع أن يضعه في موضعه الصحيح وصولا إلى الدخول لذلك المخزون وامتلاكه والانتفاع به .

وهذا يعني أن السكاكي عندما عرض لمسائل الصرف أو الاشتقاق أو النحو أو المعاني أو البيان أو غيرها لم يكن يقدم مسائل تلك العلوم ولم يكن يعطيك قواعدها بحيث تستطيع أن نقول إن هذا هو علم الصرف أو علم النحو أو ما إلى ذلك . وإنما عني أن يضع أمامك بعض المشاعل لتضيء لك الطريق إلى معرفة هذه العلوم ، وتكون هذه المشاعل بمثابة مفاتيح توصلك إلى مخزون تلك العلوم ، وشتان بين مفتاح يوصلك إلى العلم ويدلك على طريقه وبين العلم نفسه ومسائله وقواعده .

وإذا حاولنا فهم هذا المعنى من خلال عرضه لأقسام كتابه فلابد أن نضع نصب أعيننا تصريحه بأن « حد الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها ، وكالملاحة ، ومدرك

---

(١) انظر لسان العرب : فتح .

الإعجاز عندى هو الذوق ليس إلا »[1].

فالقسم الأول الذى خصصه لعلم الصرف جعله مشتملا على ثلاثة فصول؛ الأول ، فى بيان حقيقة علم الصرف والتنبيه على ما يحتاج إليه فى تحقيقها . الثانى ، فى كيفية الوصول إليه . الثالث ، فى بيان كونه كافيا لما علق به من الغرض[2].

ولنا أن نسأل : فى أى شيء يحتاج إلى ما يحتاج إليه من مسائل علم الصرف وقواعده ؟ وما معنى كون ما عرضه من مسائله وأحكامه كافيا لما علق به من الغرض ؟ بل ما هو الغرض الذى عناه ؟

أما الغرض فهو الإعجاز ، والشيء الذى يحتاج إليه هو الوقوف على قواعد هذا العلم والإلمام بأطرافه ، وكأنه يقول : ما قدمته فى هذا العلم ماهو إلا مفتاح يوصلك إلى معرفة هذا العلم والوقوف على أحكامه ، ومن ثم يعينك على تفهم الإعجاز وإدراك حقيقته .

وكذلك الحال فى علم النحو — وهو القسم الثانى من الكتاب — ، فبعد أن جعل هذا القسم فى فصلين ، خص الفصل الأول فى بيان ماهية النحو فعرفه بأنه : « أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقا بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب وقوانين مبنية عليها ليحترز بها عن الخطأ فى التركيب من حيث تلك الكيفية ، وأعنى بكيفية التركيب تقديم بعض الكلم على بعض ورعاية ما يكون من الهيئات إذ ذاك وبالكلم نوعيها المفردة وماهى فى حكمها » .[3]

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٤ .

(٣) السابق ٣٣ .

ثم نجده يصرح فى مستهل الفصل الثانى بأن هذا الفصل فى ضبط ما يفتقر إليه فى ذلك[1]. أى فى الوصول إلى ماهية هذا العلم والوقوف على كنهه . فكأن ماعرض له من مسائل وأحكام ماهى إلا مفتاح يوصلك إلى هذا العلم ويدلك عليه ، وليست هى علم النحو نفسه أو كل احكامه وقواعده.

ولما وصل إلى القسم الثالث الذى خصصه لدراسة البلاغة بسط الكلام فى علميها بعض البسط ، ووقف عند قواعدهما بما يحقق غرضه وغايته ، ذلك لأن الواقف على تمام مراد الله تعالى من كلامه مفتقر إلى هذين العلمين كل الافتقار ، فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير وهو فيهما راجل[2]

وعلى الرغم من ذلك فإنه يصرح فى أكثر من موضع أنه يمهد لك فيهما سبيلا ، ويقيم قواعد عليك أن تبنى عليها ، وينهج مناهج عليك أن تسلكها، ثم إذا سلكت هذه المسالك ، وسرت فى هذه السبل فتربى عندك الذوق حتى صار طبعاً استطعت أن تطلع على إعجاز كتاب الله تعالى .

فنجده يقول بصدد الحديث عن علم المعانى : « اعلم أنى مهدت لك فى هذا العلم قواعد متى بنيت عليها أعجب كل شاهد بناؤها واعترف لك بكمال الحذق فى صناعة البلاغة أبناؤها ، ونهجت لك مناهج متى سلكتها أخذت بك عن الجهل المتعسف إلى سواء السبيل وصرفتك عن الآجن المطروق الى النمير الذى هو شفاء العليل ، ونصبت لك أعلاماً متى انتحيتها أعثرتك على ضوال منشودة وحشدت منها ما ليست عند أحد بمحشودة ، ومثلت لك أمثلة متى حذوت عليها أمنت العثار فى مظان الزلل وأبت أن

---

(١) السابق ص ٣٤ .

(٢) السابق ص ٧٠ .

تتصرف فيما تثنى إليه عنانك يد الخطل . ثم إذا كنت من ملك الذوق إلى الطبع وتصفحت كلام رب العزة أطلعتك على مايوردك هناك موارد العزة وكشفت لنور بصيرتك عن وجه إعجازه القناع وفصلت لك ما أجمله إيثار أولئك المصاقع على معارضته القراع فإن ملاك الأمر فى عام المعانى هو الذوق السليم والطبع المستقيم ، فمن لم يرزقهما فعليه بعلوم أخر ، وإلا لم يحظ بطائل مما تقدم وما تأخر :

إذا لم تكن للمرء عين صحيحة فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر[1]

فالقاعدة التى بينها وعليك أن تبنى عليها ، والمنهج الذى ينهجه وعليك أن تسلكه ليس إلا مفتاحاً يوصلك إلى البناء أو الطريق ، وشتان بين القاعدة والبناء ، أو بين الإشارة إلى الطريق وسلك ذلك الطريق .

ومما يدل على أنه لم يقصد وضع قواعد العلوم التى عرضها ، وإنما أراد أن تكون مفتاحاً يهتدى به إلى العلوم نفسها قوله بعد أن عرض طائفة من مسائل علم البيان : « ولنقتصر فمن لم يستضىء بمصباح لم يستضىء باصباح »[2].

أما العلوم التى أرادها السكاكى فهى علوم الأدب ، فقد رأى أن هذه العلوم قد نضجت ثمراتها تمام النضوج ، وأن بقاءها هكذا موزعة على أغصان أشجارها قد يعرضها للتلف أو الضياع فلا يفيد منها طلاب العلم الإفادة المرجوة ، وهذا ماجعل أذكياء عصره الفاضلين الكاملى الفضل يلحون عليه فى تصنيف مختصر يحظيهم بأوفر حظ منه .

ولم يكن قصر السكاكى التعرض لهذه العلوم أو وضع مفاتيح لها فى

(١) السابق ص ١٣٠ ، ١٣١ .

(٢) السابق ص ١٣٣ .

أنفسها أو لذواتها ، ولكن لأن الوقوف على هذه العلوم هو الطريق إلى إدراك الإعجاز القرآنى، والتلقى لمراد الله تعالى، إذ أنها تبعث على الاحتراز عن الخطأ فى العربية ، وسلوك جادة الصواب فيها[1]:

ولأن غايته الوصول إلى الإعجاز وإدراكه فقد تعرض لعلوم ليست من صميم علوم الأدب وإنما تأتى تبعاً وتتمما لها كعلمى الحد والاستدلال اللذين يستعان بهما فى فهم الإعجاز ودحض حجج المعاندين ويعدان من متممات علم المعانى .

فالعلوم التى قصد إليها السكاكى هى علوم الأدب وما يتبعها ، مما تعد معرفتها مدخلا . أساساً فى فهم النظم القرآنى وإدراك أسراره ولطائفه ، والوقوف على عظمته وإعجازه .

كما أنه قصد إلى نوع من هذه العلوم ، وهى تلك التى تتشعب مسائلها . وتتنوع أحكامها فتحتاج إلى الضبط والتقعيد ،كعلم الصرف والنحو وغيرهما ، أما العلم الذى لا تضبطه قاعدة — وهو علم اللغة — فهو خارج عن نطاق العلوم التى ضمنها كتابه .

وإذا كان نوع الأدب يتفاوت كثرة شعب وقلة وصعوبة فنون وسهولة، وتباعد طرفين وتدانيا بحسب حظ مولية من سائر العلوم كمالا ونقصانا ، وإذا كان المتفنون بشأنه على مراتب مختلفة فان السكاكى قد ضمن كتابه من هذه الأنواع مالا بد منه تحقيقا لغايته ، ووفاء بقصده ، ووصولا إلى الهدف المنشود ، وهو التعرف على النظم القرآنى المعجز .

وتراه يفصل هذه العلوم فى مقدمة كتابه بقوله : « وقد ضمنت كتابى

---

(١) السابق ص ٢ .

هذا من أنواع الأدب دون علم اللغة ما رأيته لابد منه ، وهى عدة أنواع متآخذة ، فأودعته علم الصرف بتمامه ، وأنه لا يتم إلا بعلم الاشتقاق المتنوع إلى أنواعه الثلاثة وقد كشفت عنها القناع ، وأوردت علم النحو بتمامه ، وتمامه بعلمى المعانى والبيان ، ولقد قضيت بتوفيق الله منهما الوطر ، ولما كان تمام علم المعانى بعلمى الحد والاستدلال لم أر بدا من التسمح بهما ، وحين كان التدريب فى علمى المعانى والبيان موقوفاً على ممارسة باب النظم وباب النثر ، ورأيت صاحب النظم يفتقر إلى علمى العروض والقوافى ثنيت عنان القلم إلى إيرادهما ، وما ضمنت جميع ذلك كتابى هذا إلا بعد أن ميزت البعض عن البعض التمييز المناسب ، ولخصت الكلام على حسب مقتضى المقام هنالك ، ومهدت لكل من ذلك أصولا لائقة ، وأوردت حججا مناسبة .

وقررت ما صادفت من آراء السلف قدس الله أرواحهم بقـــدر ما احتملت من التقرير » مع الإرشاد إلى ضروب مباحث قلت عناية السلف بها ، وإيراد لطائف مفتنة مافتق بها أحد رتق أذن »[1].

وبعد أن ذكر جملة العلوم التى سيضمنها كتابه كشف عن أقسام الكتاب الرئيسة التى وزع عليها العلوم السابقة بالأصالة أو التبعية فقال : « وجعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام : القسم الأول فى علم الصرف ، والقسم الثانى فى علم النحو ، والقسم الثالث فى علمى المعانى والبيان »[2].

فهذه التسمية ـ مفتاح العلوم ـ تعنى أن السكاكى لم يضع قواعد

---

(١) السابق ص ٣٠٢ .

(٢) ص ٣ .

علوم الأدب ، ولم يضبط مسائل هذه العلوم ، وإنما قصد أن يعطيك مفتاح كل علم منها ويتركك تسلك سبيله بنفسك ، وتدرب ذوقك عليه وصولا إلى غايتك ومقصودك .

وواضح أن السكاكي كان يدرك هذا عن فهم ووعى كاملين ، فلم يضع هذا العنوان لكتابه إلا وهو يحيط بموضوعه . ويلم بأطرافه ، وبعد أن كان الهدف والطريق إليه كلاهما واضحين فى عقله تمام الوضوح.

● ● ●

المبحث الثانى

مفتاح العلوم كتاب فى الإعجاز

لم يكن غرض السكاكى أن يضع قواعد العلوم التى ضمنها كتابه ، فالسكاكى رجل يعرف قدر نفسه ، وقد استوعب التراث وهضمه وتمثله ، وهو يعرف أنه لن يضيف إلى هذا التراث إضافة ذات بال . كما أن قضية الإعجاز القرآنى أضحت قضية واضحة فى الأذهان ، مقررة فى العقول ، وقد استنفذ فيها العلماء جهدهم ، وأفرغوا كل طاقاتهم فى سبيل التدليل عليها والتماس البراهين لها . كما أن الوجه البلاغى لإعجاز القرآن الكريم شغل الدارسين والباحثين طويلا مثل السكاكى ، بحيث أصبحت أدلته دامغة ، والطريق الموصل إليه واضح المعالم ، محدد الجنبات ، فقد ألم الإمام عبدالقاهر بجهود السابقين فى بيان هذا الوجه ، ولم شتات ما بعثروه من دلائل الإعجاز فى نظم القرآن وبلاغته وأسلوبه ، وقدمه فى ثوب قشيب ، وعرض أخاذ ، وبراهين ساطعة فى كتابه « دلائل الإعجاز » .

كل هذا لم يكن السكاكى غافلا عنه ، وربما شغله التراث بعمقه وامتداده وسعته وانتشاره فى الوقت الذى سيطرت عليه فكرة الإعجاز بالنظم ودلائلها وبراهينها ، فأراد أن يقدم هذه القضية بأدلتها المستمدة من التراث فى صورة يعرفها العقل ، كما يقربها الوجدان ، وترسخ فى الأذهان كما تحسها الأذواق والطباع .

ولن يكون له ذلك إلا بأن يلتقط من علوم الأدب ما يوصل إلى هذه الغاية ويجعل منها أدلة على ما استقر عليه رأيه فى الإعجاز ، ورآه الوجه الصحيح الذى يكشف عن أسرار القرآن الكريم ولطائفه ، وهو نظمه الساحر وبلاغته المعجزة .

إذن القضية التى نصبها السكاكى ليقدمها فى مفتاحه ، هى: إعجاز القرآن من جهة نظمه وبلاغته ، وأصبحت هذه القضية هى موضوع كتابه وشغله الشاغل من أول كلمة فى الكتاب إلى آخر كلمة فيه .

وأول سطور الكتاب تكشف عن موضوعه وهو الإعجاز ، فتراه بعد حمد الله تعالى ، يصلى على نبيه ﷺ فيقول : « ثم الصلاة والسلام على حبيبه محمد البشير النذير بالكتاب العربى المنير ، الشاهد لصدق دعواه بكمال بلاغته ، المعجز لدهماء المصاقع عن إيراد معارضته إعجازاً أخرس شقشقة كل منطيق ، واظلم طرق المعارضة فما وضح إليها وجه طريق حتى أعرضوا عن المعارضة بالحروف إلى المقارعة بالسيوف ، وعن المقاولة باللسان إلى المقاتلة بالسنان ، بغيا منهم وحسداً وعناداً ولدداً »[1] .

فانظر إلى براعة الاستهلال ، والموضوع الذى أراد أن يكشف عنه فى السطور الأولى من كتابه ، فلم يكتف فى تلك الأسطر ببيان أن الإعجاز همه وغايته حتى يكشف عن الوجه الذى يشغل باله وفكره ، فهو الوجه الذى أخرس شقشقة كل منطيق ، وبلاغة كل بليغ وهو أمر من جنس الفصاحة والبلاغة .

وعندما يحدد الدافع إلى الخوض فى علوم الأدب ، وهو الاحتراز عن الخطأ فى العربية وسلوك جادة الصواب فيها يشير إلى أن الدافع يقوى ويعظم إذا انضم إليه الشغف بالتلقى لمراد الله تعالى من كلامه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[2] .

وأنواع الأدب التى عرض لها جاءت متآخذة لتحقيق هذه الغاية ، فتراه

---

(١) مفتاح العلوم ص ٢ .

(٢) السابق ص ٣ .

ينبه إلى هذه الغاية عند تعرضه لعلم الصرف وما يتبعه من الاشتقاق ، وكذا عند تعرضه لعلم النحو ومسائله .

وفى القسم الثالث من كتابه ، وبعد تعريفه لكل من علمى المعانى والبيان يؤكد ما سبق أن قرره علماء الإعجاز والبلاغة على السواء من حاجة المفسر إلى هذين العلمين، فيقول : «وفيما ذكرنا ماينبه على أن الواقف على تمام مراد الحكيم — تعالى وتقدس — من كلامه مفتقر إلى هذين العلمين كل الافتقار، فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير وهو فيهما راجل »[1] .

وفرق كبير بين أن يكون القصد إلى الإعجاز القرآنى فيستعان على تحقيق هذا القصد بشتى الوسائل ، ومنها علم البلاغة على أهميته وخطره ، وبين أن يكون القصد إلى علم البلاغة للحاجة إليه فى معرفة الإعجاز القرآنى وتفسير كلام الله .

وهذا القصد الأخير نجده عند كثيرين ممن كتبوا فى البلاغة العربية قبل أبى يعقوب ، ومنهم أبو هلال العسكرى ، فقد صنف كتابه « الصناعتين » وجعل موضوعه البلاغة مبيناً أهميته وخطره والحاجة إليه فى التوصل إلى معرفة كتاب الله وبيان إعجازه .

يقول فى مقدمة كتابه : « إن أحق العلوم بالتعلم ، وأولاها بالتحفظ — بعد المعرفة بالله جل ثناؤه — علم البلاغة ، ومعرفة الفصاحة ، الذى به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى ، الناطق بالحق ، الهادى إلى سبيل الرشد ، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة التى رفعت أعلام الحق . وأقامت منار الدين ، وأزالت شبه الكفر ببراهينها ، وهتكت حجب الشك بيقينها.

---

(١) السابق ص ٧٠ .

وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة ، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب ، وما شحنه به من الايجاز البديع ، والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة وجلله من رونق الطلاوة ، مع سهولة كلمه وجزالتها ، وعذوبتها وسلاستها إلى غير ذلك من محاسنه التى عجز الخلق عنها ، وتحيرت عقولهم فيها . وإنما يعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه وقصورهم عن بلوغ غايته فى حسنه وبراعته ، وسلاسته ونصاعته وكمال معانيه وصفاء ألفاظه[1] » .

أما أبو يعقوب السكاكى فلم يكن همه البلاغة أو ضبط مسائل علمى المعانى والبيان ، وإنما كان همه وموضوعه الاعجاز القرآنى ، إلا أنه عندما وصل إلى أهم وسائله ، وهما المعانى والبيان بين خطرهما فى التعرف على تمام مراد الحكيم - تعالى وتقدس - .

وقد كان السكاكى حريصا على أن يذكر قارئه بين الحين والآخر بموضوع كتابه وغايته ، وأن يطمئن إلى أن قارىء الكتاب يدرك هذه الغاية . فنراه يصدر كثيراً من أبواب الكتاب ومسائله أو يختمه بحديث عن الاعجاز القرآنى ، كاشفاً أن هذا هو الموضوع الذى عرض من أجله هذه الأبواب أو تلك المسائل .

ففى خاتمة حديثه عن أحوال المسند إليه يذكر أن إعجاز القرآن وعظمة أساليبه إنما كانت من هذه النواحى ، فيقول : « كلام رب العزة وهو قرآنه الكريم وفرقانه العظيم لم يكتس تلك الطلاوة ، ولا استودع تلك الحلاوة ، وما أغدقت أسافله ولا أثمرت أعاليه وما كان بحيث

---

(١) الصناعتين ص ٧ .

يعلو ولا يعلى إلا لانصبابه فى تلك القواليب ولوروده على تلك الأساليب[١] .

ويستهل الفن الثالث الذى خصصه لأحوال المسند ببيان أن العرض هو الاعجاز القرآنى ، وأن الاعجاز إنما كان من هذا الوجه الذى ذكره والذى يدور حول سحر بيانه وأسرار بلاغته ، فهو الوجه « الذى يتلاطم دون أبناء جنسه المستودع فى استكشافه عن أسرار البلاغة كمال أنسه النقاب المحدث ، فلايحتجب عنه شىء من بدائع النكت فى مكامنها المستخرج للطائف السحر البيانى عن معادنها المستطلع طلع الاعجاز التنزيلى باستغراق طوقه المالك لزمام الحكم كفاء المتحدين بعجيب فهمه وغريب ذوقه ، فهو الطلبة وما عداه ذرائع إليه ، وهو المراد وما سواه أسباب للتسلق عليه[٢] .

وواضح أن السكاكى يصرح بأن ما سوى الاعجاز القرآنى فيما تعرض له ما هو إلا ذرائع وأسباب ووسائل للتوصل إلى طلبته ومراده من كتابه وهو إعجاز القرآن فى نظمه .

وفى تقديم المفعول للاهتمام بشأنه يذكر فروقاً ولطائف تندرج تحت هذا النوع من التقديم ، ثم يشير إلى أن هذه الفروق تتفاوت ويتباين أمرها بين ضليع لا يشق غباره ، وبين ظالع لا يؤمن عثاره ، وأن السبق فى هذا المضمار ليس بالكد وحده ، وإنما الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، مشيراً بذلك إلى أهمية التدرب والبصر لكسب الذوق السليم المدرك للجمال وحقائق الاعجاز .

ثم يقول : « ولله در أمر التنزيل وإحاطته على لطائف الاعتبارات

---

(١) مفتاح العلوم ص ٨٩ .
(٢) المصدر السابق — الموضع السابق .

فى إيراد المعنى على أنحاء مختلفة بحسب مقتضيات الأحوال ، ولا ترى شيئاً منها يراعى فى كلام البلغاء ومن وجه لطيف إلا عثرت عليه مراعى فيه من ألطف وجوه ، وأنا ألقى إليك من القرآن عدة أمثلة مما نحن فيه لنستضىء بها فيما عسى يظلم عليك من نظائرها إذا أحببت أن تتخذها مسارح نظرك ومطارح فكرك »[1] .

وبعد أن يذكر من الأمثلة القرآنية ما يوضح لطف هذه الأساليب وسر عظمتها وروعتها ، يذكر أن غرضه مجرد التنبيه . إذ إن النظائر كثيرة فى القرآن الكريم ، فيقول: « ولنقتصر من الأمثلة على ما ذكر ، فما كان الغرض إلا مجرد التنبيه . دون التتبع لنظائرها فى القرآن وتفصيل القول فيها[2] » .

ومن لطيف ما ختم به بعض المسائل مما له صلة بالاعجاز ، ونلمس فيه الاشارة الواضحة إلى هدفه وغرضه ما نراه فى باب الفصل والوصل ، وهو عنده الفن الرابع من فنون علم المعانى . فقد ختم هذا الفن بدعاء ينبىء عن هذا الغرض وأن ما يذكر من المسائل والأحكام إنما هو لكشف لطائف القرآن الكريم ، والغوص وراء درره ، فيقول : « اللهم زدنا اطلاعاً على لطائف قرآنك الكريم ، وغوصاً على لآلى فرقانك العظيم ووفقنا لابتغاء مرضاتك فى طلوع المشيب المر ، واختم بالخير فى مغيبه الأمر فإنه لايكون إلا ما تشاء بيدك الأمر كله »[3] .

والواضح فى هذه الاشارات ما نجده فى خاتمة علمى المعانى والبيان .

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٣ .
(٢) المصدر السابق ص ١٠٤ .
(٣) المصدر السابق ص ١٢٥ .

فبعد الفراغ من مسائل العلمين أخذ فى تعريف البلاغة - الشاملة لها - وكأنه يفذ لك ويضم المسائل التى ذكرها فى العلمين فى تعريف البلاغة .

وإذا كان للبلاغة طرفان ، فإن الطرف الأعلى - وهو حد الإعجاز - عجيب لا يمكن وصفه ، وطول الوقوف مع مسائل المعانى والبيان يكسب الذوق المدرك للإعجاز ، والتدريب على مسائل العلمين ربما يميط اللثام عن وجوه البلاغة ، أما نفس الإعجاز فلا يمكن دركه إلا باكتساب الذوق بعد طول ملابسة وتدرب .

فتراه يقول : « البلاغة هى بلوغ المتكلم فى تأدية المعانى حداله اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها ، ولها - أعنى البلاغة - طرفان ، أعلى وأسفل متباينان تبايناً لا يتراءى له ناراهما وبينهما مراتب تكاد تفوت الحصر ، متفاوتة ، فن الأسفل تبتدىء البلاغة وهو القدر الذى إذا انتقص منه شىء التحق ذلك الكلام بما شبهناه فى صدر الكتاب من أصوات الحيوانات ، ثم تأخذ فى التزايد ، متصاعدة إلى أن تبلغ حد الإعجاز ، عجيب يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة ، ومدرك الإعجاز عندى هو الذوق ليس إلا ، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين ، نعم للبلاغة وجوه ملتثمة ربما تيسرت إماطة اللثام عنها لتجلى عليك ، أما نفس الإعجاز فلا »[1] .

والسكاكى فى عرضه للقواعد وتقرير المسائل والأحكام لم ينس موضوع كتابه وهمه الأساسى فيه ، وهو الإعجاز القرآنى فلا عجب إذا وجدناه يكثر من الشواهد القرآنية فى كل مسائل الكتاب ، بل نجده فى

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

كثير من المسائل يأتى بمثال واحد أو بمثالين لتوضيح القاعدة ، ثم يسوق العديد من الأمثلة القرآنية التى ربما يصعب حصرها فى المسألة الواحدة ، بل إنه كثيراً ما يعرض الشواهد كلها قرآنية فى المسألة الواحدة ، وتلك ظاهرة واضحة فى المفتاح يمكن إدراكها بأدنى تأمل .

فعند تعرضه لما عدا « لو » من أدوات الشرط يذكر أن الجزاء والشرط فى غير « لو » كانا تعليق حصول أمر بحصول ما ليس بحاصل ، استلزم ذلك فى جملتها امتناع الثبوت ، فامتنع إن تكونا اسميتين أو إحداهما ، وكذا امتناع المضى فامتنع أن يكون الفعلان ماضيين أو أحدهما .

ولا يخالف ذلك الأصل فى الكلام البليغ إلا لنكتة معلومة كتنزيل ما هو للوقوع منزلة الواقع نحو قولك : ان مت ، ويكتفى بهذا المثال التوضيحى ، ثم يذكر أن « عليه ونادى أصحاب الجنة ، ونادى أصحاب الأعراف . وكذا إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، لنزولها قبل فتح مكة » وإن كان يحترس بأن فى أقوال المفسرين فى الآية الأخيرة كثرة ، مشيراً إلى أن فى قول بعض المفسرين ما يخرجها عن الاستشهاد بها فى هذا الموضع .

ومن النكات التى ذكرها فى تنزيل ما هو للوقوع منزلة الواقع التعريض ، ولم يأت بشاهد واحد خارج عن آيات الكتاب العزيز ، بل جاء بأمثلته كلها قرآنية ، فيقول فى هذا الموضع : « وإما للتعريض ، كما فى نحو قوله : ولئن اتبعت أهواءهم ، لئن أشركت . فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات . ونظيره فى كونه تعريضا قوله : وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ، المراد وما لكم لا تعبدون الذى فطركم ، والمنبه عليه قوله : « وإليه ترجعون » . ولولا التعريض لكان المناسب وإليه أرجع ، وكذا أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً

ولا ينقذون إنى إذاً لفى ضلال مبين . المراد : أتتخذون من دونه آلهة إن يردكم الرحمن بضر لا تغن عنكم شفاعتهم شيئا ولا ينقذوكم إنكم إذاً لفى ضلال مبين ، ولذلك قيل : إنى آمنت بربكم دون ربى ، واتبعه فاسمعون ، ولا تعرف حسن موقع هذا التعريض إلا إذا نظرت إلى مقامه ، وهو تطلب اسماع الحق على وجه لا يورث طالبى ذم المسمع مزيد غضب ، وهو ترك المواجهة بالتضليل والتصريح لهم بالنسبة إلى ارتكاب الباطل . ومن هذا الأسلوب قوله تعالى : قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون . وإلا لحق النسق من حيث الظاهر ، قل لا تسألون عما عملنا ولا نسأل عما تجرمون . وكذا ما قبله وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين »[1] .

وكان السكاكى حريصاً على أن ينقلك من القاعدة بعد أن يدربك عليها ليضع يدك على موطن الجمال القرآنى مما يتصل بالقاعدة ، مما يدل — بلا ريب — على أن القاعدة فى حد ذاتها لم تكن موضوعه ، وإنما موضوعه الإعجاز وبيان سر عظمة الأسلوب القرآنى .

ومن ذلك ما نجده فى نهاية حديثه عن الفصل والوصل ، وعرض الحالات المقتضية للفصل وكذا حالات الوصل ويختم الكلام فى جميع هذه الحالات يسوق أمثلة قرآنية كثيرة ومتنوعة لكل حالة من حالات الفصل أو الوصل كل على حدة ، ويصدر ذلك بقوله : « ولنختتم الكلام فى تفصيل الحالات المقتضية للقطع والاستئناف والإبدال والإيضاح والتقريب والانقطاع والتوسط بين بين بهذا القدر ، ولنذكر لك أمثلة لتجذب بضبعك أن عسى اعترضك مداحض إذا أخذت نسلك تلك الطرقات »[2] .

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٦ ، ١٠٧ .
(٢) المصدر السابق ص ١١٣ .

وفى تعليقه على الشواهد القرآنية ما يبرهن — بوضوح — على غا... وغرضه، وعلى تسلط فكرة الإعجاز على عقله فى كل سطر من كتابه، ويدل على أن سوقه للقواعد لم يكن إلا ليلفت الأذهان إلى المفتاح الحقيقى لإدراك هذه العظمة القرآنية، والإعجاز البيانى لكتاب الله الكريم.

فنجده بعد أن يشرح القاعدة ويوضحها ببعض الأمثلة ينتقل إلى تنبيهك إلى الغرض بمثل قوله فى لام الاستغراق. ومن هذا يعرف لطف ما يحكيه تعالى عن زكريا — عليه السلام — «رب إنى وهن العظم منى» دون وهن العظام، حيث توصل باختصار اللفظ إلى الإطناب فى معناه»(١).

وما أجمل طباقه بين الإختصار والإطناب، حيث جعل الموصل إلى الإعجاز موصلا إلى الإطناب فى عبارة جميلة، وثوب بديعى رائع.

وفى الحالة المقتضية لمجىء الجملة اسمية أو فعلية بين الفرق بين الحالين والدواعى المؤدية إلى كل منهما، وبعد بيان الفرق والتفاوت بينهما يقول: «وما تسمع من تفاوت الجملتين الفعلية والإسمية تجدداً وثبوتاً هو يطلعك على أنه حين ادعى المنافقون الايمان بقولهم آمنا بالله وباليوم الآخر جانين به جملة فعلية على معنى أحدثنا الدخول فى الايمان وأعرضنا عن الكفر ليروج ذلك عنهم كيف طبق المفصل فى رد دعواهم الكاذبة قوله تعالى وما هم بمؤمنين، حيث جىء به جملة اسمية»(٢).

وفى حديثه عن الايجاز، وبعد أن يعرفه ويذكر حسنه وموقعه يأخذ فى التمثيل له، ويصدر ذلك بقوله: «والعلم فى الايجاز قوله علت كلمته فى

---

(١) المصدر السابق ص ٩٤.
(٢) المصدر السابق — الموضع السابق.

القصاص حياة ، وإصابته المحز بفضله على ما كان عندهم أوجز كلام فى هذا المعنى ، وذلك قولهم : القتل أنفى للقتل »[1] .

وفى وضع الخبر موضع الطلب يذكر كثيراً من النكت والأسرار التى تدعو إلى ذلك ، ومنها قصد التفاؤل بالوقوع ، أو قصد الكناية ، أو الاحتراز عن صورة الأمر ، أو حمل المخاطب على المذكور أبلغ حمل بألطف وجه ، وبعد أن يوضح هذه النكت يقول : « فتأملها ففيها كثرة ، وما من آية من آى القرآن واردة على هذا الأسلوب إلا مدارها على شىء من هذه النكت . قال تعالى : وإذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون إلا الله فى موضع لا تعبدوا ، وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم فى موضع لا تسفكوا ، يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله فى موضع آمنوا وجاهدوا فانظر »[2] .

فانظر كيف انتقل من القاعدة إلى المثل القرآنى فهو انتقال يضع يدك على المقصود من سوق القاعدة ، وما عرض هذه الأسرار والنكت إلا لتكشف ببصيرتك مواقعها فى القرآن الكريم وآياته .

والسكاكى فى كتابه لم يخف هذا القصد وراء إشاراته أو إيماءاته ، بل إنه كثيراً ما كان يكشف عن وجه ذلك الغرض بعبارات صريحة أو أقرب إلى الصراحة والوضوح ، مما يبين أن موضوع الكتاب هو بيان الاعجاز القرآنى وأدلته .

ففى بناء الكلام على السؤال المقدر يفصح عن هذه الغاية ويكشف

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٠ .

ذلك المقصود بقوله : « هذا التركيب متى وقع موقعه رفع شأن الكلام فى باب البلاغة إلى حيث يناطح السماك ، وموقعه أن يصل من بليغ عالم بجهات البلاغة بصير بمقتضيات الأحوال ساحر فى اقتضاب الكلام ماهر فى أفانين السحر إلى بليغ مثله مطلع من كل تركيب على حاف معناه وخصوص مستتبعاته ، فإن جوهر الكلام البليغ مثله مثل الدرة الثمينة لا ترى درجتها تعلو ولا قيمتها تغلو ولا تشترى بثمنها ولا تجرى فى مساومتها على سننها ما لم يكن المستخرج لها بصيراً بشأنها والراغب فيها خبيراً بمكانها ، وثمن الكلام أن يوفى من أبلغ الاصغاء وأحسن الاستماع حقه وأن يتلقى من القبول له والاهتزاز بأكمل ما استحقه ، ولا يقع ذلك ما لم يكن السامع عالماً بجهات حسن الكلام ومعتقداً بأن المتكلم تعمدها فى تركيبه للكلام عن علم منه ، فإن السامع إذا جهلها لم يميز بينه وبين ما دونه ، وربما أنكره وكذلك إذا أساء بالمتكلم اعتقاده ربما نسبه فى تركيبه ذلك إلى الخطأ وأنزل كلامه منزلة ما يليق به من الدرجة النازلة ، ومما يشهد لك بهذا ما يروى عن على — رضى الله عنه — أنه كان يشيع جنازة فقال له قائل : من المتوفى ؟ بلفظ اسم الفاعل ، سائلا عن المتوفى ، فلم يقل فلان بل قال الله رداً لكلامه عليه مخطئاً إياه منبهاً له بذلك على أنه كان يجب أن يقول من المتوفى — بلفظ اسم المفعول — ويقال : إن هذا الواقع كان أحد الأسباب التى دعته إلى استخراج علم النحو ، فأمر أبا الأسود الدؤلى بذلك ، فهو أول أئمة النحو — رضوان الله عليهم أجمعين — وما فعل ذلك كرم الله وجه إلا لأنه عرف من السائل أنه ما أورد لفظ المتوفى على الوجه الذى يكسوه جزالة فى المعنى وفخامة فى الايراد ، وهو وجه القراءة المنسوبة إليه ، والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً ، بلفظ بناء الفعل للفاعل من إرادته معنى والذين يستوفون مدد أعمارهم . وإذا عرفت هذا فنقول فى التركيب الذى نحن فيه من مثل يكتب القرآن لى زيد برفع زيد مع بناء الفعل للمفعول

جهات للحسن ومزايا يتلوها عليك ليكون لك ذريعة إلى درك ما سواها إذا شحذنا بها بصيرتك »[١] .

وكلامه هذا واضح فى أن إدراك عناصر الجمال والروعة يكون بالقبول له واهتزاز النفس من أثره ، ولكن لا يكون قبول أو اهتزاز دون العلم بجهات تلك العناصر ومصادر هذا الجمال . ومن ثم كان لا بد من وضع القواعد لتحديد هذه العناصر التى تعين على فهم الحسن وإدراك روعة البيان ، وارتقاء الأساليب فى باب البلاغة .

إذن ليس القصد إلى هذه القواعد وتلك الأحكام فى ذاتها ، وإنما لغاية وغرض صرح بهما فى قوله بعد الفراغ من علمى المعانى والبيان مخاطبا معانده الجاهل : « وإذ قد أفضى بنا القلم إلى هذا الحد من علمى المعانى والبيان وما أظنك يشتبه عليك ، وأنك منذ وفقنا لتحريك القلم فيهما لتشاهد ما تشاهد أناما سطرنا ما سطرنا إلا وجل الغرض توخى إيقاظك عما أنت فيه من رقدة غباك عن ضروب افتنانات فى النسج لحبير الكلام على منوال الفصاحة وإبداع وشيه بتصاوير عن كمال التأنق فى ذلك اشداداً ولجاماً عسى أن استيقظت أن يضرب لك بسهم حيث ينص الاعجاز للبصيرة تليله ويقص على المذاق دقيقه وجليله فتنخرط فى سلك المنقول عنهم فى حق كلام رب العزة : إن له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أسفله لمغدق وان أعلاه لمثمر وانه يعلو وما يعلى وما هو بكلام البشر ، فتستغنى بذلك عن قرع باب الاستدلال وأن لا تتجاذبك أيدى الاحتمالات فى وجه الاعجاز[٢] .

---

(١) المصدر السابق ص ٩٨ .

(٢) السابق ص ٢١٦ .

أليس هذا تصريحاً بأن الكتاب موضوعه « الاعجاز وأدلته » ، وأن شاغله وهمه هو هذه القضية وأن ما ساقه ليس إلا تدليلا عليها ووسائل تؤدى اليها ؟؟ .

بل أبعد من هذا نجده يعرض وجوه الاعجاز المختلفة ، وبعد أن يذكر أنها أربعة يقول : « هذه أقوال أربعة يخمسها ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الاعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة[1] .

وإدراك الاعجاز من هذا الوجه لا يتأتى إلا بالوقوف على العلوم التى ضمنها كتابه ، إذ أن « شبه الجهلة فيما نحن بصدده مختلفة فمن عائدة إلى علم الصرف ، ومن عائدة إلى علم النحو ، ومن عائدة إلى علم المعانى والبيان ، ومرجع ذلك كله إلى علم المنثور ، وقد ضمن اطلاعك كتابنا هذا على تفاصيل الكلام هناك ، ومن عائدة إلى علم المنظوم ، وهو علم الشعر . ونحن إلى الآن ما قضضنا عن التعرض له الختام ، أفلا يورثنا ذا أن نظنك تنزع إلى المألوف وإنك بتلك الطباعية موصوف »[2] .

فالعلوم التى جاءت فى « مفتاح العلوم » من صرف ونحو ومعان وبيان وشعر ، وما تبع هذه العلوم مما ورد فى الكتاب لم تأت قصداً لذوات هذه العلوم ومسائلها وقواعدها ، وإنما جاءت لتعلقها بفهم الاعجاز القرآنى وإدراكه ، ودحض شبه الجهلة والطاعنين على هذه المعجزة الخالدة .

وفى خاتمة المفتاح ينعى على هؤلاء الطاعنين جهلهم بالاعجاز ، ويبين أن هذا الجهل جاء نتيجة بعدهم عن علوم الاعجاز التى ساقها فى كتابه ، عدا علم اللغة ، وأن هؤلاء لو وقفوا على هذه العلوم لما عميت أفئدتهم ، ولما قالوا

---

(١) السابق ص ٢١٧ .

(٢) المصدر السابق — الموضع السابق .

ما قالوا ، فيقول : « سبحان الحكيم الذى يسع حكمته أن يخلق فى صور الأناسى بهائم أمثال الطاعنين أن يطعنوا فى القرآن ، ثم الذى يقضى منه العجب أنك إذا تأملت هؤلاء وجدت أكثرهم لا فى العير ولا فى النفير ، ولا يعرفون قبيلا من دبير . أين هم عن تصحيح نقل اللغة ، أين هم عن علم الاشتقاق ؟ أين هم عن علم التصريف ؟ أين هم عن علم النحو ؟ أين هم عن علم المعانى ؟ أين هم عن باب النثر ؟ أين هم عن باب النظم؟ ما عرفوا أن الشعر ما هو ، ما عرفوا أن الوزن ما هو ، ما عرفوا ما السجع ،ما القافية ، ما الفاصلة ، أبعد شىء عن نقد الكلام جماعتهم ، لا يدرون ما خطأ الكلام وما صوابه ، ما فصيحه وما أفصحه ، ما بليغه وما أبلغه ، ما مقبوله وما مردوده[1] .

من ثم فإنه لا يخالجنى شك فى أن السكاكى لم يقدم على تأليف كتابه وفى ذهنه أنه يصنف قواعد هذه العلوم التى ضمنها كتابه ، وإنما هى قضية آمن بها وهضمها فى تراث السابقين ، فمن له أن يعالجها معالجة تنظم ما تبعثر منها فى ذلك التراث ، وأن يقدم هذه القضية بروحه ، وحسبما اقتضت ثقافته ، وأن يفرغها فى قالب يعرفه أهل الذوق كما يعرفه أصحاب المنطق وأرباب الفلسفة . تلك هى قضية الإعجاز القرآنى من ذلك الوجه الذى آمن به ورسخ فى عقله ، وهو أمر من جنس الفصاحة والبلاغة ، فقدم كتابه « مفتاح العلوم » وجعل من هذه القضية موضوعاً لذلك الكتاب .

* * *

(١) المصدر السابق ص ٢٤٤ .

المبحث الثالث

منهج السكاكى فى عرض قضية الإعجاز

أوضحنا - فى المبحث السابق - أن كتاب السكاكى - مفتاح العلوم - موضوعه الإعجاز القرآنى ، ولم يكن حديث الصرف أو النحو أو البلاغة إلا وسائل وأدوات للتوصل إلى هذا الغرض ، وتحقيق تلك الغاية .

والسؤال هو : كيف توصل السكاكى إلى غرضه ؟ وكيف عرض قضية الإعجاز القرآنى فى كتابه ؟ وما منهجه الذى اتبعه ليثبت أن إعجاز القرآن فى نظمه وأسلوبه وبلاغته ؟

ولا تفوتنا الإشارة - قبل البدء فى عرض منهجه الذى قدم به قضية الإعجاز القرآنى - إلى أن السكاكى كان رجل فلسفة ومنطق ، كما كان لغويا فهو إلى جانب دراساته القرآنية والفقهية واللغوية درس المنطق وعلم الكلام اللذين كان لهما رواج فى عصره ، فقد مضى يعب من جداول الفلسفة والمنطق وعلم الكلام والاعتزال ، كما عب من جداول الفقه وأصوله ، وعلوم اللغة والبلاغة .

وإذا كان للفلسفة وعلم الكلام والاعتزال أثرها فى الفكر العربى والإسلامى ، لاسيما فى العصر العباسى الذى بلغت فيه الحضارة أوج ازدهارها ، وإذا كان هذا الأثر قد امتد إلى جميع العلوم والفنون بحيث لم يسلم علم من العلوم الإسلامية والعربية من الأثر الفلسفى والكلامى فإننا نجد هذا الأثر واضحاً عند السكاكى فى كتابه المفتاح ، سواء فى علاجه لموضوعه ، أو البحوث والدراسات التى عرض لها فى ثنايا الكتاب .

والبلاغيون يعدون السكاكى بهذا الأثر رائد المدرسة الكلامية فى فى دراسة البلاغة وتناول مسائلها ، وأهم خصائص هذه المدرسة الاهتمام بالتحديد والتعريف والتقسيم المنطقى والاهتمام بجعل التعريف جامعاً مانعاً ، ثم استعمال الأساليب الفلسفية والمنطق فى تحديد الموضوعات ومعالجتها وتقسيمها وحصرها . كما كان من أبرز سمات هذه المدرسة الإقلال من الشواهد والأمثلة الأدبية ، وإبعاد القواعد والمقاييس عن الحقل الذى وضعت من أجله وفى خدمته وهو الأدب .

وعندما ننظر فى منهج السكاكى فى عرض قضية الإعجاز ينبغى ألا نغفل هذا الأثر أو نتجاهله أو نقلل من شأنه ، لأننا سنجده فى كل كل سطر من سطور كتابه — بل نجده فى كل كلمة من الكتاب من أوله إلى آخره .

لذا فإنه لا يصح النظر إلى كتابه نظرة تجزىء مسائله ، أو تباعد بين مباحثه ، أو تبعثر أقسامه ، لأن المفتاح — كما سبق أن أشرنا — بناء واحد ، وكل لبنة من لبناته لها دور فى هذا البناء الكبير .

وقد بدأ السكاكى عرض قضيته بالتسليم بأن الإعجاز القرآنى من جهة نظمه وبلاغته أمر لا نقاش فيه ولا جدال عليه ، غير أن أمر هذا الإعجاز لما كان بحاجة إلى إدراك ، وأنه لا إدراك إلا بالتذوق ، ولا تذوق إلا بتربية حاسة الذوق التى تكشف عن أسرار الروعة القرآنية ، وإعجاز بلاغته وأساليبه فإن الحاجة ماسة إلى التدريب والأخذ بيد المبتدئين ، ووضع أيديهم على مفاتيح العلوم التى تربى فيهم ذلك الذوق وتلك الحاسة الفنية ، فهم بغيرها لا يدركون الإعجاز ولا يقفون على كنهه ، وهم عندما يدركونه فا عا يدركونه بمعونة هذا الذوق ـ بنور البصيرة ، ويحسونه إحساساً يرقى إلى درجة المحسوس ، ويوقنونه يقيناً يغنيهم عن الاستدلال عليه .

وقد نظر السكاكى فى العلوم التى تربى الذوق، ويقوم عليها أمر الإعجاز فوجدها منحصرة فى علم اللغة، وعلم الصرف، وعلم النحو، والمعانى والبيان، والعروض والقوافى، والمعروفة باسم «علوم الأدب» أو «علم الأدب».

ولعله أحال القارىء إلى كتب اللغة ومعاجمها المبسوطة يتلمس منها حاجته، ويبحث فيها عن ضالته، واكتفى بهذه الكتب فلم يقدم فى كتابه شيئا عن علم اللغة — بل أخرجه — فى صراحة — عن دائرة بحثه واهتمامه.

ضمن كتابه علم الصرف وتبعه علم الاشتقاق، ثم علم النحو، وعلمى المعانى والبيان، ثم علمى الحد والاستدلال لتبعيتهما لعلم المعانى، ثم علمى العروض والقوافى، وقد صرح بهذا الحصر فى مقدمة كتابه فى قوله «وقد ضمنت كتابى هذا من أنواع الأدب - دون علم اللغة - ما رأيته لابد منه، وهى عدة أنواع متآخذة، فأودعته علم الصرف بتمامه، وأنه لا يتم إلا بعلم الاشتقاق المتنوع إلى أنواعه الثلاثة وقد كشفت عنها القناع، وأوردت علم النحو بتمامه، وتمامه بعلمى المعانى والبيان، ولقد قضيت - بتوفيق الله - منهما الوطر. ولما كان تمام علم المعانى بعلمى الحد والاستدلال لم أر بدا من التسمح بهما، وحين كان التدرب فى علمى المعانى والبيان موقوفاً على ممارسة باب النظم وباب النثر ورأيت صاحب النظم يفتقر إلى علمى العروض والقوافى ثنيت عنان القلم إلى إيرادهما [1]».

والوقوف على هذه العلوم يبعث على الاطلاع على أساليب العرب وطريقتهم فى التعبير عن أغراضهم، كما يبعث على الابتعاد عن الخطأ فى سلك مسالكهم، والنسج على منوال فصاحتهم، وهذا مؤداه فى النهاية التعرف

(١) مفتاح العلوم ص ٢، ٣.

على مراد الله ـ تعالى ـ والوقوف على إعجاز كتابه الكريم .

فعلم الأدب متى كان الحامل على الخوض فيه مجرد الوقوف على بعض الأوضاع ، وشيء من الاصطلاحات فهو لديك على طرف التمام ، أما إذا خضت فيه لهمة تبعثك على الاحتراز عن الخطأ في العربية وسلوك جادة الصواب فيها اعترض دونك منه أنواع تلقى لادناها عرق الرقبة لاسيما إذا انضم إلى همتك الشغف بالتلقى لمراد الله تعالى من كلامه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهناك يستقبلك منها مالا يبعد أن يرجعك القهقرى » [1] .

ودقة السكاكى ومنطقه جعلاه يحدد الهدف ، ويضع معالم الطريق الذى سيسير عليه فبعد أن وضع عنوان كتابه ليعبر — بدقة من خلال هذا العنوان عن قصده وهدفه حدد طريقه فى مقدمة الكتاب ، فأوضح أن التعرف على أمر الإعجاز لا يتم إلا بالوقوف على هذه العلوم التى تربى الذوق المدرك لأمر هذا الاعجاز .

وقد قسم السكاكى هذه العلوم ثلاثة أقسام : قسم يبحث فى الكلمة المفردة ومايتعلق بها وهو علم الصرف وتبعه علم الاشتقاق ، وقسم يبحث البناء والتركيب وهو علم النحو ، وقسم يبحث عناصر الجمال الأدبى وضمنه علمى المعانى والبيان . وجعل علم الاستدلال ضمن هذا القسم لتبعيته لعلم المعانى ، ولم ينس أن للشعر أحكاماً تخصه فجعل له علمى العروض والقوافى بعد استيفائه لأقسام الكتاب الثلاثة .

وقد أفصح السكاكى عن غرضه من هذا التقسيم ، وأنه الموصل إلى غايته الكبرى من كتابه ، فيقول : « الذى اقتضى عندى هذا هو أن الغرض

---

(١) المصدر السابق ص ٣ .

الأقدم من علم الأدب لما كان هو الاحتراز عن الخطأ في كلام العرب ، وأردت أن أحصل هذا الغرض وأنت تعلم أن تحصيل الممكن لك لا يتأتى بدون معرفة جهات التحصيل واستعمالها لا جرم أنا حاولنا أن نتلو عليك في أربعة الأنواع مذيلة بأنواع أخر مما لابد من معرفته في غرضك لتقف عليه ، ثم الاستعمال بيدك ، وإنما أغنت هذه لأن مثارات الخطأ إذا تصفحتها ثلاثة : المفرد والتأليف . وكون المركب مطابقا لما يجب أن يتكلم له ، وهذه الأنواع - بعد علم اللغة - هى المرجع إليها فى كفاية ذلك ما لم يتخطى إلى النظم ، فعلما الصرف والنحو يرجع إليهما فى المفرد والتأليف ، ويرجع إلى علمى المعانى والبيان فى الأخير ، ولما كان علم الصرف هو المرجوع إليه فى المفرد ، أو فيما هو فى حكم المفرد ، والنحو بالعكس من ذلك ، كما ستقف عليه ، وأن تعلم أن المفرد متقدم على أن يؤلف ، وطباق المؤلف للمعنى متأخر عن نفس التأليف لا جرم أنا قدمنا البعض على هذا الوجه وضعاً لتؤثر ترتبا استحقته طبعاً [1].

ثم عرض لعلم الصرف ، مبيناً أنه سيذكر ما تعلق به من الغرض ، وهو الاحتراز عن الخطأ فى التصرفات التى لها مدخل فى القياس جارية على الكلم إما مفردة كإمالتها وتفخيمها وتخفيف همزاتها ، واعتبار ترخيمها وبعض تكسيراتها وتحقيرها ، وكتثنيتها أيضا ، وجمعى تصحيحها ونسبتها أو فى حكم المفردة كإضافتها إلى النفس فى نحو علمى ، واشتقاق ما يشتق من الأفعال وتصريف الأفعال مع الضمائر ونونى التوكيد أيضا وإجراء الوقف على ما يراد به ذلك .

ثم انتقل إلى علم النحو ، وكان تعريفه له كاشفاً عن العرض من التعرض لمباحثه ، فقد عرفه بأنه « أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين

(١) المصدر السابق ص ٣ ، ٤ .

الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقا بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب وقوانين مبنية عليها ، ليحترز بها عن الخطأ فى التركيب من حيث تلك الكيفية ، وأعنى بكيفية التركيب تقديم بعض الكلم على بعض ، ورعاية ما يكون من الهيئات إذ ذاك ، وبالكلم نوعيها المفردة وما هى فى حكمها [(١)] » .

ثم تعرض لعلمى المعانى والبيان فى القسم الثالث ، فبدأ بذكر تعريفهما وأفاض القول فى مسائلهما وأقسامهما بحيث لم يترك كبيرة أو صغيرة من قواعد العلمين إلا أتى عليها أو تعرض لها وقد أفاض فى حديثه عن العلمين إفاضة لم نرها له عند تعرضه لعلمى الصرف أو النحو . وربما يرجع ذلك لعدة أسباب :

الأول : أن علم النحو — ويتبعية علم الصرف — كان قد استوى على أشده واستقرت قوانينه وضبطت مسائله ونضجت قبل السكاكى بزمن طويل . حيث كان أول فساد سرى إلى العربية فى الحركات التى سميت عند أهل النحو بالإعراب ، ثم زاد الفساد بمخالطة الأعاجم حتى تأدى إلى موضوعات الألفاظ ، بل تطرق اللحن إلى القرآن الكريم ؛ مما دفع الغيورين من علماء اللغة وأعلامها إلى ضبط القواعد والقوانين التى تكفل صحة التراكيب ، وتحول دون وقوع اللحن أو الخطأ فى الإعراب ، ومن ثم فإن الدراسات النحوية والصرفية — كما هو الشأن فى علم اللغة — جاءت متقدمة وأصبحت قواعدها ثابتة . ولما كان الأمر كذلك فإن السكاكى لم يكن بحاجة إلى الوقوف عندها طويلا ، بل تكفى فيها الاشارات ، التى هى — كما أشرنا — كالمفاتيح .

أما علم البلاغة فلم تكن قواعده محددة ومضبوطة بمثل ذلك التحديد

(١) المصدر السابق ٢٣ .

أو الضبط الذى وضعه السكاكى ، ولم يكن يرضيه أو يوافق طبعه أو ثقافته أن يترك هذا العلم مبعثرا تضل قواعده فى ثنايا العلوم والمعارف المختلفه أو بين كثرة التطبيقات والأساليب الأدبية الرفيعة التى نجدها عند أسلافه من أمثال عبد القاهر الجرجانى وجار الله الزمخشرى وأضرابهما

صحيح أن السكاكى مقتنع بأن الغاية هى تربية الذوق والتعرف على جمال الأساليب وعلى الوجه الأمثل فى إعجاز القرآن الكريم ، وخصائص هذا الوجه وعناصره ودلائله ، وهذا ما نجده عند كل من عبد القاهر والزمخشرى ، إلا أنه مقتنع أيضا بأن ضبط هذه القواعد أيضا فى صورة يعرفها المناطقة ، كما يألفها الأعاجم أمر لابد منه للتوصل إلى تربية الذوق المدرك للإعجاز .

ولعل فى تعريف ابن جنى للنحو ما يكشف عن ملحظ السكاكى ومنطقه فى هذا المسلك ، إذ يعرف ابن جنى النحو بأنه : « انتحاء سمت كلام العرب فى تصرفه من إعراب وغيره : كالتثنية والجمع ، والتحقير والتكسير والإضافة ، والنسب والتركيب وغير ذلك ، ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها فى الفصاحة ، فينطق بها وإن لم يكن منهم . وإن شذ بعضهم عنها رد به إليها [1] » .

إذن المقصود بهذه القواعد ليس أهل اللغة المتربين على أساليبها ، وعناصر الجمال فيها ، ولكن المقصودين هم الأعاجم الذين ليسوا من أهلها فهم بحاجه إلى التدرب والتثقيف ليلحقوا بأهلها فى الفصاحة والبلاغة ، فيستطيعوا أن يدركوا روعة النظم القرآنى وإعجازه . وهذا يدفع إلى الوقوف مع مباحث العلمين وقفة تضبط مسائلهما وتحدد قواعدهما .

---

(١) الخصائص ١ / ٢٤ .

الثانى : أن لهذين العلمين فضلا كبيراً وأثراً مباشراً فى فهم الإعجاز وإدراكه . فعلاقة العلمين بقضية الإعجاز تبدو أكثر وضوحاً من كل من علمى الصرف والنحو .

وقد أشار السكاكى إلى فضيلة العلمين وفضلهما فى فهم الإعجاز وإدراكه فى قوله : « لا علم فى باب التفسير - بعد علم الأصول - اقرأ منهما - يعنى العلمين المعانى والبيان - على المرء لمراد الله - تعالى - من كلامه . ولا أعون على تعاطى تأويل مشتبهاته ولا أنفع فى درك لطائف نكته وأسراره . ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه . هو الذى يوفى كلام رب العزة من البلاغة حقه ويصون له فى مظان التأويل ماءه ورونقه ، ولكم آية من آيات القرآن تراها قد ضيمت حقها واستلبت ماءها ورونقها إن وقعت عند من ليسوا من أهل هذا العلم ، فأخذوا بها فى مآخذ مردودة وحملوها على محامل غير مقصودة وهم لا يدرون . ولا يدرون أنهم لا يدرون . فتلك الآى من مآخذهم فى عويل . ومن محاملهم على ويل طويل . وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا [1] .

فلطائف القرآن التى لا يتسع لها الحصر . وأسرار نظمه التى تكشف عن وجه إعجازه لا يمكن دركها إلا بالوقوف على هذين العلمين . وأن الوقوف على مسائلهما يطلع المرء على مراد الله - تعالى - من كلامه . ويصون هذا الكلام من التأويل الذى يحول بينه وبين مائه ورونقه .

وفضل علم البلاغة وصلته بالإعجاز أمر معروف ومستقر قبل السكاكى فقد رأيناه - كما أشرنا - عند أبى هلال العسكرى . وحديث عبد القاهر عن فضل هذا العلم أمر مشتهر عند البلاغيين . فقد صرح « بأنك لا ترى علما هو أرسخ أصلا وأبسق فرعا وأحلى جنى وأعذب ورداً . وأكرم نتاجا .

(١) مفتاح العلوم صـ ١٧٨ .

وأنور سراجاً من علم البيان الذى لولاه لم تر لساناً يحوك الوشى ويصوغ الحلى ويلفظ الدر ، وينفث السحر ، ويقرى الشهد ، ويريك بدائع من الزهر ، ويجنيك الحلو اليانع من الثمر ، والذى لولا تحفيه بالعلوم ، وعنايته بها ، وتصويره إياها لبقيت كامنة مستوردة ولما استبنت لها يد الدهر صورة ، ولا استمر السرار بأهلتها واستولى الخفاء على جملتها ، إلى فوائد لا يدركها الإحصاء ، ومحاسن لا يحصرها الاستقصاء »[1].

ثم يعقد الصلة القوية والمتينة بين هذا العلم — يعنى علم البلاغة - وبين فهم الإعجاز القرآنى ، والوقوف على أساليبه ودلائله[2].

ويكشف العلامة الزمخشرى عن فضل علمى المعانى والبيان فى إدراك لطائف القرآن الكريم والوقوف على سر إعجازه ، وذلك فى قوله : « إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح ، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح ، من غرائب نكت يلطف مسلكها ، ومستودعات أسرار يدق سلكها علم التفسير الذى لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذى علم ، كما ذكر الجاحظ فى نظم القرآن ، فالفقيه وإن برز على الأقران فى علم الفتاوى والأحكام ، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا فى صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار — وإن كان من ابن القرية أحفظ ، والواعظ وإن كان من الحسن البصرى أوعظ ، والنحوى وإن كان أنحى من سيبويه . واللغوى وإن علك اللغات بقوة لحييه ، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولا يغوص على شىء من تلك الحقائق ، إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعانى والبيان ، وتمهل فى ارتيادهما آونة ، وتعب فى التنقير عنهما أزمنة ،

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٣ ، ١٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٤ ، ٣٥ .

وبعثته على تتبع مظانهما همة فى معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله »[١].

وغير هؤلاء كثيرون ممن أشادوا بهذين العلمين ، وأشاروا إلى فضلهما في الكشف عن الإعجاز والتعرف على مراد الله تعالى من كلامه .

الثالث: أن السكاكى وجد أن هذا العلم لم يأخذ من اهتمام العلماء ما يتناسب وفضله ومكانته ، وأن الناس شغلوا عن هذا العلم وقواعده ، وظلموه أيما ظلم ، ولعله أراد أن يرد لهذا العلم بعض حقه المسلوب فوقف معه هذه الوقفة الطويلة بهدف الإحاطة بمسائله وقواعده وبسط أحكامه وأصوله .

فيذكر أن هذا العلم مع ماله من الشرف الظاهر والفضل الباهر لا ترى علما لقى من الضيم مالقى ، ولا منى من سوم الخسف بما منى ، أين الذى مهد له قواعد ورتب له شواهد ، وبين له حدودا يرجع إليها ، وعين له رسوما يعرج عليها ، ووضع له أصولا وقوانين وجمع له حججا وبراهين ، وشمر لضبط متفرقاته ذيله واستنهض فى استخلاصها من الأيدى رجله وخيله ، علم تراه أيادى سبا ، فجزء حوته الدبور ، وجزء حوته الصبا . أنظر باب التحديد فإنه جزء منه فى أيدى من هو ، أنظر باب الاستدلال فإنه جزء منه فى أيدى من هو ، بل تصفح معظم أبواب أصول الفقه من أى علم هى ومن يتولاها ، وتأمل فى مودعات من مبانى الإيمان ما ترى من تمناها سوى الذى تمناها وعد وعد ، ولكن الله جلت حكمته إذ وفق لتحريك القلم فيه عسى أن يعطى القوس باريها يحول منه عز سلطانه وقوة ، فما الحول والقوة إلا به »[٢].

---

(١) الكشاف ١/٣ .

(٢) مفتاح العلوم ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

فهذه الأسباب الثلاثة قد تكون الدافع الأساس لإطالة السكاكى فى حديثه عن المعانى والبيان ، بينما اقتضب الكلام اقتضاباً فى علمى الصرف والنحو .

والسكاكى فى تقعيده لقواعد هذين العلمين لم يغفل جانب الذوق والروح الأدبى ، ولم يقلل من شأنهما ، بل هى عنده الأصل والأساس ، فكثير ما يصرح بأن الغرض هو تربية الذوق ، والتدريب على أساليب العرب لإدراك أمر الإعجاز ، ولعل هذا ما يتفق وتسمية هذه المباحث التى ساقها فى كتابه مفاتيح .

ثم تعرض السكاكى للمحسنات البديعية على أنها من متممات ومكملات البلاغة ، وليست داخلة فيها دخولا أصليا ، إذ أن هذه المحسنات - عنده - لا تعلق لها بالبلاغة فلا علاقة لها بتطبيق الكلام لمقتضى الحال أو الفصاحة ، وإنما يؤتى بهذه المحسنات تزيينا وتحسينا للكلام بعد أن يكون قد استوفى عناصر بلاغته ووجوهها[1].

ولم يكن تعرض السكاكى لعلم الشعر إلا لدفع شبهة ربما ترد على القرآن الكريم ، وهى ادعاء بعض الطاعنين على القرآن وإعجازه بأن النص

---

(١) لا نسلم لأبى يعقوب هذه النظرة وهذا الرأى ، فالحق أن هذه المحسنات من صميم البلاغة ، وهى جزء من النظم المعجز ، ولها علاقة وثيقة بتطبيق الكلام لمقتضى الحال ، لأنها لا تحسن ، بل لا تعد من البلاغة إلا إذا اقتضاها المقام و[illegible] عفوا دون تكلف .

وقد عالجنا هذه القضية بالتفصيل ، وناقشنا السكاكى ومن تبعه ، وبينا منزلة هذه المحسنات ومدخلها فى البلاغة والإعجاز القرآنى ، وذلك فى كتابنا : الفنون البديعية فليرجع إليه ص ٣٠ وما بعدها .

القرآني سلك مسالك الشعراء، وضرب في أوديتهم، فإبعاد القرآن الكريم عن هذه الشبهة يتطلب الوقوف على أوزان الشعر ومقاييسه وما يتعلق به.

يقول أحد الكاتبين مشيراً إلى عناية المسلمين بالقرآن الكريم وإعجازه، وأن هذه العناية امتدت لتشمل هذا الجانب: «اهتموا بفصاحته وإعجازه، فوضعوا علوم البلاغة من المعاني والبيان، ومن الطريف أن فريقاً درس العروض، لا ليقرض الشعر، ولكن ليثبت أن القرآن ليس بشعر»[1].

إذن لم يكن هم السكاكي من كل مباحث كتابه إلا أن يعرض الأدوات التي يقوم عليها أمر الإعجاز وتكشف عن مراد الله تعالى بكلامه. وهذا الأمر منه ما يعود إلى علم الصرف، ومنه ما يعود إلى علم النحو، ومنه ما يعود إلى المعاني والبيان، ومنه ما يعود إلى علم الشعر، لذا يجب التعرض لذلك كله.

يقول: «وشبه الجهلة فيما نحن بصدده مختلفة، فمن عائدة إلى علم الصرف ومن عائدة إلى علم النحو ومن عائدة إلى علم المعاني والبيان ومرجع ذلك كله إلى علم المنثور، وقد ضمن اطلاعك كتابنا هذا على تفاصيل الكلام هناك، ومن عائدة إلى علم المنظوم وهو علم الشعر، ونحن إلى الآن ما قضينا عن التعرض له الخيام[2]».

وقد سبقت الإشارة إلى ذلك، كما سبقت الإشارة إلى أن السكاكي يرد موقف هؤلاء الجهلة وطعنهم على القرآن الكريم إلى جهلهم بهذه العلوم، وعدم إلمامهم بقواعدها الأمر الذي حال بينهم وبين الذوق المدرك لأمر الإعجاز والوقوف على روعة بيانه ولطف أساليبه.

(١) من تصدير للأستاذ / محمد تقي القمي على مجمع البيان للطبرسي ١ / ١١.
(٢) مفتاح العلوم ص ٢١٧.

فالناظر فى صنيع السكاكى ومسلكه فى كتابه يجد أن الكتاب من أوله إلى آخره يدور حول قضية واحدة هى قضية الإعجاز، وأن السكاكى يدرك النهاية التى أرادها لكتابه عندما خط أول كلمة فيه. لذا فإن منهج السكاكى جاء منهجاً مترابطاً ، وجاء كتابه بناء متكاملا ، تتلاحم أجزاؤه، وتترابط كأنما أفرغت إفراغاً .

ولعل السكاكى أراد - من خلال كتابه - أن يضع الدليل على إعجاز القرآن الكريم لأصحاب الذوق وأصحاب المنطق كليهما ، وأن يكون ما أورده فى ثنايا كتابه مقنعا لكلا الفريقين بحيث لا يبقى حجة لهؤلاء وأولئك ، فأهل الذوق إذا تدربوا على القواعد المبثوثة فى ثنايا كتابه ، سواء ما يتصل منها بعلم الصرف أو النحو أو البلاغة لا شك ستتهذب أذواقهم وترق مشاعرهم فيدركوا أمر الإعجاز ، وأهل المنطق إذا فقهوا هذه القواعد مع ما يتبعه من علم الاستدلال ومباحثه، لاشك سيوقنون بأن أمر الاعجاز هو من جنس الفصاحة والبلاغة ، بعد أن يقتنعوا بإعجازه .

وقد أفصح السكاكى عن هذه الغاية ، وكشف عن هذا المنهج فى قوله :
« اعلم أن قارعى باب الاستدلال بعد الاتفاق على أنه معجز مختلفون فى وجه الاعجاز .

فنهم من يقول : وجه الإعجاز هو أنه عز سلطانه صرف المتحدين لمعارضة القرآن عن الاتيان بمثله بمشيئته لا أنها لم تكن مقدوراً عليها فيما بينهم فى نفس الأمر ، لكن لازم هذا القول كون المصروفين عن الإتيان بالمعارضة على التعجب من تعذر المعارضة ، لا من نظم القرآن بمثله ، إذا قال لك مدع شيئا حجتى فى دعواى هذا أنى أضع الساعة يدى على نحرى ويتعذر ذلك عليك ووجدت حجته صادقة فإن التعجب فى ذلك يكون منصرفاً إلى تعذر وضع يدك على النحر لا إلى وضع المدعي يده على نحره واللازم كما ليس يخفى منتف .

ومنهم من يقول : وجه الإعجاز وروده على أسلوب مبتدأ مباين لأساليب كلامهم فى خطبهم وأشعارهم لاسيما فى مطالع السور ومقاطع الآى مثل يؤمنون يعملون ، لكن ابتداء أسلوب لو كان يستلزم تعذر الاتيان بالمثل لاستلزم ابتداء أسلوب الخطبة أو الشعر ، إذ لا شبهة فى أنهما مبتدآن تعذر الاتيان بالمثل ، واللازم كما ترى منتف .

ومنهم من يقول : وجه إعجازه سلامته عن التناقض لكنه يستلزم كون كل كلام إذا سلم من التناقض ، وبلغ مقدار سورة من السور أن يعد معارضة واللازم بالاجماع منتف .

ومنهم من يقول : وجه الاعجاز الاشتمال على الغيوب لكنه يستلزم قصر التحدى على السور المشتملة على الغيوب دون ماسواها واللازم بالإجماع أيضا منتف .

فهذه أقوال أربعة يخمسها مايجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة ، ولا طريق لك إلى هذا الخامس إلا طول خدمة هذين العلمين بعد فضل الهى من هبة يهبها بحكمته من يشاء ، وهى النفس المستعدة لذلك ، فكل ميسر لما خلق له . »[1] .

ويظهر من الكلام السابق أن السكاكى لم ينكر على أهل النظر والمنطق اتفاقهم على أمر الإعجاز وإن اختلفوا فى وجهه إلا أن الوجه الذى يراه لما كان أمراً من جنس الفصاحة والبلاغة كان إدراكه بحاجة إلى أمر فوق التصور العقلى ، وهو شحذ البصيرة وتربية الذوق ، وهو أمر لايتأتى إلا لمن وهبه الله النفس المستعدة لهذا التدريب وتلك التربية ، وما عليه هو إلا أن يقدم الوسائل والأدوات التى تؤدى إلى تجلية البصيرة وتربية الذوق والتى أهمها علما المعانى والبيان .

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

إذن فإن السكاكى كان يسير فى اتجاهين ليصل إلى نتيجة واحدة هى الإعجاز القرآنى وأمر إعجازه من جهة نظمه وأسلوبه وبلاغته .

والاتجاه الأول يتمثل فى تربية الذوق عند من منحوا التوفيق إلى إنماء أذواقهم ، ليدركوا بحواسهم ومشاعرهم عظمة الأسلوب القرآنى وبلاغته المعجزة ، وهو فى سبيل ذلك عرض علوم الأدب ، دون علم اللغة . لتكون مفتاحاً للتوصل إلى كنه هذه العلوم ، بحيث يمكن من يتدرب على قواعدها فهم حقيقة الاعجاز ، والتعرف على مراد الله من كلامه .

وقد أكد السكاكى كثيراً على أهمية الذوق فى إدراك الاعجاز القرآنى ، فنجده يقول فى علم المعانى : « ليس من الواجب فى صناعة — ولئن كان المرجع فى أصولها وتفاريعها إلى مجرد العقل — أن يكون الدخيل فيها كالناشىء فى استفادة الذوق منها ، فكيف إذا كانت الصناعة مستندة إلى تحكمات وضعية واعتبارات إلفية ، فلا على الدخيل فى صناعة علم المعانى أن يقلد صاحبها فى بعض فتاواه إن فاته الذوق هناك إلى أن يتكامل له على مهل موجبات ذلك الذوق .

وكان شيخنا الحاتمى ذلك الإمام الذى لن تسمح بمثله الأدوار مادار الفلك الدوار تغمده الله برضوانه يحيلنا بحسن كثير من مستحسنات الكلام إذا راجعناه فيها على الذوق ونحن حينئذ ممن نبغ فى عدة شعب من علم الأدب ، وصبغ بها يده . وعانى فيها وكده وكده »[1] .

كما جرى على افتتاح أبواب الكتاب وفنونه — غالبا — بتوجيه النصح لمخاطبه ، حاثا له على قدح زناد عقله ، لافتاً إياه إلى مواطن البلاغة ، ومكمن الأسرار ليدرك أمر الإعجاز .

---

(١) المصدر السابق ٧٣ ، ٧٤ .

فتراه يستهل الفن الثانى الذى خصصه لأحوال المسند إليه بقوله : « لما تقرر أن مدار حسن الكلام وقبحه على انطباق تركيبه على مقتضى الحال ، وعلى لا انطباقه وجب عليك أيها الحريص على ازدياد فضلك المنتصب لاقتداح زناد عقلك المتفحص عن تفاصيل المزايا التى بها يقع التفاضل وينعقد بين البلغاء فى شأنها التسابق والتناضل أن ترجع إلى فكرك الصائب وذهنك الثاقب وخاطرك اليقظان وانتباهك العجيب الشأن ناظراً بنور عقلك وعين بصيرتك فى التصفح لمقتضيات الأحوال فى إيراد المسند إليه على كيفيات مختلفة وصور متنافية ، حتى يتأتى بروزه عندك لكل منزلة فى معرضها ، فهو الرهان الذى يجرب به الجياد ، والنضال الذى يعرف به الأيدى الشداد »[1].

وقد كان السكاكى واضحاً فى هـــذا الاتجاه ، فمن يتصفح كتابه يدرك ـ لأول وهلة ـ أن السكاكى رجل ذو بصر بصناعة الكلام ، مدرك لمواطن أسراره وبلاغته ، كما أنه يملك أدواته وأسلحته التى بها يعرف أمر الإعجاز ويتوصل بها إليه من طريق الذوق الذى يدرك الإعجاز إدراكا لا يمكن وصفه .

وهذا المعنى يؤكده الأستاذ أمين الخولى حينما يشير إلى أن السكاكى رفض القول بإمكان تعليل الإعجاز وبيان وجهه فيقول : « تصدى السكاكى لبيان بطلان ما يذكره مطلو الاعجاز من الأوجه ، وجهاً وجهاً ويقول بعد ردها كلها : فهذه أقوال أربعة يخمسها مايجده أصحاب الذوق من أن وجه الاعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة ، ولا طريق لك إلى هذا الخامس إلا طول خدمة هذين العلمين ، بعد فضل الهى من هبة يهبها بحكمته من يشاء ، وهى النفس المستعدة لذلك فكل ميسر لما خلق ، ولا استبعاد

---

(١) السابق ص ٧٦ .

فى إنكار هذا الوجه عن ليس معه مايطلع عليه ، فكم سحبنا الذيل فى إنكاره ، ثم ضممنا الذيل ، أن ننكره . فله الشكر على جزيل ما أولى ، وله الحمد فى الآخرة والأولى » ، ثم يقول الأستاذ الخولى : « فعلى هذا الوجه الذى اهتدى إليه السكاكى أخيراً - كما يقول : وضم الذيل ما أن ينكره - على هذا يكون طريق معرفة الاعجاز هو : تكوين الذوق الفنى والممارسة الأدبية للبلاغة ، على ماتقتضى به أصول التربية الفنية الصحيحة ، وبهذا الاعتبار يكون قصر البلاغة على بيان الاعجاز قصراً فنيا لا ضرر منه مطلقا عليها »[١] .

والسكاكى فى سبيل تربية الذوق المدرك لعظمة الأسلوب القرآنى وإعجازه كان يكثر من الشواهد القرآنية ، بل ربما يكتفى بالأمثلة القرآنية لفتا للأنظار إلى عظمة القرآن وإعجازه كما سبق أن أشرنا .

أما الاتجاه الثانى وهو ما خاطب به أهل المنطق فكان استدلالا على إعجاز القرآن بناء على أقيستهم وما ألفوه من قواعد الجدل والحوار ، ليصل فى النهاية معهم إلى أن إعجاز القرآن فى نظمه وبلاغته .

ولم يجعل السكاكى هذا الاتجاه بعيداً أو بمعزل عن الإتجاه الأول ، بل إنه ربط الإتجاهين ربطا لا نجده لغيره من علماء البلاغة والمهتمين بأمر الاعجاز ، فقد جعل علم الاستدلال جزءاً من علم المعانى[٢] ، كما جعله فى خدمة علم البيان ، وأن به يدرك أمر التشبيه أو الكناية أو الاستعارة .

وفى بيان وجه الربط بين علم الاستدلال وعلم البيان يطرح السكاكى

---

(١) البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) مفتاح العلوم ص ٢٠٨ .

هذا السؤال : كيف يسلك فى شأن متوخاه مسلك صاحب الاستدلال ، وأنى يعشو أحدهما إلى نار الآخر ؟ ؟ .

ويجيب السكاكى على هذا السؤال بقوله : « إذا كان حاصل الاستدلال عند رفع الحجب هو ما أنت تشاهد بنور البصيرة فوحقك إذا شبهت قائلا خدها وردة تصنع شيئا سوى أن تلزم الخد ما تعرفه يستلزم الحمرة الصافية، فيتوصل بذلك إلى وصف الخد بها ، أو هل إذا كنيت قائلا فلان جم الرماد تثبت شيئا غير أن تثبت بفلان كثرة الرماد المستتبعة للقرى توصلا بذلك إلى اتصاف فلان بالمضيافية عند سامعك ، أو هل إذا استعرت قائلا فى الحمام أسد تريد أن تبرز من هو فى الحمام فى معرض من سداه ولحمته شدة البطش وجراءته الإقدام مع كمال الهيئة ، فاعلا ذلك ليتسم فلان بهاتيك السمات ، أو هل تسلك إذا رمت سلب ما تقدم فقلت خدها باذنجانة سوداء ، أو قلت قدر فلان بيضاء ، أو قلت فى الحمام فراشة مسلكا غير إلزام المعاند بدل المستلزم ليتخذ ذريعة إلى السلب هنالك أرأيت والحال هذا أن ألقى إليك زمام الحكم ، أنجدك لا تستحى أن تحكم بغير ما حكمنا نحن أو تهجس فى ضميرك أنى يعشو صاحب التشبيه او الكناية أو الاستعارة إلى نار المستدل ما أبعد التمييز بمجرده أن يسوغ ذلك ، فضلا أن يسوغه العقل الكامل »[1] .

وقد جعل السكاكى خاتمة المفتاح فذلكة عرض فيها الأدلة القاطعة على أن القرآن الكريم معجز من جهة فصاحته وبلاغته ، فتعرض أولا لأمر الإعجاز فى محاولة لإقناع الخصم ورده عن غيه وضلاله . وتفنيد مزاعم المبطلين والمنكرين لأمره ، فبدأ بإرخاء العنان لخصومه وإلزامهم

---

(١) المصدر السابق ص ٣١٣ .

الحجة . فطلب منهم أن يقدروا أن محمداً ما كان نبيا وأن القرآن كلامه ، ورد عليهم بأنهم معترفون بأنه أفصح العرب . وأملكم لزمام الفصاحة والبلاغة غير مدافع ولا منازع وكلام مثله جدير أن يحمل عن الانتقاد ، ثم طلب منهم أن يقدروا أنه ما كان أفصح العرب ، وأنه كان كآحاد الأوساط قد تعمد ترويج كلامه أما كان عليه أن يهذب وينقح كما يفعل المروج ، خصوصاً أنه سيتلى على قوم أيقاظ متعظين ، لايبارون قوة ذكاء وإصابة حدس ، وحدة المعية وصدق فراسة ، وقد رووا أنه هذب ونقح وثقب لكن لم يفد ذلك ، أما كان فى تلاوته على قومه - وهم صناع الكلام وأرباب الفصاحة والبيان - نيفا وعشرين عاما دون أن يتنبه أحد لاختلاله أو نقص فيه أما كان هذا رادعاً لكم .

ثم يتنفس السكاكى الصعداء معرضا عن هؤلاء الطاعنين والمنكرين أمر الإعجاز قائلا « سبحان الحكيم الذى يسع بحكمته أن يخلق فى صور الأناسى بهائم أمثال الطامعين أن يطعنوا فى القرآن »[1].

ويرد السكاكى موقف هؤلاء وطعنهم على القرآن وبلاغته إلى جهلهم بعلوم الأدب ، فلو وقفوا على هذه العلوم ماقالوا ماقالوا .

ولم يكتف السكاكى ببيان ذلك على وجه الإجمال ، بل أخذ فى بيان أن المطاعن التى يوجهها هؤلاء إلى القرآن « لو نظرت إليها واحداً واحداً لرددت كلا منها إما إلى علم الصرف والاشتقاق أو النحو أوالمعانى أو البيان أو العروض أو القوافى مما بثه فى كتابه وجعله أدوات ترقى الذوق ويقوم عليها أمر الاعجاز .

ولئن بدا منهج السكاكى وكأنه منهج فلسفى فى عرض قضية الاعجاز،

(١) السابق ص ٢٤٤ .

إلا أن اهتمامه بالذوق والتطبيق وضرب الأمثلة يبدو أكثر وضوحاً في كل ما عرض له في الكتاب ، وإن كنا لا ننكر أثر المنطق والفلسفة وعلم الكلام فيما عرض له ، خصوصاً فيما يجادله الخصوم ، ودحض مزاعمهم حول القرآن وإعجازه .

ولم يكن السكاكي وحده صاحب هذه النزعة ، بل « كان أثر علم الكلام والمنطق واضحاً وضوحاً جليا في الكتب التي ألفت للذود عن القرآن الكريم ، ورد مطاعن الطاعنين ، وكان هذا طبيعيا بعد أن أخذ الزنادقة وغيرهم من الشعوبيين الحاقدين على العرب والاسلام يجادلون المسلمين جدلا يعتمد على الفلسفة وعلى الكلام والمنطق ، وكان لا بد أن يستعمل المنافحون عن القرآن أسلوب خصومهم نفسه ليردوا أقوالهم . ويفندوا آراءهم ويصونوا دستور المسلمين وعقيدتهم ، وتزخر الكتب المؤلفة في إعجاز القرآن بأمثلة كثيرة من استعانة مؤلفيها بالمنطق والفلسفة وعلم الكلام »[1].

هذا هو منهج أبي يعقوب في عرض قضية الإعجاز . وهو ـ كما ترى ـ منهج تقريري يعطى اهتماماً كبيراً للقاعدة ، ولا يغفل جانب التطبيق ، ضبطا للقاعدة وحثا للذوق ، كي يدرك إعجاز القرآن الكريم ويقف على أسراره ولطائفه وسمو أسلوبه ورفعة بلاغته ، وان كنا نجد أثر الفلسفة وعلم الكلام والمنطق في خدمة هذا الغرض ، دفاعاً عن القرآن وإعجازه ضد هؤلاء الزنادقة والشعوبيين ، ورداً لمطاعن أولئك الطاعنين .

✿ ✿ ✿

---

(١) البلاغة عند السكاكي ص ١٥٦ .

الفصل الثالث

نظم القرآن عند السكاكي

وفيه مدخل ومبحثان :

الأول : فكرة النظم عند السكاكي .

الثاني : تطبيقات السكاكي على النظم القرآني .

مدخـــل

إن كلمة « النظم » كثر تداولها وجريانها على ألسنة المتكلمين وأقلامهم في قضية « الإعجاز القرآني » حين برزت هذه القضية ، وجند العلماء أنفسهم للدفاع عن القرآن الكريم ضد الملاحدة والمشككين من الشعوبيين ، الذين ظهرت حركتهم أقوى ما تكون في أوائل العصر العباسي ، حين احتضنت الدولة العباسية الفرس ، وأنزلتهم منها أكرم منزل ، فظهر من هؤلاء الكثيرون من الطاعنين في القرآن وإعجازه ، من أمثال ابن المقفع ، وصالح بن عبد القدوس ، وأبان بن عبد الحميد وغيرهم ، ولم ينس هؤلاء وأضرابهم عقيدتهم المجوسية .

وقد كان الجاحظ من أوائل الذين تصدوا لقضية الإعجاز القرآني ، ولم يعجبه رأي أستاذه النظام القائل بالصرفة ، فذهب إلى أن إعجاز القرآن في نظمه ، وألف كتابه « نظم القرآن » الذي يعد ضمن النفائس المفقودة من تراثنا العلمي .

وإذا كان فقد الكتاب لم ييسر لنا قراءته ، لذا فإننا لا نعرف ماذا يعني بكلمة « النظم » في هذا الكتاب الذي يستدل به على أن إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه .

إلا أننا نستطيع أن نحدد رأيه في النظم من خلال كتبه الأخرى ، فتراه في رسائله يقول : « ان رجلا من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة — طويلة أو قصيرة — لتبين له في نظامها ومخرجها وفي لفظها وطبعها أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها ، وليس ذلك في الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين ،

ألا ترى أن الناس قد كان يتهيأ فى طباعهم ويجرى على ألسنتهم أن يقول رجل منهم : الحمد لله ، وإنا لله ، وعلى الله توكلنا ، وربنا الله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . وهذا كله فى القرآن ، غير أنه متفرق غير مجتمع ، ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة ، طويلة أو قصيرة ، على نظم القرآن وطبعه ، وتأليفه ومخرجه لما قدر عليه ، ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان »[1] .

فنظم القرآن — عنده — ليس فى أنه جاء على ألفاظ وكلمات لم تعهدها العرب ، فإن ألفاظ القرآن ألفاظ عربية يعرفها العرب على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم ، ولكن نظمه فى ضم كلماته بعضها إلى بعض على نسق خاص ، وبطريقة مخصوصة ، لا يقدر عليها البشر أجمعين .

نعم كان الشعر من الشواهد التى قامت عليها أصول هذه النظرية ، وكان الشعر أيضاً مجالا لتطبيقها ، وكانت مقياساً من مقاييس جودته ، ولكن المهم أن الذى دفع إلى الخوض فيها لم يكن هو الشعر ، ولم يكن هو النثر ، وإنما كان القرآن[2] .

ومن الشائع عند البلاغيين أن الإمام عبد القاهر هو صاحب هذه النظرية وأن نسبتها إليه ، إذ إنه هو الذى حدد مفهومها ، ووضع إطارها الدقيق ، وبسطها بسطاً وافياً فى كتابه « دلائل الإعجاز » .

والواقع أن هذه الفكرة لم يكن عبد القاهر مخترعاً لها ، وإن كان هو الذى بسط فيها القول ، وأقام على أساسها فلسفة كتابه ، فقد سبقه إليها

---

(١) رسائل الجاحظ ٣/٢٢٩ .

(٢) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ص ٨٨ .

أبو عبد الله محمد بن زيد الواسطى ، الذى ألف كتاباً سماه « إعجاز القرآن فى نظمه » .

كما ظهرت هذه الفكرة واضحة فى الصراع الذى أثاره امتزاج الثقافات وتعصب حملة اليونانية لفلسفة اليونان ومنطقهم ، ودفاع حملة العربية عن تراثهم وثقافتهم . ومنها الثقافة النحوية .

ومن مظاهر هذا الصراع تلك المناظرة الحادة التى قامت بين الحسن بن عبد الله المرزبانى المعروف بأبى سعيد السيرافى وبين أبى بشر متى بن يونس فى مجلس الوزير أبى الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات . وفى هذه المناظرة دافع أبو سعيد السيرافى عن النحو العربى ، وانتصر متى للمنطق اليونانى[1] .

كما رأينا جذور هذه النظرية عند الخطابى فيما سبقت الإشارة إليه . فقد ذكر أن الكلام يقوم بأشياء ثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم . وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه فى غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ، ولا أعزب من ألفاظه . ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً ، وأشد تلاؤماً وتشاكلا من نظمه[2] .

كما رأينا فيما سبق أيضاً وقوف القاضى عبدالجبار على معنى النظم ، وأن كثيراً من الباحثين يرجع إليه الفضل فى الكشف عنها وتفسيرها تفسيراً دقيقاً أفاد منه عبد القاهر الجرجانى كثيراً .

---

(١) انظر البيان العربى صـ ٢١٩ ، ٢٢٠ وانظر المناظرة فى معجم الأدباء ٨/١٩٠ وما بعدها .

(٢) إعجاز القرآن للخطابى صـ ٢٧ وما بعدها .

لكن النظر الدقيق والبحث المنصف يقولان إن الإمام عبد القاهر هو الذى استطاع أن يستلخص عناصر هذه القضية ، وأن يجمع أطرافها ويضع لها ضابطاً واضحا فليس النظم ـ عنده ـ إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التى رسمت لك ، فلا تخل بشىء منها[1] .

وفكرة النظم التى نادى بها عبدالقاهر تقوم على معرفة النحو، وماينشأ عن الكلمات حين تتغير مواضعها من المعانى المتجددة المختلفة ، فالألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذى يفتحها ، والأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها ، وهو المعيار الذى لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه ، والمقياس الذى لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه ، ولا ينكر ذلك إلا من ينكر حسه .

تلك هى حقيقة الأفكار التى استقاها عبد القاهر ممن سبقوه ، وصاغ منها كتابه « دلائل الإعجاز » فالنحو هو كل شىء ، ووضع الألفاظ وضعاً تمليه قواعده هو أساس المعنى الذى يدل عليه الموضع ، أو تعليق اللفظة باللفظة .

وإذا كان من الكاتبين من يرجع أصول هذه النظرية عند عبد القاهر إلى أرسطو ، فيزعم أن « مجهود ابن سينا ـ يعنى شرحه لكتابى الشعر والخطابة لأرسطو فى كتابه « الشفا » ـ لم يذهب هباء ، ولم يكن ليذهب عبثا ، فقد عرب كتاب الخطابة إذا صح هذا التعبير وجعله فى متناول الفكر العربى، وبذلك هيأ أسباب التوفيق بين البيانين ـ يعنى العربى واليونانى ـ

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ٦٤ .

اللذين عاشا متجاورين ، دون أن يتلاقيا ويتآلفا . وقد تحقق هذا التوفيق فى القرن الخامس على يد عبد القاهر الجرجانى ، فقد صنف كتابين يعتبران - بحق - أنفس ما كتب فى البيان العربى ، هما : أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز »(١)

فإننا إذ نوافق الكاتب على أن كتابى عبد القاهر من النفاسة بحيث يعدان من أم كتب التراث البلاغى ، إلا أننا نختلف معه فى الأصل الذى استقى منه فكره البلاغى ، وبنى عليه نظريته فى النظم ، وفى ربطها بالمعانى النحوية .

ومن يتتبع الأفكار التى صاغ منها عبد القاهر ، وينظر فى الجهود التى قدمها الجاحظ والواسطى وأبو سعيد السيرافى ، وكذا الخطابى والقاضى عبد الجبار وغيرهم من أعلام المتقدمين يدرك أن الإمام عبد القاهر استقى أصول نظريته من جهود هؤلاء ، وأنه لم يقدم هذه النظرية واضحة المعالم محددة الجنبات إلا بعد أن عايش هؤلاء وتربى على موائدهم .

ثم يشرح الإمام عبد القاهر هذه القضية بما ساقه من فصول ومسائل كمسائل التقديم والتأخير والحذف ، والفصل والوصل ، وفروق فى الخبر والتشبيه والاستعارة والكناية ، وغير ذلك مدللا عليها ومستشهداً لها بما ورد فى القرآن الكريم وروائع الأدب شعره ونثره ، ليثبت من خلال ذلك أن مرجع الإعجاز القرآنى هو النظم ليس إلا .

وقد استمد العلامة الزمخشرى فهمه للنظم مما ذكره عبد القاهر الذى تعتبر جهوده تلخيصاً مركزاً لجهود من سبقه ، فنظم الكلام - كما يتصوره الزمخشرى - يعنى بيان الروابط والعلاقات بين الجمل ، وكيف يدعو الكلام

---

(١) مقدمة نقد النثر ص ٢٨ وما بعدها .

بعضه بعضاً ، وكيف يأخذ بعضه بحجزة بعض ، كما يبرز النظم الأسرار والنكت في أسلوب القرآن ، ويكشف الفروق الدقيقة بين خصوصيات التراكيب ، ويربط هذه الخصوصيات بالسياق والغرض العام .

كما يعنى نظم الكلام عند الزمخشري تأليفه وتركيبه بطريقة مخصوصة وسداد النظم يكون بمراعاة الأصول الفنية في هذا النظم أو التأليف ، ومراعاة أحوال النفس ، وتطبيق الكلام على هذه الأحوال .

والنظم عند الزمخشري ليس وصفاً لجمل الكلام وما بينها من ترتيب أو ترابط فحسب ، بل إنه يجيء وصفاً لبناء الجملتين أو الجملة الواحدة ، فينظر في نظم الجملة ، أعنى ترتيب كلماتها وما يفيده هذا الترتيب ، ويكشف عن مطابقته لقصد المتكلم وإحاطته بدقيق خواطره وتصويره لخلجات نفسه[1] .

تلك - بإيجاز - نظرة سريعة على معنى النظم قبل أبي يعقوب السكاكي . ومن خلال هذه النظرة يتبين - بجلاء - أن هذه النظرية قد تحدد إطارها ووضح معناها ، ونضجت أركانها قبل أبي يعقوب ، ووجدناها مستوية واضحة عند الإمام عبدالقاهر الذي لم شتاتها وجمع ماتفرق منها ، كما وجدناها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بكتاب - تعالى - وبيان روعته وإعجازه في ذلك الدرس للتطبيق الذي قدمه الزمخشري في كشافه .

● ● ●

---

(١) انظر البلاغة القرآنية صـ ١٨٨ وما بعدها بتصرف .

المبحث الأول

فكرة النظم عند السكاكى

رأينا ـ فيما سبق ـ أن الوجه الذى آمن به أبو يعقوب ، ورآه المرجع الأساس فى الإعجاز هو ما اشتمل عليه النظم القرآنى من ألوان البلاغة وفنون الفصاحة ، كما رأينا أن فكرة النظم قبله ـ والتى استقرت أصولها ومباحثها عند الإمام عبد القاهر ـ تقوم على معرفة النحو وما ينشأ عن الكلمات حين تتغير مواضعها من المعانى المختلفة المتجددة .

وقد أخذ السكاكى أصول هذه النظرية والأسس التى قامت عليها وأقام منها بناء كاملا لعلم من علوم البلاغة هو « علم المعانى » إلى جانب ما أفاده من المتكلمين والأصوليين واللغويين وجهودهم حول هذه النظرية ، ولكن الذى لامراء فيه أن السكاكى صاغ هذه النظرية بروح قريبة إلى عصره الذى تشبع بروح المنطق والفلسفة .

وعلم المعانى الذى أقامه السكاكى لدراسة الأحوال والهيئات التى تعرض للكلام ، تحقيقا لتطبيقه على مقتضيات الأحوال والمقامات جعله لوضع هذه النظرية فى قالب قاعدى ، واضح المعالم محدد الأركان ، وليست « المعانى » عنده ـ والتى خصص لها علما مستقلا ـ إلا معانى النحو وأحكامه ، أو النظم الذى شرحه عبد القاهر وأبان سبله .

فالأساس الذى أقام عليه علم المعانى أوضحه فى تعريفه لهذا العلم ، وهو : تتبع خواص تراكيب الكلام فى الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ فى تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره » وأوضح أنه يعنى بتراكيب الكلام الصادرة عمن له فضل تمييز

معرفة . وهي تراكيب البلغاء ، لا الصادرة عمن سواهم ، لنزولها في صناعة البلاغة منزلة أصوات حيوانات تصدر عن محالها بحسب ما يتفق . كما أنه يعني بخاصة التراكيب ما يسبق إلى الفهم عند سماع ذلك التركيب . جاريا مجرى اللازم له ، لكونه صادراً عن البليغ لا لنفس ذلك التركيب من حيث هو هو ، أو لازما له لما هو هو حيناً . والمقصود بالفهم فهم ذي الفطرة السليمة ، مثل ما يسبق إلى فهمك من تركيب إن زيداً منطلق إذا سمعته عن العارف بصناعة الكلام من أن يكون مقصوداً به نفي الشك أو رد الإنكار ، أو من تركيب زيد منطلق من أنه يلزم مجرد القصد إلى الإخبار، أو من نحو منطلق بترك المسند إليه من أنه يلزم أن يكون المطلوب به وجه الاختصار مع إفادة لطيفة ، مما يلوح بها مقامها ، وكذا إذا لفظ بالمسند إليه . وهكذا إذا عرف أو نكر أو قيد أو أطلق أو قدم أو أخر على ما يطلعك جميع ذلك »[1] .

فهذا العلم موضوعه خواص التراكيب ، والفروق الدقيقة التي تراعى عند تأليف الكلام ، من ذكر وحذف وتقديم وتأخير وتعريف وتنكير وفصل ووصل إلى غير ذلك من الهيئات التي تعرض للكلام تأدية للأغراض المختلفة ، ووصولا إلى الاحتراز عن الخطأ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال .

ومن المعلوم أن النظم عند عبدالقاهر ليس إلا أن تضع كلامك الوضع الذى تقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها[2].

---

(١) مفتاح العلوم ص ٧٠ .
(٢) انظر دلائل الإعجاز ص ٦٤ .

هذا هو السبيل فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ، ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معانى النحو قد أصيب به موضعه ، ووضع فى حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه ، واستعمل فى غير ما ينبغى له ، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده ، أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة ، وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معانى النحو وأحكامه ، ووجدته يدخل فى أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه(١).

فالنظم هو تتبع معانى النحو وأحكامه عند عبد القاهر ، وهذا المعنى لا يبعد عنه كثيرا ما أراده السكاكى من علم المعانى ، بل إنه يكاد أن يطابقه ويوافقه .

وإذا كان عبد القاهر لا يقصد بالنحو معناه الضيق بحيث يجعل الصحة التى تنشأ عن قواعد النحو والإعراب هى كل شىء فى النظم الأدبى فإن أبا يعقوب السكاكى يرى الصلة الوثيقة بين النحو وأحكامه ، وما ينتج عن هذه الأحكام من معان ووشائج وصلات ، فلم يقف فهمه للنحو عند حد الصحة التركيبية والصحة الإعرابية .

لقد كان تعريف السكاكى للنحو كاشفا عن هذه الصلة القوية التى يراها بين قواعد النحو ومعانيه . فيقول فى تعريفه : « اعلم أن علم النحو هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقا بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب وقوانين مبنية عليها ليحترز بها عن الخطأ فى التركيب من حيث تلك الكيفية » ثم قال : « وأعنى بكيفية التركيب تقديم بعض الكلم على بعض ، ورعاية ما يكون من الهيئات إذ ذاك ، وبالكلم نوعيها

---

(١) المصدر السابق ص ٦٥ .

المفردة وما هى فى حكمها »(١).

فمهمة النحو عنده تكمن فى الاحتراز عن الخطأ فى التركيب من حيث التقديم والتأخير ورعاية الهيئات التى يكون عليها الكلام .

فالسكاكى تجاوز بالنحو هذه المهمة الضيقة فى حدود الإعراب وضبط أواخر الكلمات إلى المعانى النحوية وعناصر الحسن والجمال التى يحويها الأدب ، ويحرص عليها صناع الكلام ، كالتقديم والتأخير وغيرهما من الهيئات المخصوصة .

وتظهر الصلة الوثيقة بين النحو والمعانى عند السكاكى ، وأن كلا منهما يرتبط بالآخر ارتباطاً قوياً عند حديثه عن الحالات المقتضية لترك الفعل وحـــذفه ، وأن منها أن يقع الكلام جواباً لسؤال مقدر ; ويستشهد ببيت الكتاب :

ليبك يزيد ضارع لخصومة

وقراءة من قرأ « يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال » ، « وكذلك يوحى إليك ربك » ، ببناء الفعل للمفعول فى البيت والآيتين .

ثم يقول : « هذا التركيب متى وقع موقعه رفع شأن الكلام فى باب البلاغة إلى حيث يناطح السماك ، وموقعه أن يصل من بليغ عالم بجهات البلاغة بصير بمقتضيات الأحوال ساحر فى اقتضاب الكلام ، ماهر فى أفانين السحر الى بليغ مثله مطلع من كل تركيب على حاق معناه ونصوص مستتبعاته ، فإن جوهر الكلام البليغ مثله مثل الدرة الثمينة لا ترى درجتها تعلو ولا قيمتها تغلو ولا تشترى بثمنها ولا تجرى فى مساومتها على سننها

---

(١) مفتاح العلوم ص ٣٣ .

ما لم يكن للمستخرج لها بصيراً بشأنها ، والراغب فيها خبيراً بمكانها ، وثمن الكلام أن يوفى من أبلغ الإصغاء وأحسن الاستماع حقه وأن يتلقى من القبول له والاهتزاز بأكمل ما استحقه ، ولا يقع ذلك ما لم يكن السامع عالما بجهات حسن الكلام ومعتقداً بأن المتكلم تعمدها في تركيبه للكلام عن علم منه فإن السامع إذا جهلها لم يميز بينه وبين ما دونه وربما أنكره ، وكذلك إذا أساء بالمتكلم اعتقاده ربما نسبه في تركيبه ذاك إلى الخطأ وأنزل كلامه منزلة ما يليق به من الدرجة ، النازلة ومما يشهد لك بهذا ما يروى عن علي — رضي الله عنه — أنه كان يشيع جنازة فقال له قائل : من المتوفي؟ — بلفظ اسم الفاعل — سائلا عن المتوفى ، فلم يقل فلان ، بل قال : الله ، رداً لكلامه عليه مخطئاً إياه منبهاً له بذلك على أنه كان يجب أن يقول : من المتوفى ؟ — بلفظ اسم المفعول — ويقال إن هذا الواقع كان أحد الأسباب التي دعته إلى استخراج علم النحو فأمر أبا الأسود الدؤلي بذلك ، فهو أول أئمة علم النحو رضوان الله عليهم أجمعين وما فعل ذلك — كرم الله وجهه — إلا لأنه عرف من السائل أنه ما أورد لفظ المتوفي على الوجه الذي يكسوه جزالة في المعنى وفخامة في الإيراد ، وهو وجه القراءة المنسوبة إليه « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا » — بلفظ بناء الفعل للفاعل من إرادته معنى « والذين يستوفون مدد أعمارهم » وإذا عرفت هذا فنقول في التركيب الذي نحن فيه من مثل : يكتب القرآن لي زيد ، مع بناء الفعل للمفعول جهات للحسن ومزايا يتلوها عليك ليكون لك ذريعة إلى درك ما سواها إذا شحذنا بها بصيرتك »[1] .

فارتفاع شأن الكلام في باب البلاغة ووقوفه فيها إلى حيث يناطح السحاب بمراعاة النحو وأحكامه ، ووقوع ذلك الكلام موقعه ، كما أن

(١) المصدر السابق ص ٩٨ .

تجاهل هذه الأحكام وتجنبها يوقع فى الخطأ ويخرج الكلام من دائرة البلاغة .

وللكشف عن صلة النحو بالمعانى ، يبين السكاكى أن ما وقع فى حديث فرعون وموسى من خلط بين السؤال والجواب ، وما كان من استهزاء فرعون ونسبته الجنون إلى موسى عليه السلام مرده إلى النحو وأحكامه .

« فلكون « ما » للسؤال عن الجنس وللسؤال عن الوصف وقع بين فرعون وبين موسى ما وقع ، لأن فرعون حين كان جاهلا بالله معتقداً أن لا موجود مستقبلا بنفسه سوى أجناس الأجسام اعتقاد كل جاهل لا نظر له ، ثم سمع موسى قال : أنا رسول رب العالمين سأل بما عن الجنس سؤال مثله ، فقال : وما رب العالمين ، كأنه قال : أى أجناس الأجسام هو ، وحين كان موسى عالما بالله أجاب عن الوصف تنبيها على النظر المؤدى إلى العلم بحقيقته الممتازة عن حقائق الممكنات ، فلما لم يتطابق السؤال والجواب عند فرعون الجاهل عجب من حوله من جماعة الجهلة فقال لهم: ألا تسمعون ، ثم استهزأ بموسى وجننه فقال : إن رسولكم الذى أرسل لكم لمجنون وحين لم يرهم موسى يفطنون لما نبههم عليه فى الكرتين من فساد مسألتهم الحمقاء واستماع جوابه الحكيم غلظ فى الثالثة ، فقال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون »[1] .

وعلى الرغم من الصلة الوثيقة بين النحو والمعانى التى نرى السكاكى حريصاً عليها وملفتا الأنظار إليها فإننا نراه قد فصل فى دراسته بين النحو والمعانى ، وتناول كلا منهما فى درس مستقل .

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٤ .

« ولو وقف السكاكي عند النحو مبيناً إعرابه وترتيبه ، وما يحصل من معان عند التركيب والنظم لكان خيراً لنا وله ، ولأفاد اللغة العربية - ولا سيما النحو - فائدة كبيرة ، كما أفاد الشيخ عبد القاهر . ولو عالج الفنون التي سماها - علم المعاني - بأسلوب أدبي واكتفى بذكر النكت البلاغية التي تحدث من التقديم أو التأخير ، والحذف أو الذكر ، والفصل أو الوصل وغيرها لكان أجدى وأكثر نفعاً ، ولكنه اضطرب بين النحو والمعاني ، وسيطرت على تفكيره النزعة النحوية المحضة ، فجاءت مباحثه جامدة ، ليس فيها من الروعة إلا اليسير[1] .

وكثيراً ما نراه وهو يتحدث عن النحو في قسمه الخاص به لا ينسى أنه يتحدث عن المعاني وأحوالها وموافقتها للمقاصد والأغراض ، فيذكر أنه « سيفصل القول في بعض مسائلها عندما يصل إلى علم المعاني » كأن يقول : « وسيطلعك على أمثال هذه المعاني علم المعاني » وقوله : « وبسط الكلام في معاني هذه الأسماء موضعه علم المعاني » وغير ذلك من العبارات التي تدل على أنه لم يتمكن من فصل النحو عن المعاني ، وأن الصلة بينهما كانت من القوة بحيث أدت إلى هذا الاضطراب .

كما أنه في دراسته للمعاني طغت عليه عقليته النحوية والصرفية ، فلم يكشف عن المعاني الخاصة التي يؤديها التقديم والتأخير والحذف والذكر وغيرها من مسائل النظم ، كما كشف عنها الإمام عبد القاهر ، وإن كنا لا نعدم عنده كثيراً من الإشارات التي تنبض بالحياة ، وتدل على روحه الأدبي الأخاذ .

فالسكاكي — على الرغم من هذا الفصل بين النحو والمعاني — لم ييأس

---

(١) البلاغة عند السكاكي ص ٢٨٥ .

أنهما يشتركان ويتعانقان فى تأدية المعانى والأغراض وفى الاحتراز عن الخطأ فى التراكيب ، وفى تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره ، وإن كان أحدهما ينظر إلى جهة الإعراب ، والثانى ينظر من جهة البلاغة والمطابقة لمقتضى الحال والمقام .

وقد أحسن القدماء تكلفاً فى فصل النحو عن المعانى ، ومع ذلك فقد أقر معظمهم هذا الفصل وتناولوا كلا منهما فى درس مستقل .

فهذا يحيى بن حمزة العلوى صاحب الطراز يقول : « إن النحوى وصاحب علم المعانى وإن اشتركا فى تعلقهما بالألفاظ المركبة ، لكن نظر أحدهما مخالف لنظر الآخر ، فالنحوى ينظر فى التركيب من أجل تحصيل الإعراب كمال الفائدة ، وصاحب علم المعانى ينظر فى دلالته الخاصة ، وهو ما يحصل عند التركيب من بلاغة المعانى وبلوغها أقصى المراتب » . ثم ضرب مثلا لذلك بقوله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة » قائلا : « فنظر النحوى من جهة رفع المبتدأ وتقديم خبره عليه وتنكير المبتدأ وتوسيط الظرف إلى غير ذلك من الأحوال الإعرابية ، ونظر صاحب المعانى من جهة بلاغتها وتأدية المعنى المقصود منها على أوفى ما يكون وأعلاه . وهذا هو المراد من البلاغة فقد افترقا مع اشتراكهما فى تعليقهما بالتركيب »[1] .

وعلم النظم أو علم المعانى عند السكاكى يعنى البحث عن فائدة كل كلمة فى التركيب وجهة موقعها من البناء الأدبى وربط ذلك كله بالأحوال والمقامات .

فنجده فى توضيح المعانى فى قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك

---

(١) انظر الطراز ١/١٧ ، ١٨ .

ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين ، يقول : « وأما النظر فيها من حيث علم المعانى ، وهو النظر فى فائدة كل كلمه منها وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها فذلك أنه اختار « يا » دون سائر أخواتها لكونها أكثر فى الاستعمال ، وأنها دالة على بعد المنادى الذى يستدعيه مقـــام إظهار العظمة وإبداء شأن العزة والجبروت ، وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به ، ولم يقل يا أرض بالكسر لإمداد التهاون ، ولم يقل يا أيتها الأرض لقصد الاختصار مع الاحتراز عما فى أيتها من تكلف التنبيه غير المناسب بالمقام ، واختير لفظ « الأرض » دون سائر أسمائها لكونه أخف وأدور ، واختير لفظ « السماء » لمثل ما تقدم فى الأرض مع قصد المطابقة ، واختير لفظ « ابلعى » على ابتلعى لكونه أخصر ، ولمجيء خط التجانس بينه وبين اقلعى أوفر وقيل « ماءك » بالافراد دون الجمع لما كان فى الجمع من صورة الاستكثار المتأبى عنها مقام إظهار الكبرياء والجبروت ، وهو الوجه فى إفراد الأرض والسماء ، وإنما لم يقل ابلعى — بدون المفعول — أن لا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار ، وساكنات الماء بأسرهن نظراً إلى مقام ورود الأمر الذى هو مقام عظمة وكبرياء . ثم إذا بين المراد اختصر الكلام مع اقلعى احترازاً عن الحشو المستغنى عنه وهو الوجه فى أن لم يقل قيل يا أرض ابلعى ماءك فبلعت ويا سماء أقلعى فاقلعت واختير « غيض » على غيض المشدد لكونه أخصر ، وقيل الماء دون أن يقال ماء طوفان السماء ، وكذا الأمر دون أن يقال أمر نوح ، وهو إنجاز ما كان الله وعد نوحاً من إهلاك قومه لقصد الاختصار والاستغناء بحرف التعريف عن ذلك ، ولم يقل سويت على الجودى بمعنى أقرت على نحو قيل وغيض وقضى فى البناء للمفعول اعتباراً لبناء الفعل للفاعل مع السفينة فى قوله « وهى تجرى بهم فى موج كالجبال » مع قصد الاختصار فى

اللفظ ، ثم قيل بعداً للقوم دون أن يقال ليبعد القوم طلباً للتأكيد مع الاختصار ، وهو نزول بعداً منزلة ليبعدوا بعداً مع فائدة أخرى وهو استعمال اللام مع بعداً الدال على معنى أن البعد حق لهم ، ثم أطلق الظلم ليتناول كل نوع حتى يدخل فيه ظلمهم أنفسهم لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم فى تكذيب الرسل »[1] .

فالنظر فى ملاءمة الكلمة لموقعها ، ووضع كل نوع من الألفاظ موضعه داخل فى مفهوم النظم عند السكاكى ، إذ أن البصر بمواقع الكلمات من أدق المباحث وأخفاها ، والكلمة القرآنية لها فى موقعها دلالة خاصة ترتبط بالأحوال والمقامات التى وردت فيها الآيات القرآنية .

وعناية السكاكى بالكلمة بعد دخولها فى التأليف والنظم ، ومدى إقامتها للمعانى والأغراض المنوطة بالتركيب . هذه العناية لم تنسه أهمية النظر فى الكلمة المفردة قبل دخولها فى التأليف ، إذ أن مثارات الخطأ — عنده — ثلاثة : المفرد ، والتأليف ، وكون المركب مطابقاً لما يجب أن يتكلم له .

وللاحتراز عن الخطأ فى المفردات خصص لها قسماً خاصاً هو علم الصرف ، وعنى به « تتبع اعتبارات الواضع فى وضعه من جهة المناسبات والأقيسة » ثم قال : « ونعنى بالاعتبارات وافرضها إلى أن تتحقق أنه أولا جنس المعانى ، ثم قصد لجنس جنس منها معيناً بإزاء كل من ذلك طائفة من الحروف ثم قصد لتنويع الأجناس شيئاً فشيئاً متصرفاً فى تلك الطوائف بالتقديم والتأخير والزيادة فيها بعد أو النقصان منها عما هو

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

كاللازم للتنويع ، وتكثير الأمثلة ومن التبديل لبعض تلك الحروف لغيره لعارض »[١] .

وعلم المعانى الباحث عن النظم ووسائله هو الذى يبرز الأسرار والنكت فى أسلوب القرآن الكريم ، وتتبع الفروق المعنوية الدقيقة ويكشفها ويبين خصوصيات التراكيب ، ويربط ذلك كله بالسياق والغرض العام .

ومن تتبع أبواب علم المعانى عند السكاكى يجد بحوثاً مستفيضة فى جلاء الأسرار والنكت لخواص التراكيب القرآنية وما اشتملت عليه من دقيق المعانى جاءت مرتبطة بالمقام ارتباطاً معجزاً .

ففى حديثه عن أضرب الخبر يبين تقسيمه إلى أحواله الثلاث : ابتدائى وطلبى وإنكارى ، تنزيلا للكلام على مقتضى ظاهر الحال والمقام ، ثم يقول : « وإن شئت فتأمل كلام رب العزة علت كلمته : إذا أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون . قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . حيث قال أولا إنا إليكم مرسلون وقال ثانيا إنا إليكم لمرسلون كيف يقرر ما ألقى إليك »[٢] .

ثم إنك ترى المفلقين السحرة فى هذا الفن ينفثون الكلام لا على مقتضى الظاهر ، وإن شئت فعليك بكلام رب العزة ، وفى التنزيل : « ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون » وكذا وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء ، وكذا وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ، وكذا يا أيها الناس اتقوا

---

(١) المصدر السابق صـ ٤ .

(٢) المصدر السابق صـ ٧٤ .

ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم . وأمثال ذلك كثيرة »[1] .

وهكذا فى كل باب من أبواب علم المعانى يكشف ماينطوى عليه النظم القرآنى من روعة ، وما يحويه من أسرار ولطائف ويربط ذلك كله بالمقامات والأحوال .

ولكى يستبين الأمر بجلاء أسوق طائفة من الأمثلة توضح مسلكه وفهمه للنظم القرآن ، وربطه إياه بدقائق المعانى والأحوال والمقامات التى تكشف عظمة ذلك النظم وإعجازه .

فنى بيان الجملة الاسمية والفعلية وما بينهما من تفاوت وفروق يوضح ما ينطوى عليه النظم القرآنى من دقة ، حيث تكون الجملة فعلية عند إرادة التجدد والتغير ، واسمية إذا أريد خلاف ذلك ، فيقول : « وما تسمع من تفاوت الجملتين الفعلية والاسمية تجدداً وثبوتاً هو يطلعك على أنه حين ادعى المنافقون الإيمان بقولهم آمنا بالله وباليوم الآخر جائين به جملة فعلية على معنى أحدثنا الدخول فى الإيمان وأعرضنا عن الكفر ليروج ذلك عنهم كيف طبق المفصل فى رد دعواهم الكاذبة فى قوله تعالى « وماهم بمؤمنين » حيث جيء به جملة اسمية ، ومع الباء وعلى تفاوت كلام المنافقين مع المؤمنين ومع شياطينهم فيما يحكيه جل وعلا عنهم ، وهو وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم تفاوتاً إلى جملة فعلية وهى آمنا وإلى اسمية ومع ان وهى إنا معكم كيف أصاب شاكلة الرمى ، وعلى أن ابراهيم حين أجاب الملائكة عن قولهم له سلاماً بالنصب بقوله لهم سلام بالرفع كيف كان عاملا بالذى يتلى عليك فى القرآن المجيد من قوله : وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها »[2] .

---

(١) السابق ص ٧٥ .　　(٢) السابق ص ٩٤ ، ٩٥ .

وفى بيان إفادة التخصيص من تقديم المسند إليه بعد إيلائه حرف النفى يكشف النكتة الداعية إلى هذا التقديم ومدخلها فى الغرض العام للآية ، كما يوضح ربط الجمل بعضها ببعض بناء على هذه النكتة .

فيقول : « ومنه ما يحكيه علت كلمته عن قوم شعيب وما أنت علينا بعزيز ، أى العزيز علينا يا شعيب رهطك لا أنت لكونهم من أهل ديننا ، ولذلك قال عليه السلام فى جوابهم ؛ أرهطى أعز عليكم من الله ، أى من نبى الله ، ولو أنهم كانوا قالوا وما عززت علينا لم يصح هذا الجواب ، ولا طابق [1] » .

ثم يوضح السكاكى الصلة بين التخصيص والتقديم ، مبينا أن هذه الصلة جاءت كأروع ما تكون فى الأسلوب القرآنى المعجز ، وصلة ذلك بالمقام .

فيقول « والتخصيص لازم للتقديم ، ولذلك تسمع أئمة علم المعانى فى معنى إياك نعبد وإياك نستعين يقولون : نخصك بالعبادة لا نعبد غيرك ونخصك بالاستعانة منك لا نستعين أحداً سواك ، وفى معنى إن كنتم إياه تعبدون يقولون : إن كنتم تخصونه بالعبادة ، وفى معنى قوله وبالآخرة هم يوقنون تذهب إلى أنه تعريض بأن الآخرة التى عليها أهل الكتاب فيما يقولون أنها لا يدخل الجنة فيها إلا من كان هوداً أو نصارى وأنها لا تمسهم النار فيها إلا أياما معدودات ، وأن أهل الجنة فيها لا يتلذذون فى الجنة إلا بالنسيم والأرواح العبقة والسماع اللذيذ ليست بالآخرة وإيقانهم بمثلها ليس من الإيقان بالتى هى الآخرة عند الله فى شىء [2] » .

---

(١) السابق ص ١٠٠ .

(١) السابق ص ١٠١ .

وفى باب الفصل والوصل يبين كثيراً من أسرار هذا الباب ولطائفه فى آيات الذكر الحكيم ، من ذلك بيانه سر الفصل فى قوله تعالى : « وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا انا معكم إنما نحن مستهزؤون » .

يقول . « لم يعطف الله يستهزىء بهم للمانع عن العطف ، بيان ذلك أنه لو عطف لكان المعطوف عليه إما جملة قالوا وإما جملة إنا معكم انما نحن مستهزؤون ، لكن لو عطف على انما نحن مستهزؤون لشاركه فى حكمه وهو كونه من قولهم ، وليس هو بمراد ، ولو عطف على قالوا لشاركه فى اختصاصه بالظرف المقدم وهو اذا خلوا الى شياطينهم لما عرفت فى فصل التقديم والتأخير وليس هو بمراد فان استهزاء الله بهم وهو أن خذلهم نخلاهم وما سولت لهم أنفسهم مستدرجاً إياهم من حيث لا يشعرون متصل فى شأنهم لا ينقطع بكل حال خلوا إلى شياطينهم أم لم يخلوا إليهم »[1] .

وفى حديثه عن الإيجاز والإطناب يبين أن كلا من اللونين جاء فى الأساليب القرآنية مشتملين على الكثير من اللطائف ، كما أن كلا منهما جاء فى موضع بحيث لا يمكن وضع أحدهما موضع الآخر ولا يؤدى معناه ، فارتباط كل منهما بالمقامات والأحوال ارتباط يحسه من له ذوق ومن له أدنى بصر بصناعة الكلام .

« ومن أمثلة الإطناب قوله : إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ترك

---

(١) السابق ص ١١٤ .

إيجازه ، وهو أن فى ترجح وقوع أى ممكن كان على لا قوعه لآيات العقلاء ، لكونه كلاما لا مع الإنس فحسب ، بل مع الثقلين ولا مع قرن دون قرن ، بل مع القرون كلهم قرنا فقرنا إلى انقراض الدنيا ، وإن فيهم لمن يعرف ويقدر من مرتكبى التقصير فى باب النظر والعلم بالصانع من طوائف الغواة ، فقل لى أى مقام للكلام ادعى لنترك إيجازه إلى الإطناب من هذا [1] » .

والسكاكى فى بحثه عن الأسرار والنكت فى أسلوب القرآن المعجز كثيرا ما ينبه إلى الظواهر العامة التى يجمعها نظام واحد فى القرآن الكريم مشيرا إلى أن تتبع هذه الظاهرة فى القرآن كله أمر يصعب على أمثاله . لذا فإنه يكتفى ببعض الأمثلة

فتراه فى تقديم المفعول للاهتمام مع رعاية بعض الأمور العارضة يشير الى الاعتبارات اللطيفة التى جاء عليها النظم القرآنى فى ايراد المعنى الواحد على أنحاء مختلفة بحسب المقامات والأحوال ، فيقول . « ولله در التنزيل واحاطته على لطائف الاعتبارات فى ايراد المعنى على انحاء مختلفة بحسب مقتضيات الأحوال ، ولا ترى شيئا منها يراعى فى كلام البلغاء من وجه لطيف الا عثرت عليه مراعى فيه من ألطف وجوه ، وأنا ألقى اليك من القرآن عدة أمثلة مما نحن فيه لتستضىء بها فيما عسى يظلم عليك من نظائرها اذا احببت أن تتخذها مسارح نظرك ومطارح فكرك ، منها أن قال عز من قائل فى سورة القصص فى قصة موسى « وجاء رجل من أقصى المدينة » فذكر المجرور بعد الفاعل وهو موضعه ، وقال فى يس فى قصة رسل عيسى عليه السلام « وجاء من أقصى المدينة » فقدم لما كان أهم ، يبين ذلك أنه

---

(١) السابق ص ١٢٢ .

حين أخذ فى قصة الرسل اشتمل الكلام على سوء معاملة أصحاب القرية والرسل أنهم أصروا على تكذيبه ، وانهمكوا فى غوايتهم مستشرين على باطلهم ، فكان مظنة أن يلمن السامع على مجرى العادة تلك القرية قائلا : ما أنكدها تربة ، وما أسوأها منبتا ، ويبقى مجيلا فى فكره أكانت تلك للدوة بحافاتها كذلك ، أم كان هناك قطر دان أو قاص منبت خير منتظر المساق الحديث هل يلم بذكره، فكان لهذا العارض مهما فكما جاز موضع له صالح ذكر بخلاف قصة موسى [1] » .

وبعد أن يسوق عدة أمثلة قرآنية أخرى يقول : « ولنقتصر من الأمثلة على ماذكرنا فما كان الغرض الا مجرد التنبيه ، دون التتبع لنظائرها فى القرآن وتفصيل القول فيها [2] » .

والسكاكى فى توضيحه المقامات والأحوال التى جاء عليها النسق القرآنى يحرص على أن يجسد الصلة بين هذه الأحوال ومقتضياتها ، وأن يبين أن تلك الوشائج والصلات يدركها من له فطرة سليمة وذوق بمواطن الكلام وأسراره .

ففى بيان روعة الالتفات القرآنى يقول : « ولأمر ما وقع التباين الخارج عن الحد بين مفسر لكلام رب العزة ومفسر وبين غواص فى بحر فرائده . وغواص ، وكل التفات وارد فى القرآن متى صرت من سامعيه عرفك ما موقعه ، واذا أحببت أن تصير من سامعيه فاصح ثم ليتل عليك قوله تعالى « اياك نعبد واياك نستعين » أليس مما يشهد له الوجدان بحيث يغنيه عن شهادة ماسواه أن المرء اذا أخذ فى استحضار جنايات جان متنقلا فيها عن الإجمال الى التفصيل وجد من نفسه تفاوتا فى الحال بينا لا يكاد

---

(١) السابق ص ١٠٣ .

(٢) السابق ص ١٠٤ .

يشبه آخر حاله هناك أولها أو ما تراك إذا كنت فى حديث مع إنسان وقد حضر مجلسكما من له جنايات فى حقك كيف تصنع تحول عن الجانى وجهك وتأخذ فى الشكاية عنه إلى صاحبك تبثه الشكوى معددا جناياته واحدة فواحدة ، وأنت فيما بين ذلك واجد مزاجك يحمى على تزايد يحرك حالة لك غضبية تدعوك إلى أن تواثب ذلك الجانى وتشافهه بكل سوء وأنت لا تجيب إلى أن تغلب فتقطع الحديث مع الصاحب ومباثتك إياه وترجع إلى الجانى مشافهاً له ، بالله قل لى هل عامل أحد مثل هذه المعاملة ؟ ، هل يتصور معاملة أسوأ مما فعلت ؟ أما كان لك حياء يمنعك ؟ أما كانت لك مروءة تردعك على هذا ؟ .

وإذا كان الحاضر لمجلسكما ذا نعم عليك كثيرة فإذا أخذت فى تعديد نعمة عند صاحبك مستحضرا لتفاصيلها أحسست من نفسك بحالة كأنها تطالبك بالإقبال على منعمك وتزن لك ذلك ، و . تزال تتزايد ما دمت فى تعداد نعمه حتى تحملك من حيث لا تدرى على أن تجدك وأنت معه فى الكلام تثنى عليه وتدعـــو له وتقول بأى لسان أشكر صنائعك الروائع ؟

وبأية عبارة أحصر عوارفك الذوارف وما جرى ذلك المجرى ، وإذا وعيت ما قصصته عليك وتأملت الإلتفات فى « إياك نعبد وإياك نستعين » بعد تلاوتك لما قبله من قوله « الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين » على الوجه الذى يجب وهو التأمل القلبى علمت ما موقعه ، وكيف أصاب المحز وطبق مفصل البلاغة لكونه منبها على أن العبد المنعم عليه بتلك النعم العظام الفائتة للحصر إذا قدر أنه ماثل بين يدى مولاه من حقه إذا أخذ فى القراءة أن تكون قراءته على وجه يجد معها من نفسه شبه محرك إلى الإقبال على من يحمد ، صائر فى أثناء القراءة إلى حالة شبيهة بإيجاب ذلك

عند ختم الصفات ، مستدعية إنطباقها على المنزل على ماهو عليه وإلا لم تكن قارئا[١] » .

وقد أطلت فى نقل هذا النص ، وإن سوغ لى تلك الإطالة الحرص على توضيح عناية السكاكى بالمقامات والأحوال ، ومدى اهتمامه بربطها بالنص القرآنى المعجز ، مع ربط كل ذلك بالفطرة السوية والذوق السليم .

والربط بين علم المعانى ومعانى النحو واضح ، كما أن الربط بين معانى النحو والإعجاز القرآنى يقوم على فهمه لمعنى النظم وإدراكه لمفهومه ، ومن ثم فإن مباحث علم البيان وإن احتصت بدراسة مستقلة وانتظمها علم قائم بذاته أنها داخلة فى المعانى ، وعليهما ـ عند السكاكى ـ يقوم الاعجاز القرآنى .

لذا فإن فكرة النظم ـ عنده ـ نراها ـ كما هى عند عبد القاهر ـ تتسع لتشمل مباحث العلمين ـ أعنى المعانى والبيان ـ وإن كان السكاكى خصص لها مسائل علم المعانى .

وفى بيان هذا الربط يقول بعد أن يعرف علم المعانى : « وفيما ذكرنا ما ينبه على أن الواقف على تمام مراد الحكيم ـ تعالى وتقدس ـ من كلامه مفتقر إلى هذين العلمين كل الافتقار ، فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير وهو فيهما راجل ، ولما كان علم البيان شعبة من علم المعانى لا تنفصل عنه إلا بزيادة اعتبار جرى منه مجرى المركب من المفرد لا جرم آثر تأخيره »[٢] .

---

(١) السابق ص ٨٧ .

(٢) السابق ص ٧٠ .

والسكاكي في تتبعه لخواص التراكيب في أسلوب القرآن الكريم يتنبه إلى دقيقة هامة ، فالمعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض ، وكذلك كل واحد من جزأى الجملة ، قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر : ولا بد من استحضار معانى الجمل، واستحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ ، ثم استعمال أنسبها وأفصحها ، واستحضار ذلك متعذر على البشر في أكثر الأحوال ، وذلك عتيد حاصل في علم الله ، فلذلك كان القرآن أحسن الحديث وأفصحه ، من ثم كان الوقوف على هذه الأسرار وتلك اللطائف لا تتم إلا لبصيرة ذى طبع وقاد ، وإلا لمن آتاه الله الحكمة ومنحه التوفيق .

فيقول: « ولمبنى علم المعانى على التتبع لتراكيب الكلام واحدا فواحداً كما ترى ، وتطلب العثور على ما لكل منها من لطائف النكت مفصلة لاتتم الاحاطة به إلا لعلام الغيوب ، ولا يدخل كنه بلاغة القرآن إلا تحت علمه الشامل ، واعلم أن مستودعات فصول هذا الفن لا تتضح إلا باستيراء زناد خاطر وقاد ولاتنكشف أسرار جواهرها إلا لبصيرة ذى طبع نقاد، ولا تضع أزمتها إلا في يد راكض في حلبتها إلى أنأى مدى باستفراغ طوق متفوق أفاويق استنباتها بقوة فهم ومعونة ذوق مولع من لطائف البلاغة بما يؤثرها القلوب بصفايا حباتها وتنثر عليها أفئدة مصاقع الخطباء خبايا حباتها متوسل بذلك أن يتأنق في وجه الاعجاز في التنزيل متنقلا مما أجمله عجز المتحدين به عندك إلى التفصيل طامع من رب العزة والكبرياء في المثوبة الحسنى والفوز عنده يوم النشور بالذخر الأسنى »[1].

وقد تدق الفروق والأسرار مما يحوج دارس المعانى والمتتبع لها إلى

---

(١) السابق ١٠٨ .

مزيد من التيقظ لإدراكها ومعرفة مراد الله تعالى وحكمته من ورائها ، وما تؤديه الأساليب الحاوية لها من معان وأغراض ، وارتباط ذلك بالمقام والسياق .

وقد نبه السكاكى إلى أن التسرع فى إدراك هذه الفروق يوقع فى الخطأ، بل فى الخطر إذا ما كان النظر الى تلك الفروق ووشائجها فى كتاب الله تعالى، فعلى أهل المعانى أن يعاودوا النظرة تلو النظرة ، وأن يوفوها حقها من التأمل والتأنى ، وصولا الى حقيقة تلك المعانى وربطها بأحوالها .

فنجده فى باب الفصل والوصل يتحدث عن الجامع بين الجملتين ، والمناسبة بينهما والتى تجمع بين طرفى الإسناد فى كلتا الجملتين ، مشيراً إلى أنه ينبغى تحرى الدقة فى تلك المناسبة ، والبحث المتيقظ للفروق الدقيقة التى تكتنف هذه الجوامع أو تلك المناسبات .

فكم من صور تتعانق فى الخيال وهى فى آخر ليست تتراءى ، وكم صور لا تكاد تلوح فى الخيال وهى فى غيره نار على علم . وإن أحببت أن تستوضح ما يلوح به إليك فحدق إليه من جانب اختبارك تلق كاتبا بتعديد قرطاس ومحبرة وقلم ، ونجارا بتعديد منشار وقدوم وعتلة . وآخر وآخر بما لا يلابسون ... ولصاحب المعانى فضل احتياج فى هذا الفن إلى التنبه لأنواع هذا الجامع والتيقظ لها . . . . فقل لى إذا لم يوفه حقه من التيقظ ، وأنه من أهل المدر أنى يستحلى كلام رب العزة مع أهل الوبر حيث يبصرهم لدلائل ناسقاً ذلك النسق « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت » لبعد البعير عن خياله فى مقام النظر ، ثم لبعده فى خياله عن السماء ، وبعد خلقه عن رفعها ، وكذا البواقى . لكن إذا وفاه حقه بتيقظه لما عليه تقلبهم فى حاجاتهم جاء الاستحلاء ، وذلك إذا نظر أن أهل الوبر

إذا كان مطعمهم ومشربهم وملبسهم من المواشي كانت عنايتهم مصروفة لا محالة إلى أكثرها نفعا ، وهي الإبل ، ثم إذا كان انتفاعهم بها لا يتحصل إلا بأن ترعى وتشرب كان جل مرمى غرضهم نزول المطر وأهم مسارح النظر عندهم السماء ، ثم إذا كانوا مضطرين إلى مأوى يأويهم وإلى حصن يتحصنون فيه ، ولا مأوى ولا حصن إلا الجبال .

لنا جبل يحتله من نجيره منيع يرد الطرف وهو كليل

فما ظنك بالتفات خاطرهم إليها ، ثم إذا تعذر طول مكثهم في منزل ، ومن لأصحاب مواش بذلك كان عقد الهمة عندهم بالتنقل من أرض إلى سواها من عزم الأمور ، فعند نظره هذا أيرى البدوي إذا أخذ يفتش عما في خزانة الصور له لا يجد صورة الإبل حاضرة هناك أولا يجد صورة السماء لها مقارنة أو تعوزه صورة الجبال بعدهما ، أولا تنص إليه صورة الأرض تليها بعدهن لا وإنما الحضري حيث لم تتآخذ عنده تلك الأمور ، وما جمع خياله تلك الصور على ذلك الوجه إذا تلا الآية قبل أن يقف على ما ذكرت ظن النسق بجهله معيبا للعيب فيه »[1].

والتأكيد على لفت الأنظار إلى هذه الفروق الدقيقة بين أسرار التراكيب في نظم القرآن الكريم كان السكاكي حريصاً على أن يعقب كل باب من أبواب علم المعاني بطائفة من الأمثلة القرآنية يجلي فيها مادق ولطف من مسائل الباب ومباحثه ، وهذا واضح لمن يتصفح هذه الأبواب في مفتاحه[2] .

---

(١) السابق ص ١١١ ، ١١٢ .

(٢) انظر على سبيل المثال ص ١١٥ وما بعدها .

ودراسة النظم أو المعانى عند السكاكى تهتم بالبحث عن استقامة المعانى، وتأدية الألفاظ للمقصود بها والأغراض المنوطة بالتراكيب، كما تعنى بالكشف عن فضل الأساليب على غيرها مما يؤدى نفس المعانى والأغراض.

يقول فى باب الإيجاز: «والعلم فى الإيجاز قوله علت كلمته «فى القصاص حياة»، وإصابته المحز بفضله على ما كان عندهم أوجز كلام فى هذا المعنى وذلك قولهم، القتل أنفى للقتل، ومن الإيجاز قوله تعالى «هدى للمتقين» ذهابا إلى أن المعنى: هدى للضالين الصائرين إلى التقوى بعد الضلال لما أن الهدى - أى الهداية - إنما تكون للضال، لا للمهتدى، ووجه حسنه قصد المجاز المستفيض نوعه، وهو وصف الشىء بما يؤول إليه والتوصل به إلى تصدير أولى الزهراوين بذكر أولياء الله»[1].

والنظم عند السكاكى فيما ذكرنا فكرة أدارها وبنى عليها علما من علوم البلاغة هو علم المعانى فالنحو عنده ركيزة هذا العلم، والمطابقة لمقتضى الحال هى المقياس الذى يقاس به حسن الحسن وقبح القبيح من الكلام.

«فمدار حسن الكلام وقبحه على انطباق تركيبه على مقتضى الحال، وعلى لا انطباقه، فوجب عليك أيها الحريص على ازدياد فضلك المنتصب لاقتداح زناد عقلك المتفحص عن تفاصيل المزايا التى بها تقع التفاضل، وينعقد بين البلغاء فى شأنها التسابق والتفاضل أن ترجع إلى فكرك الصائب وذهنك الثاقب وخاطرك اليقظان وانتباهك العجيب الشأن، ناظراً بنور عقلك وعين بصيرتك فى التصفح لمقتضيات الأحوال فى إيراد المسند إليه على كيفيات مختلفة وصور متنافية حتى تأتى بروزه عندك لكل منزلة فى معرضها، فهو الرهان الذى يجرب به الجياد والنضال الذى يعرف به

---

(١) السابق ص ١٢٠، ١٢١.

الأيدى الشداد »[١].

ومثل المسند إليه فى البحث عن أحواله ومطابقتها لمقتضياتها ، والهيئات المخصوصة التى يجىء عليها غيره من أبواب علم المعانى كالمسند ومتعلقات الفعل والقصر والإنشاء وغيرها .

وقد صرح السكاكى فى مواضع كثيرة من كتابه بكلمة النظم ، وعنى به معناه العام ، وهو التأليف والتركيب ، وطريقة البناء الأدبى .

فنراه يشير إلى التأليف فى قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيبا » ولمصادفة هذا التركيب وما حواه من عناصر المزية والشرف الموقع والمقام ، حيث كان التلقى لتوابع انقراض الشباب ، وقبل أن يعرض عناصر الحسن ، واللطائف التى جاء عليها نظم الآية يقول : « والكلام فى تلك اللطائف مفتقر إلى أخذ أصل معنى الكلام ومرتبته الأولى ، ثم النظر فى التفاوت بين ذلك وبين ما عليه نظم القرآن ، وفى كم درجة يتصل أحد الطرفين بالآخر . » ثم أخذ فى بيان النظم الذى يؤدى أصل المعنى ، وما اشتمل عليه نظم الآية العجيب[٢].

والتأليف الذى عنى به النظم تأليف على وجه مخصوص يراعى أسباب الجمال وعناصر الحسن ، وتتفاوت فيه الرتب وتتسابق فيه أرباب الفصاحة والبيان ، ولا يبعد عن معناه عند عبد القاهر فيما سبق توضيحه .

يقول عند تعرضه لمطاعن الضلال والجهال : « ربما طعنوا فيه من جهة المعنى بأنحاء مختلفة منها : أنهم يقولون أنتم تدعون أن القرآن معجز بنظمه

(١) السابق ص ٧٦ .

(٢) السابق ص ١٢٠ .

وأن نظمه غير مقدور للبشر ، وتعتقدون أن الجن والإنس لئن اجتمعوا على أن يأتوا بثلاث آيات لا يقدرون على ذلك .... وقرآنكم يكذبكم في ذلك ويشهد أن نظم الآيات الثلاث ، بل الثلاثون ، بل الأكثر لا يعوز الفصيح فضلا أن يعوز الأفصح . فإذا قدر فصيح واحد على نظم إحدى عشرة آية في موضع واحد فلا يكون الأفصح أقدر . ومنها أنهم يقولون أنا نرى المعنى يعاد في قرآنكم في مواضع إعادة على تفاوت في النظم بين حكاية وخطاب وغيبة ، وزيادة ونقصان وتبديل كلمات فإن كان النظم الأول حسنا لزم في الثاني الذي يضاد الأول بنوع من الزيادة أو النقصان أو غير ذلك أن يكون دونه في الحسن ، وفي الثالث الذي يضاد الأولين بنوع مضادة أن يكون أدون وقرآنكم مشحون بأمثال ما ذكر فكيف يصح أن يدعى في مثله أن كله معجز والإعجاز يستدعي كونه في غاية الحسن ، لا أن يكون دونها بمراتب .

من ذلك ما ترى في سورة آل عمران «كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا . فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب » وفي سورة الأنفال «كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب » وبعده «كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين » فنقول لهم والذي ذكرتموه من لزوم التفاوت في الحسن يسلم لكم إذا فرض ذلك التفاوت في المقام الواحد ، لامتناع انطباق المتضادين على شيء واحد ، أما إذا تعدد المقام فلا ؛ لاحتمال اختلاف المقامات وصحة انطباق كل واحد على مقامه ، ونحن نبين لكم انطباق ما أوردتموه من الصور الثلاث على مقاماتها بإذن الله تعالى ، ليكون ذلك

للمتدبر مثالا فيما سواه يحتذيه ، ومناراً ينتحيه »(١).

ويأخذ السكاكي في بيان واف ورؤية ثاقبة يشرح ما اشتملت عليه الصور الثلاث من تفاوت في المقام والأحوال التي أدت بالطبع إلى تفاوت عناصر النظم ، واختلاف الصـــلات بين معاني النحو في كل صورة على حدة .

من كل ما سبق يتبين – بجلاء – أن السكاكي استفاد كثيراً من جهود سابقيه في بسط هذه النظرية وتوضيح أركانها : وأنه لم يغفل النضج الكامل الذي وصلت به هذه النظرية إليه ، كما أن تفسير الإعجاز القرآني على أساسها استقاه من كلام السابقين .

ولو أردنا تعريفا لهذه الفكرة عنده لقلنا إنه لم يخرج عن الإطار الذي وصفه الإمام عبد القاهر لهذه النظرية ، كما أن المباحث التي قامت عليها هذه النظرية لم يضف إليها إلا النذر اليسير .

إلا أنه مع ذلك لا يمكننا التقليل من جهد السكاكي ، وأثره في معالجة هذه القضية . فالسكاكي رجل له عقل المناطقة وعلماء الكلام، كما أن له ذوق اللغويين والمهتمين بالأدب بمفهومه العام ، كما أنه عالم متشبع بثقافة عصره التي هي أقرب إلى روح الفلسفة والمنطق .

كل هذا جعله يرى الحاجة ماسة إلى ضبط معاقل هذه النظرية التي قامت عليها قضية الإعجاز القرآني ، حتى تقدم في إطار تعليمي للمبتدئين والمتعلمين يكون أدعى للصيانة وأيسر في الحفظ وأسهل في فهم كتاب الله وإعجازه ، ومن ثم كان تخصيصه علم المعاني لمعالجة مباحث هذه النظرية ومسائلها فيما

---

(٢) السابق ص ٢٤٥ ٢٤٦ .

لم تعرفه البلاغة العربية من قبله من ثوب قاعدى وقالب يفيد المتعلمين والأدباء جميعا ، ويقدم إليهم مباحثها فى أطر محددة واضحة .

إلا أنه رأى — كما رأى الإمام عبد القاهر من قبله — أن بعض المسائل التى تندرج تحت هذه النظرية تتسم بطابع خاص ، وتدور فى فلك مشترك ، وينظمها سلك واحد ، مع حاجتها إلى مزيد شرح وتوضيح ، وهى مسائل التشبيه والمجاز والكناية فأفرد لها علما خاصا هو « علم البيان » وصرح بأنه شعبة من « علم المعانى » .

* * *

المبحث الثانى

تطبيقات السكاكى على النظم القرآنى

عرفنا – فيما سبق – أن السكاكى كان رأيه أن الإعجاز القرآنى فى نظمه وأسلوبه ، وأن فكرة النظم كانت واضحة فى عقله لا يغيم عنده جانب واحد من جوانبها أو جزئية من جزئياتها ، وأن همه لم يكن مجرد عرض هذه الفكرة ، حيث كانت مبسوطة وواضحه عند من تقدمه ، وإنما كان همه ضبط معاقلها ، ووضعها فى إطار واضح المعالم ، فميز العلوم التى تتوزع عليها شعب هذه النظرية ومسائلها تمييزاً واضحاً ، معرفاً كل علم منها تعريفاً يفصل بينه وبين غيره من العلوم ، كما حدد الأبواب التى تندرج تحت كل علم منها ، وأصبح التبويب والتقسيم سمة واضحة لم تعهده فكرة النظم قبله، حيث كان هو أول من فعل ذلك .

ولم يكن هم السكاكى من وضع قواعد هذه النظرية ، وضبط معاقلها ، وتبويب الأبواب وتقسيم الأقسام التى تجمع شمل هذه الفكرة إلا ليكون هذا الإطار سبيلا لفهم النظم القرآنى وإدراك إعجازه ، فالهدف هو النظم القرآنى وما حواه من خصائص النظم والتراكيب، وكان بها فى أعلى الدرجات من بلاغة القول وفصاحة الكلام .

ويظهر هذا الهدف فى مواضع كثيرة من عرضه لمباحث هذه النظرية وفنونها ، من ذلك قوله فى تعريف المسند إليه باللام وحديثه عن لام الاستغراق « واستغراق المفرد يكون أشمل من استغراق الجمع ، ويتبين ذلك بأن ليس يصدق لا رجل فى الدار فى نفى الجنس إذا كان فيها رجل أو رجلان ، ويصدق لا رجال فى الدار ، وبعد أن يقرر تلك القاعدة

يوجه الأنظار إلى أن الهدف هو النظم القرآنى فيقول : « ومن هذا يعرف لطف ما يحكيه تعالى عن زكريا - عليه السلام - « رب إنى وهن العظم منى » دون وهن العظام ، حيث توصل باختصار اللفظ إلى الإطناب فى معناه »[1].

وفى الأحوال الداعية إلى ترك المفعول ودواعى حذفه يذكر الداعى تلو الآخر ، ثم يعقب على كل منها بالآيات القرآنية التى تبرز كل داع من هذه الدواعى وتكشف عن روعته فى نظم القرآن وأسلوبه ، مما يؤكد أن سوقه للقواعد والأحكام ماهو إلا للتوصل إلى أسرار النظم القرآنى المعجز ولطائفه المتكاثرة »[2].

بل نجده فى كثير من المواضع يصرح بأن المعرفة بهذه القواعد إنما هى للتوصل إلى معرفة بلاغة القرآن وسمو أسلوبه وعلو نظمه وإعجازه ، فنراه يقول عن القرآن الكريم أنه « لم يكتس تلك الطلاوة ولا استودع تلك الحلاوة ، وما أغرقت أسافله ولا أثمرت أعاليه ، وما كان يعلو ولا يعلى إلا لا نصبا به فى تلك القواليب ولوروده على تلك الأساليب »[3] .

فدراسة مسائل النظم واجبة لتفهم مراد الله تعالى ، والوقوف على إعجازه ، ومتى أتقن الإنسان هذه المسائل وعرف هذه القواعد استطاع أن يكشف القناع عن السبب فى إنزال الله - سبحانه وتعالى - قرآنه المجيد على هذه المناهج وتلك القوالب .

ولئن كان السكاكى قد قصر مسائل البلاغة والحديث عن النظم وقواعده

---

(١) مفتاح العلوم ص ٩٤ .

(٢) أنظر المصدر السابق ص ٩٩ ، ١٠٠ .

(٣) السابق ص ٨٩ .

على بيان الإعجاز قصراً فنيا ، فإن ذلك — كما يقول الأستاذ أمين الخولى — لا ضرر منه مطلقا ؛ لأنه جعل الطريق هو الذوق الفنى والممارسة الأدبية للبلاغة على ما تقتضى به أصول التربية الصحيحة(١).

وإذا كنا نراه قد جعل القواعد والأحكام فى خدمة النظم القرآنى فإنا نجد له عناية خاصة بتطبيق تلك القواعد على كتاب الله، وكشف بعض أسرار النظم فى كثير من آيات القرآن الكريم ، كما نجد له اهتماماً خاصا بربط كل قاعدة بالعديد من الآيات القرآنية الكريمة ، مما يدل على أن غايته هى الكشف عن عظمة هذا الكتاب وأن إعجازه فى نظمه .

يقول أحد الكاتبين بعد أن يبين ما وصلت إليه الدراسات حول بلاغة القرآن من الضعف بعد الإمامين : عبد القاهر والزمخشرى ، وكيف أن تلك الدراسات عادت إلى سيرتها الأولى التى بدأها النظام وواصل بن عطاء — يقول : « ثم تعود دراسة البلاغة القرآنية إلى الظهور مرة أخرى على يد السكاكى فى كتابه « مفتاح العلوم » ، فهو يرى أن القرآن بليغ بنظمه وأسلوبه ، وفصاحة ألفاظه ومعانيه وصحة مبانيه ، يقوده إلى ذلك الكشف عن بديع القرآن وجماله ووجود الفنون البلاغية فيه »(٢) .

من ثم فقد كان السكاكى يكثر من الاستشهاد بالآيات القرآنية كاشفا عن سر روعتها وأسباب عظمتها مبينا ما حواه نظمها العجيب من أسرار التركيب وخصائصه .

ولم يكن عرضه للآيات والشواهد القرآنية للتمثيل ، وإنما كان يأتى

---

(١) البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) فكرة النظم بين وجوه الإعجاز ص ٤٤ .

بها للتطبيق ، وليبرز ما فيها من روعة النظم وألوانه وفنونه فى كل لون على حدة ، بل كان يلفت الأنظار منبهاً إلى مافيها من دقائق التعبير وفنون القول، وقد كان مسلكه دليلا واضحاً على ذلك .

نجد هذا فى حديثه عن « هل» ولكونها لطلب الحكم بالثبوت أو الانتفاء يقول : « وقد نبهت على أن الإثبات والنفى لا يتوجهان إلى الذوات وإنما يتوجهان إلى الصفات ، ولاستدعائه التخصيص بالاستقبال لما يحتمل ذلك، وأنت تعلم أن احتمال الاستقبال إنما يكون لصفات الذوات لا لنفس الذوات ، لأن الذوات من حيث هى هى ذوات فيما مضى وفى الحال وفى الاستقبال استلزم ذلك مزيد اختصاص لهـل دون الهمزة بما يكون كونه زمانيا أظهر كالأفعال » ، ثم يبين أنه ماجاء بهذا الحكم إلا لبيان أثره فى النظم القرآنى ، ولكونه كاشفا عن عظمة هذا النظم وإعجازه ، فيقول : « ولذلك كان قوله عز وجل « فهل أنتم شاكرون »أدخل فى الإنباء عن طلب الشكر من قولنا فهل تشكرون أو فهل أنتم تشكرون أو فأنتم شاكرون لما أن هل تشكرون مفيد للتجدد وهل أنتم تشكرون كذلك وأفأنتم شاكرون وإن كان ينبىء عن عدم التجدد لكنه دون فهل أنتم شاكرون لما ثبت أن هل أدعى للفعل من الهمزة فترك الفعل معه يكون أدخل فى الإنباء عن استدعاء المقام عدم التجدد »[1].

وفى حديثه عن التشبيه والفرق بينه وبين الاستعارة يذكر أن وجود طرفى التشبيه يمنع حمل الكلام على غير التشبيه وأن فقد أداة التشبيه لا تؤثر إلا فى الظاهر ، وبعد ذكر عدة صور كلها من قبيل التشبيه يلفت النظر إلى أن الغرض هو بيان ما عليه النظم القرآنى مما دق وخفى من هذا الباب، فيقول : « فالخيط الأبيض والخيط الأسود فى قوله عز وجل قائلا

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

«حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود» يعدان من باب التشبيه، حيث بينا بقوله «من الفجر» ولولا ذلك لكانا من باب الاستعارة»[1].

وبالتأمل فى انتقال السكاكى من القاعدة إلى النظم القرآنى - المثال السابق يتبين - بجلاء - أنه قصد إلى التطبيق على الآية الكريمة، وأنه عرض القاعدة واضحة، ثم جاء بالآية ليطلعك على أن النظم القرآنى حوى هذا اللون من التشبيه الذى جاء فيه المشبه مبينا للمشبه به فجاء على أحسن صورة وأتم وجه، واستخدم فى هذا الانتقال «الفاء» الداخلة على جواب شرط حذفت فيه الجملة الشرطية والأداة، والتقدير: إذا تقرر ذلك ووضح فاعلم أن الخيط الأبيض ... إلخ كلامه، فالفاء هنا هى الفاء فى قوله تعالى: «يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون».

وفى المجاز اللغوى الراجع إلى المعنى المفيد الخالى من المبالغة فى التشبيه نجد السكاكى بعد أن يعرفه، ويذكر بعضا من علاقاته ينتقل من ذلك إلى النص القرآنى انتقالا ينبه إلى أن القصد هو إجلاء هذا اللون وروعته فى القرآن الكريم، وأن الآيات التى سيذكرها بعد ليست تمثيلا، وإنما جاء بها تطبيقا على ما تقرر من القاعدة، وأن هذا اللون بعد أن عرفت قاعدته - جاء على أحسن صورة وأتم وجه فى النظم القرآنى.

يقول بعد أن قرر قاعدة المجاز اللغوى: «ومن هذا تعرف وجه تفسير من فسر إنزال أزواج الأنعام فى قوله تعالى: «وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج» بإنزال الماء، لاسيما إذا نظر إلى ما ورد من أن كل ماء فى الأرض فهو من السماء ينزله جل وعلا منها إلى الصخرة ثم يقسمه، وقيل هذا معنى قوله «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض»

---

(١) المصدر السابق ص١٥١.

ومما نحن فيه قوله « وينزل لكم من السماء رزقا أى مطرا هو سبب الرزق ، وقوله « وفى السماء رزقكم »(١).

ومما يؤكد عناية السكاكى بالتطبيق على النظم القرآنى ، وزيادة الربط بين القواعد التى عرضها فى مسائل النظم وبين أسلوب القرآن الكريم ما نراه من اكتفائه بالشواهد القرآنية والإكثار منها فى كثير مما عرض له من قواعد وأحكام .

ترى هذا الاكتفاء واضحا فى بعض أحوال المسند إليه ، كحالة تعريفه باللام الدالة على العموم والاستغراق(٢) . والحالة التى تقتضى بيانه وتفسيره(٣) وتراه — أيضا — فى الأحوال الداعية لمجىء المسند فعلا(٤) .

وربما يأتى بمثال توضيحى مصنوع يقرب به القاعدة من الأذهان ، ثم يعقبه بالكثير من الشواهد والآيات القرآنية ، مكتفيا بهذه الآيات ، دون أن يعرض لغيرها من الشواهد الأدبية ، أو الأمثلة المتعارفة التى تقع تحت هذه القاعدة .

ومن ذلك ما نجده عند تعرضه لتقديم المسند إليه على الخبر الفعلى ، وأن هذا التقديم مفيد لتقوى الحكم ، فيذكر أن سبب تقويه هو أن المبتدأ لكونه مبتدأ يستدعى أن يسند إليه شىء ، فإذا جاء بعده ما يصلح أن يستند إليه صرفه المبتدأ إلى نفسه ، فينعقد بينهما حكم ، سواء كان خاليا

---

(١) السابق ص ١٥٥ .

(٢) السابق ص ٨٠ .

(٣) السابق ص ٨٢ .

(٤) السابق ص ٩٠ .

عن ضمير المبتدأ نحو : زيد غلامك ، أو كان متضمنا له نحو : أنا عرفت ، وأنت عرفت ، وهو عرف ، أو زيد عرف ، ثم إذا كان متضمنا لضميره صرفه ذلك الضمير إلى المبتدأ ثانيا فيكتسى الحكم قوة ، فإذا قلت : هو يعطى الجزيل كان المراد تحقيق إعطائه الجزيل عند السامع دون تخصيص إعطاء الجزيل به ، وعليه قوله عز وعلا « واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون » ليس المراد أن شيئا سواهم لا يخلق ، إنما المراد تحقيق أنهم يخلقون . وقوله « إن وليي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » وقوله « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون » وقوله « وإذا جاؤوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به »(١).

وقد كان السكاكى حريصا على إبراز العظمة القرآنية والإعجاز القرآنى من جهة النظم والتأليف بجانب نظم الكلام وتأليفه ، فكان يأتى بالشواهد العربية لكثير من القواعد ، ثم يدلك على نظائرها فى القرآن الكريم تاركا لذوقك التمييز وإدراك الفروق بين أسرار التراكيب القرآنية وتراكيب البلغاء .

فيذكر فى تعريف الاسم بلام الجنس والحقيقة أن تعريف الإسم بهذه اللام لا يبعده كثيراً عن تنكيره ، وأنه لقرب المسافة إذا تأملت بين أن يعرف الأسم هذا التعريف وبين أن يترك غير معرف به يعامل معرفه كثيرا معاملة غير المعرف ، قال :

ولقد أمر على اللئيم يسبنى ... فمضيت ثمت قلت لا يعنينى

فعرف اللئيم والمعنى : ولقد أمر على لئيم من اللئام ، ولذلك تقدر يسبنى وصفا لا حالا ، ثم يقول : وله فى القرآن غير نظير ، يعنى مثل قوله :

---

(١) السابق ص ٩٦ .

« وجعلنا من الماء كل شيء حي » . وقوله : « إن الإنسان لفي خسر » ، وقوله « خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار » وغير هذه الآيات كثير »[1].

وكثيراً ما ينبه السكاكي إلى بعض الظواهر القرآنية العامة فيما يتصل بالنظم والتأليف مما يبرهن على عنايته بالناحية التطبيقية وعلى إلمامه التام بما يقوم عليه النظم القرآني من أسس وقواعد ، فالقرآن الكريم وإن كان نمطاً فريداً من القول إلا أنه جاء على سنن كلام العرب، وسلك مسالكهم في النظم والتأليف .

فنجده في باب الفصل والوصل عند تعرضه للحالة المقتضية للوصل للتوسط بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع يذكر أنه إذا اختلفت الجملتان خبراً وإنشاء أن يكون المقام مشتملا على ما يزيل الاختلاف من تضمين الخبر معنى الطلب أو الطلب معنى الخبر ومشركا بينهما في جهات جامعة ، ثم يسوق كثيراً من الآيات القرآنية التي جاءت على هذه الحالة ، ولا يأتي بشواهد غيرها ، ثم يعقب على هذه الشواهد بقوله : « وأمثال ذلك أكثر من أن أحصيها ههنا »[2].

ويذكر عن أسلوب الاستئناف البلاغي بعد أن يعدد كثيراً من أمثلته القرآنية أن « سلوك هذا الأسلوب في القرآن كثير[3] » .

كما ينبه إلى أن أكثر فواصل القرآن الكريم من نحو « يعلمون » ،

---

(١) السابق ص ١٨٠ .
(٢) السابق ص ١١٢ ، ١١٣ .
(٣) السابق ص ١١٦ .

و « يعقلون » ، و « يفقهون » واردة على حذف المفعول قصداً إلى التفخيم والتعظيم مع الاختصار[1].

وبعدد النكت والأسرار التى تقتضى الاحتراز عن صيغة الأمر ، كالقصد إلى التفاؤل أو الكناية أو حمل المخاطب على المذكور أبلغ حمل بألطف وجه وغير ذلك من الأحوال الداعية ، ثم يقول : « وما من آية من آى القرآن واردة على هذا الأسلوب إلا مدارها على شىء من هذه النكت ، قال تعالى : وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله » فى موضع لا تعبدوا ، « وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم » فى موضع لا تسفكوا ، « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله » فى موضع آمنوا وجاهدوا فانظر »[2] .

كل هذه الإشارات واللفتات تؤكد — بوضوح — عناية السكاكى بالنظم القرآنى ، وحرصه على استجلاء أسراره ، وأن القواعد التى عرضها وساقها فى مفتاحه ماهى إلا لتوضيح ما جاء عليه أسلوب القرآن المعجز ، كما تدل على أن الناحية التطبيقية على نظم القرآن كانت غالبة عليه ، وأن الشواهد القرآنية التى ساقها فى معرض تقعيده للقواعد وضبطه للاقسام لم تكن من باب سوق الأمثلة والشواهد ، وإنما كانت لابراز الأسرار واللطائف فى نظم القرآن وأساليبه .

وأعرض فيما يلى نماذج من عناية السكاكى بالتطبيق على فكرة النظم ، سواء فيما يتصل باللفظ المفرد قبل دخوله فى التأليف والسبك ، أو بعد دخوله فيه ، أو ما يتصل بالتركيب والنظم والتأليف .

---

(١) السابق ص ٩٩ .

(٢) السابق ص ١٣٩ .

أولاً : اللفظ المفرد :

الألفاظ القرآنية إذا انصرفت عن النظم ، وكانت بعيدة عن مجال التصوير ألفاظ عادية من جنس الألفاظ العربية التي يحمل كل منها دلالة خاصة .

والنظر في اللفظ المفرد قبل دخوله التأليف والنظم أمر له أهميته وخطره في صناعة الكلام وسبك الأساليب ، فالوقوف على بنية الكلمة وحروفها ووزنها وما يعتريها من إعلال أو إبدال وكيفية تصغيرها والنسب إليها يوقف على صلاحية اللفظة المفردة ومناسبتها للغرض الذي تدخل فيه أو عدم صلاحيتها ولم يكن هذا النظر بمعزل عن اهتمام السكاكي ، فقد خصص له علماً مستقلاً هو علم الصرف ، وجعل علم الاشتقاق تابعاً له .

وبدأه بتعريف الكلمة المفردة ثم عرف علم الصرف بما يكشف عن الغرض منه ، فأبان أن الغرض هو تتبع اعتبارات الواضع في وضعه من جهة المناسبات والأقيسة .

وكان عرضه المسائل التي عرضها في هذا العلم من حديثه عن مخارج الحروف ، والأصلي والزائد ، والمجرد والمزيد ، وكذا علم الاشتقاق وغير ذلك من المسائل الكثيرة في سبيل الكشف عن هذه الاعتبارات المختلفة .

والألفاظ لبنات التركيب والتأليف . وليس لكلمة فضل على غيرها إذا كانت وحدها . فإذا نظمت في جملة أو عبارة وضحت قيمتها وكانت بذلك النظم دليلاً على نفسها من حيث سموها وروعتها ، أو انحطاطها وسقوطها ، فالأسلوب قد يبهرك رصفه ويسحرك معناه ولا تملك إلا أن تستحسنه وتستعذبه لما به من سحر الطلاوة ، فإذا فضضت نظامه وفرقت متجمعه لم تجد فيه ميزة يفوق بها غيره من الأساليب .

ومن أبرز مظاهر الإعجاز فى النظم القرآنى أن القرآن يتأنق فى اختيار ألفاظه ، فكل كلمة توضع فى مكانها كاللبنة فى البناء لا يصلح غيرها فى موضعها ولو تقارب المعنى وتساوى معها فى كثير من الأمور ، لأن لكل كلمة دلالة خاصة وإيحاءاً خاصاً وانسجاماً فى التركيب ، ولا يستطيع أن يلم بسائر الدلالات ، ويوازن بين دلالة وأخرى ، ويضع الكلمة المعبرة عن الموقف أصدق تعبير والمصورة لخلجات النفوس وخطرات الضمائر إلا العليم الخبير الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

وقد نقل العلامة السيوطى عن البارزى قوله : « اعلم أن المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض ، وكذلك كل واحد من جزأى الجملة قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر ، ولا بد من استحضار معانى الجمل ، واستحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ ، ثم استعمال أنسبها وأفصحها ، واستحضار هذا متعذر على البشر فى أكثر الأحوال ، وذلك عتيد حاصل فى علم الله ، فلذلك كان القرآن أحسن الحديث وأفصحه ، وإن كان مشتملا على الفصيح والأفصح والمليح والأملح ، ولذلك أمثلة منها قوله تعالى : « وجنى الجنتين دان » لو قال مكانه : وثمر الجنتين قريب لم يقم مقامه من جهة الجناس بين الجنى والجنتين ، ومن جهة أن الثمر لا يشعر بمصيره إلى حال يجنى فيها ، ومن جهة مؤاخاة الفواصل ، ومنها قوله تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب » أحسن من التعبير « بتقرأ » لثقله بالهمزة »[1] .

وقد تنبه السكاكى ونبه إلى أن وضع الكلمة القرآنية فى موضعها لا تتم لبشر ، إذ أن كل كلمة لها من موقعها دلالات وإيحاءات لا يكون لغيرها إذا وقعت موقعها ، أو حلت محلها وإنما يكون ذلك لعلام الغيوب .

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن ٢/١٢٥ .

فيقول : « ولمبنى علم المعانى على التتبع لتراكيب الكلام واحداً فواحداً كما ترى وتطلب المثور على ما لكل منها من لطائف النكت مفصلة لا تتم الإحاطة به إلا لعلام الغيوب ، ولا يدخل كنه بلاغة القرآن إلا تحت علمه الشامل »(١).

ويشير السكاكى إلى أن الجهل بالأحكام والقواعد التى تتعلق باللفظ المفرد يوقع فى خفاء الإعجاز القرآنى وعدم الإدراك للنظم القرآنى وما حواه أسلوبه من أسرار ولطائف .

فيذكر من مطاعن الضلال والجهال على القرآن وإعجازه « أنهم ربما طعنوا فيه من حيث اللفظ قائلين فيه مقاليد جمع إقليد وهو معرب كليد ، وفيه استبرق وهو معرب استبر وفيه سجيل وأصله سنك كل فأنى يصح أن يكون فيه هذه المعربات ويقال قرآن عربى مبين فنقول : قدروا جهلكم بطرق الاشتقاق وأصول علم الصرف أن لا مجال لشىء مما ذكرتم فى علم العربية ، أجهلتم نوع التغليب فما ادخلتموها فى جملة كلم العرب من باب إدخال الأنثى فى الذكور وإبليس فى الملائكة »(٢) .

والسكاكى فى تأمله للكلمة المفردة وموقعها ، وما تؤديه من إيحاءات من خلال ذلك الموقع يبصر السر البلاغى لما يعترى الكلمة من هيئات مختلفة ، ويساعده على لمح ما فى هذه الهيئات من وحى وإشارات حس أدبى مرهف ، وذوق بصير بمرامى الكلام وأسراره .

فيدرك السر فى اختيار الكلمة القرآنية « العظام » وإشارها على « العظم » فى قوله تعالى « رب إنى وهن العظم منى » فيقول « الاستغراق نوعان :

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٠٨ .
(٢) السابق ص ٢٤٥ .

عرفى وغير عرفى ، فالعرفى فى نحو قولنا : جمع الأمير الصاغة : أى جمع صاغة بلده أو أطراف مملكته فحسب ، لا صاغة الدنيا ، وغير العرفى فى نحو قولنا : الله غافر الذنوب أى كلها واستغراق المفرد يكون أشمل من استغراق الجمع وبتبين ذلك بأن ليس يصدق لا رجل فى الدار فى نفس الجنس إذا كان فيها رجل أو رجلان ، ويصدق لا رجال فى الدار ، ومن هذا يعرف لطف ما يحكيه تعالى عن زكريا ـ عليه السلام ـ « رب إنى وهن العظم منى » دون وهن العظام ، حيث توصل باختصار اللفظ إلى الإطناب فى معناه »[1].

وقد كثرت تأملات السكاكى ووقفاته مع الكلمة المفردة فى القرآن الكريم ، وقد تنوعت هذه الوقفات فنها ما كان يهتم بمادة الكلمة ، أى بمعناها المفاد من مادتها ، ومنها ما كان يهتم بهيئة الكلمة ، أى معناها المفاد من هيئتها ، ومنها ما يهتم بحروفها وما يعترى هذه الحروف من هيئات ، ومنها ما يهتم بتعريفها أى نوع من أنواع المعرفات ، ومنها ما يهتم بتنكيرها . . . إلخ هذه الأنواع والمسائل التى نجدها مبثوثة وواضحة كل الوضوح فى أبواب كتابه وفصوله .

ثانيا : التأليف والتركيب :

التركيب والتأليف هو الذى يمنح الكلمة حظها من الحياة ، ويجعل لها أثرا يمس شغاف القلوب ، ويملك زمام العقول ، والقرآن الكريم فى تأليفه وتركيبه لم يخرج عن المألوف من تراكيب العرب ، ونظمه جاء على وفق قواعد النحو وأحكامه ، وقد أجمع العلماء على أن النحو هو القطب الذى عليه المدار ، والعمود الذى به الاستقلال ، فلا فضل مع عدمه ، ولا قدر

(١) السابق ص ٩٤

لكلام إذا لم يستقم له، ولو بلغ فى غرابة معناه ما بلغ، وما كان بهذا المحل من الشرف، وفى تلك المنزلة من الفضل وموضوعا هذا الوضع من المزية جدير بأن توقظ له الهمم وتحرك له الأفكار وتستخدم فيه الخواطر[1].

وتركيب القرآن الكريم يعتمد على الجملة اسمية أو فعلية مع ما يستتبع كلا منهما من مكملات ، وهذا التركيب بما يشتمل عليه من ألفاظ متمكنة فى مواضعها صورة لمعناه تدل عليه أبلغ الدلالة بحيث تقتضى كل آية عمقا فى النظرة ، وقريحة متوقدة ؛ فلتقديم الكلمة على أختها نمط من السياق وسر لا يفهمه إلا الإدراك البصير ، وتأخير الكلمة عن موضعها لدلالة يقتضيها السياق قد لا تخفى على أهل النظر ، وحذف المبتدأ أو الخبر وغيرهما لون جديد فريد من النظم لأسرار بلاغية تروق وتعجب ، ولذا فإن القرآن الكريم ، وإن كان جاريا على سنن كلام العرب وطرائقهم فى التعبير إلا أنه نمط فريد من القول ، وباب عجيب من سحر البيان .

ولا عجب ، فالقرآن نزل على رسولنا الكريم بأفصح ما تسمو إليه لغة العرب فى خصائصها العجيبة . وما تقوم به واجتماعها على تأليف صوتى يكاد يكون موسيقيا محضاً فى التركيب والتناسب بين أجراس الحروف ، أو الملاءمة بين طبيعة المعنى وطبيعة الصوت الذى يؤديه ، وكان طبيعيا أن يكون القرآن أملك بهذه الصفات ، وأن يكون ذلك التأليف أظهر الوجوه التى نزل عليها ، وكان طبيعيا أيضا أن تتعدد مناحى هذا التأليف تعدداً يكافىء الفروع اللسانية التى سبقت بها فطرة اللغة فى العرب ، حتى يستطيع كل عربى أن يوقع بأحرفه وكلماته على لحنة الفطرى ولهجة قومه ، توقيعا يطلق من نفس الأصوات الموسيقية التى يشيع بها الطرب فى هذه النفس بما يسمونه فى لغة العرب بيانا وفصاحة ، وهو فى لغة الحقيقة الموسيقى اللغوية .

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ٣٠ وما بعدها .

ومن عجيب إعجاز القرآن أنك تحسب ألفاظه هي التي تنقاد لمعانيه ، فإذا تعمقت فيه انتهيت إلى أن معانيه منقادة لألفاظه[1] .

وهذا التمازج بين الألفاظ ومعانيها ، أو بين المعاني وألفاظها بما لا يعرف مثله إلا في الصفات الروحية العالية ، إذ تتجاذب روحان قد ألفت بينهما حكمة الله ، فركبتهما تركيباً مزجياً ، بحيث لا يجري حكم في هذا التجاذب على إحداهما حتى يشملها جميعاً .

وأصدق وصف للآية القرآنية أو النظم القرآني في الآيات مع ما يستتبعه من ربط الآيات بعضها ببعض ، والسور كذلك ، نقول : أصدق وصف هو أن الآية القرآنية بناء متكامل يأخذ بعضه بحجز بعض ، ولا يمكن أن يؤخر ما قدم أو يقدم ما أخر أو يذكر ما حذف أو يحذف ما ذكر أو يوجز فيما أطيل فيه أو يطنب فيما أوجز فيه ، لكل مقام ولكل كلمة مع صاحبتها موقف وكأنما لم يخلق الله لأداء تلك الدلالات غير هذه القوالب ، على اتساع اللغة بألفاظها وأشكالها .

والآية القرآنية تجيء تبعاً للمعنى النفسي فترسمه وتبرز له طولاً وعرضاً ، أو تجسمه وتجعله شاخصاً أمام البصر حتى يزيد تمكناً في النفس ، وحتى تثبت لأصحاب الفطرة اللسانية عجز مقدورهم فيتحقق صدق المعجزة .

ويؤكد هذا المعنى ما كتبه ابن أبي الإصبع في بديع القرآن ، باب « ائتلاف اللفظ مع المعنى » يقول : تلخيص تفسير هذه التسمية أن تكون ألفاظ المعنى المراد يلائم بعضها بعضاً ، ليس فيها لفظة نافرة عن أخواتها غير لائقة بمكانها ، كلها موصوف بحسن الجوار ، بحيث إذا كان المعنى متوسطاً كانت الألفاظ كذلك ، وإذا كان غريباً كانت الألفاظ غريبة ، وإذا كان متداولاً كانت الألفاظ معروفة مستعملة ، وإذا كان متوسطاً

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ٤٦ .

بين الغرابة والاستعمال كانت ألفاظه كذلك [١] .

وهذا البناء المحكم قائم على أساس من معرفة خلجات النفس ، أوعية صالحة لمحتوياتها ، ومحتويات لا تصلح بغير هذه الأوعية ، حتى تسمو فوق مدارك البشر ، فيؤمنون بأنها من عند الله ، وأنهـا معجزة لنبيه صلى الله عليه وسلم .

وليست تلك اللمحات ظواهر جزئية مبعثرة فى القرآن ، لا رابط بينها وإنما هى أشكال وأنماط عامة ، تندرج تحتها تلك الجزئيات ، سواء كان الغرض تبشيراً أو تحذيراً ، قصة وقعت أو حادثاً سيقع ، منطقاً للإقناع ، أو دعوة إلى الإيمان ، وصفاً للحياة الدنيا ، أو للحيـاة الأخرى ، تمثيلا لمحسوس أو ملموس ، إبرازاً لظاهر أو لمضمر ، بياناً لخاطر فى الضمير ، أو لمشهد منظور . وهذا هو ما يعرف بالتصوير الفنى .

وقد كان أبو يعقوب السـكاكى يدرك كل هذا ، بل كان يستوحى الأسرار واللطائف القرآنية وهو يضع قواعد النظم وأصوله ، فكان يدرك إدراكاً قوياً أن القرآن يدقق فى اختيار الكلمات بعيدة عن الغرابة والثقل غير نابية فى الأذواق ، كما كان يدرك — بإحساسه وذوقه — كيف كانت الآية القرآنية بناء فنيا تتمثل فيه المواقف المختلفة فى تصوير دقيق تعجزعنه طبائع البشر وقدراتهم ، لمـا تفرد به من خصائص الصياغة ، وما اتسم به من دلائل الإعجاز فى تأليفه وتركيبه .

والتدليل على أن السكاكى كان يدرك كل هذا عن حس مرهف وذوق رفيع أسوق نموذجا — على الرغم من طوله — يبرهن على أن أبا يعقوب

---

(١) بديع القرآن ص ٧٧ .

كان — إلى جانب إدراكه للنظم القرآني وأسراره — مهتما بالكشف عن مسائل النظم ولطائفه في آي القرآن الكريم وتراكيبه المختلفة .

يقول : « أذكر على سبيل الأنموذج آية أكشف لك فيها عن وجوه البلاغة والفصاحتين ما عسى يسترها عنك ، ثم ان ساعدك الذوق أدركت منها ما قد أدرك من تحدوا بها وهي قوله علت كلمته — وقيل يا أرض ابلعي ماءك وياسماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين — والنظر في هذه الآية من أربع جهات: من جهة علم البيان ، ومن جهة علم المعاني وهما مرجعا البلاغة ، ومن جهة الفصاحة المعنوية ، ومن جهة الفصاحه اللفظية . أما النظر فيها من جهة علم البيـــان وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بها فنقول : إنه عز سلطانه لما أراد أن يبين معنى أردنا أن نرد ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد ، وأن نقطع طوفان السماء فانقطع ، وأن نغيض الماء النازل من السماء فغاض ، وأن نقضى أمر نوح وهو إنجاز ما كنا وعدنا من إغراق قومه فقضى ، وأن نسوى السفينة على الجودى فاستوت ، وأبقينا الظلمة غرقى بنى الكلام على تشبيه المراد بالمأمور الذى لا يتأتى منه لكمال هيبته العصيان وتشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم النافذ فى تكون المقصود تصويراً لاقتداره العظيم ، وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام تابعة لإرادته إيجاداً وإعداما ولمشيئته فيها تغييراً وتبديلا كأنها عقلاء مميزون قد عرفوه حق معرفته وأحاطوا علما بوجوب الانقياد لأمره والاذعان لحكمه وتحتم بذل المجهود عليهم فى تحصيل مراده وتصوروا مزيد اقتداره فعظمت مهابته فى نفوسهم وضربت سرادقها فى أفنية ضمائرهم ، فكما يلوح لهم إشارته كان المشار إليه مقدما ، وكما يرد عليهم أمره كان المأمور به متمماً لا تلقى لإشارته بغير الامضاء والانقياد ولا لأمره بغير الاذعان والامتثال ، ثم بنى على تشبيهه هذا نظم الكلام ، فقال جل وعلا ،

قيل على سبيل المجاز عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل وجعل قرينة المجاز الخطاب للجماد وهو يا أرض ويا سماء ثم قال كما ترى يا أرض ويا سماء مخاطباً لهما على سبيل الاستعارة للشبه المذكور ثم استعار لغؤور الماء فى الأرض البلع الذى هو إعمال الجاذبة فى المطعوم للشبه بينهما وهو الذهاب إلى مقر خفى ، ثم استعار الماء للغذاء استعارة بالكناية تشبيها له بالغذاء لتقوى الأرض بالماء فى الانبات للزروع والأشجار تقوى الآكل بالطعام وجعل قرينة الاستعارة لفظة ابلعى لكونها موضوعة للاستعمال فى الغذاء دون الماء ، ثم أمر على سبيل الاستعارة للشبه المقدم ذكره وخاطب فى الأمر ترشحاً لاستعارة النداء ، ثم قال ماءك بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز تشبيها لاتصال الماء بالأرض باتصال الملك بالمالك واختار ضمير الخطاب لأجل الترشيح ، ثم اختار لاحتباس المطر الاقلاع الذى هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما فى عدم ما كان ، ثم أمر على سبيل الاستعارة وخاطب فى الأمر قائلا اقلعى لمثل ما تقدم فى ابلعى ، ثم قال — وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً — فلم يصرح بمن غاض الماء ولا بمن قضى الأمر وسوى السفينة وقال بعداً كما لم يصرح بقائل يا أرض ويا سماء فى صدر الآية سلوكا فى كل واحد من ذلك لسبيل الكناية أن تلك الأمور العظام لا تتأتى إلا من ذى قدرة لا يكتنه قهار لا يغالب فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره جلت عظمته قائل يا أرض ويا سماء ولا غائض مثل ما غاض ولا قاضى مثل ذلك الأمر الهائل أو أن تكون تسوية السفينة وإقرارها بتسوية غيره وإقراره ، ثم ختم الكلام بالتعريض تنبيهاً لسالكى مسلكهم فى تكذيب الرسل ظلما لأنفسهم لا غير ختم اظهار لمكان السخط ولجهة استحقاقهم إياه وأن قيمة الطوفان وتلك الصورة الهائلة ما كانت إلا لظلمهم .

وأما النظر فيها من حيث علم المعانى وهو النظر فى فائدة كل كلمة منها

وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها فذلك أنه اختير « يا » دون سائر أخواتها لكونها أكثر في الاستعمال وأنها دالة على بعد المنادى الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة وابداء شأن العزة والجبروت وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به ولم يقل يا أرض بالكسر لإمداد التهاون ولم يقل يا أيتها الأرض لقصد الاختصار مع الاحتراز عما في أيتها من تكلف التنبيه غير المناسب بالمقام ، واختير لفظ الأرض دون سائر أسمائها لكونه أخف وأدور ، واختير لفظ السماء لمثل ما تقدم في الأرض مع قصد المطابقة وستعرفها ، واختير لفظ ابلعي على ابتلعي لكونه أخصر ، ولمجيء حظ التجانس بينه وبين اقلعي أوفر ، وقيل ماءك بالافراد دون الجمع لما كان في الجمع من صورة الاستكثار المتأبى عنها مقام إظهار الكبرياء والجبروت وهو الوجه في إفراد الأرض والسماء وإنما لم يقل ابلعي بدون المفعول أن لا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وساكنات الماء بأسرهن نظراً إلى مقام ورود الأمر الذي هو مقام عظمة وكبرياء ، ثم إذا بين المراد اختصر الكلام مع اقلعي احترازاً عن الحشو المستغنى عنه وهو الوجه في ان لم يقل ، قيل يا أرض ابلعي ماءك فبلعت وياسماء اقلعي فأقلعت ، واختير غيض على غيض المشدد لكونه أخصر ، وقيل الماء دون أن يقال ماء طوفان السماء ، وكذا الأمر دون أن يقال أمر نوح وهو انجاز ما كان الله وعد نوحا من إهلاك قومه لقصد الاختصار والاستغناء بحرف التعريف عن ذلك ولم يقل سويت على الجودي بمعنى أقرت على نحو قيل وغيض وقضى في البناء للمفعول اعتبار البناء الفعل للفاعل مع السفينة في قوله - وهي تجري بهم في موج - مع قصد الاختصار في اللفظ ، ثم قيل بعدا للقوم دون أن يقال ليبعد القوم طلبا للتأكيد مع الاختصار وهو نزول بعدا منزلة ليبعدوا بعدا مع فائدة أخرى وهو استعمال اللام مع بعدا الدال على معنى أن البعد حق لهم ، ثم أطلق الظلم

ليتناول كل نوع حتى يدخل فيه ظلمهم أنفسهم لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم فى تكذيب الرسل ، هذا من حيث النظر إلى تركيب الكلم. وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل فذلك أنه قد قدم النداء على الأمر ، فقيل يا أرض ابلعى ويا سماء أقلعى دون أن يقال ابلعى يا أرض وأقلعى يا سماء جرياً على مقتضى اللازم فيمن كان مأموراً حقيقة من تقديم التنبيه ليتمكن الأمر الوارد عقيبه فى نفس المنادى قصداً بذلك لمعنى الترشيح ، ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء وابتدىء به لابتداء الطوفان منها ونزولها لذلك فى القصة منزلة الأصل ، والأصل بالتقديم أولى ثم أتبعهما قوله وغيض الماء لاتصاله بقصة الماء وأخذه بحجزتها ، ألا ترى أصل الكلام - قيل يا أرض ابلعى ماءك - فبلعت ماءها - ويا سماء أقلعى - عن إرسال الماء فأقلعت عن إرساله - وغيض الماء - النازل من السماء فغاض ، ثم أتبعه ما هو المقصود من القصة ، وهو قوله - وقضى الأمر - أى أنجز الموعود من إهلاك الكفرة وإنجاء نوح ومن معه فى السفينة ثم أتبعه حديث السفينة ، وهو قوله — واستوت على الجودى —. ثم ختمت القصة بما ختمت ، هذا كله نظر فى الآية من جانبى البلاغة .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهى كما ترى نظم للمعانى لطيف وتأدية لها ملخصة مبينة لا تعقيد يعثر الفكر فى طلب المراد ولا التواء يشيك الطريق إلى المرتاد بل إذا جربت نفسك عند استماعها وجدت ألفاظها تسابق معانيها ومعانيها تسابق ألفاظها ، فما من لفظة فى تركيب الآية ونظمها تسبق إلى أذنك إلا ومعناها أسبق إلى قلبك. وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية فألفاظها على ما ترى عربية مستعملة ، جارية على قوانين اللغة سليمة عن التنافر ، بعيدة عن البشاعة ، عذبة على العذبات ، سليسة على الاسلاسات ، كل منها كالماء فى السلاسة ، وكالعسل فى الحلاوة ، وكالنسيم فى الرقة .

ولله در شأن التنزيل لا يتأمل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لا تسع الحصر ولا تظنن الآية مقصورة على ما ذكرت ، فلعل ما تركت أكثر مما ذكرت[1] .

ومن خلال توضيح السكاكى لنظم هذه الآية الكريمة ، وما حوته من أسرار ونكت ولطائف يكشف أبو يعقوب كيف كان القرآن الكريم تركيبا فريداً من القول ، وكيف كانت الآية القرآنية بناء متكاملا ، وكيف سمت بلاغة القرآن لتنفرد بخصائص الصياغة ، وأسرار التراكيب بما جعلها فى أعلى درجات البلاغة إلى الحـــد الذى عجزت عنه بلاغة البلغاء ، وفصاحة الفصحاء .

وإذا كانت بلاغة القرآن قد بلغت النمط الأعلى للصياغة الفنية ، وكانت لبلاغته طرائق للنظم يبلغ بها حد الإعجاز ، فمن الخير أن نقف عند بعض الألوان البلاغية فى القرآن الكريم ، لنبين مدى عناية السكاكى بالتطبيق لهذه الألوان والفنون البلاغية على نظم القرآن وتراكيبه ، وأن غايته وهمه كانتا منصرفتين إلى الأسلوب القرآنى ، وما حواه من روعة البيان وسحر القول . فأساليب التأكيد ، والحذف والذكر ، والتقديم والتأخير وغيرها تتضافر فى إبراز عظمة القرآن فى بيانه ونظمه وتركيبه .

١ - من أسرار التوكيد :

استخدم القرآن الكريم التوكيد وسيلة لتثبيت المعنى فى نفوس قارئيه ، وإقراره فى أفئدتهم ، حتى يصبح عقيدة من عقائدهم ، كما استخدمه أيضا لأسرار بلاغية ولطائف أدبية ، لا يتم المعنى المقصود إلا بها .

فنرى القرآن يؤكد صفات الله عز وجل ، حتى يستقر الإيمان بها

---

(١) مفتاح العلوم صـ ١٧٦ وما بعدها .

فى القلوب، فتسمعه يقول مكرراً ومؤكداً فى كثير مما يكرره : «إن الله على كل شىء قدير» . «إن الله واسع عليم» . «إن الله سميع عليم» . «إن الله عزيز حكيم»[1].

ويزداد هذا المعنى وضوحاً إذا كان المخاطب بالكلام ممن ينكر ما اشتمل عليه من أحكام ، فيجب — حينئذ — أن يؤكد له الكلام حتى يزول إنكاره ، فإذا لم يقتنع ويؤمن زيد له من وسائل الإنكار وأدواته ما يجعله مطمئن القلب راسخ العقيدة .

وقد أشار السكاكى إلى ذلك عند حديثه على أضرب الخبر ، فأوضح أن القرآن الكريم - جريا على مقتضى ظاهر الحال - يأتى بالكلام مؤكداً لمخاطب منكر بما يدفع إنكاره ويرده إلى شاكلة الصواب ، فإذا لم يدفعه ما اشتمل عليه الكلام من التوكيد ضمن الكلام من وسائل التوكيد ما به يزول إنكار المخاطب وعناده .

يقول السكاكى : «وإذا ألقاها - يعنى الجملة - إلى حاكم فيها بخلافه ليرده إلى حكم نفسه استوجب حكمه ليترجح بحسب ما أشرب المخالف الإنكار فى اعتقاده . . . وإن شئت فعليك بكلام رب العزة علت كلمته «إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون» حيث قال أولا إنا إليكم مرسلون وقال ثانيا إنا إليكم لمرسلون كيف يقرر ما ألقى إليك»[2].

فقد أوضح أن التوكيد القرآنى يراعى الحالة التى عليها المخاطب . ويأتى

---

(١) أسرار البلاغة فى القرآن ص ٧٩ .

(٢) مفتاح العلوم ص ٧٤ .

بأدوات التوكيد على حسب هذه الحالة ، ألا ترى أن المرسلين قد أكدوا رسالتهم بـ (إن) عندما كذبهم أصحاب القرية ، فلما لج هؤلاء فى التكذيب زادوا فى تأكيد رسالتهم مؤكداً جديداً هو (اللام) واشهدوا ربهم على صدق دعواهم .

وللتوكيد أدوات كثيرة فى القرآن الكريم ، وقد أشار السكاكى إلى هذه الأدوات ، ومن أهمها إن واللام واسمية الجملة .

وذلك عند تعرضه للتوكيد فى قوله تعالى : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون .

فقد أشار السكاكى إلى أن قول المنافقين محمول على كونه مقروناً بأنه قول عن صميم القلب . كما يترجم عنه إن واللام وكون الجملة اسمية[1].

وقد نبه السكاكى بقوله « عن صميم القلب » إلى أن التوكيد يصار إليه أحياناً لغرض مرجعه إلى المتكلم نفسه وليس إلى المخاطب ، إذ أن المنافقين يعلمون أن المخاطب — وهو الرسول الكريم — لاينكر أنه رسول الله ، ولكن لما كان الشك قائماً فى نفوسهم بما يصل إلى درجة الإنكار ، وكان يقينهم بأن ما فى نفوسهم لابد أن يكون واضحاً على وجوههم ومسلكهم كانوا بحاجة إلى التأكيد إمعاناً فى إخفاء ما فى نفوسهم وما قد يبدو على وجوههم .

٢ — من أسرار الذكر والحذف :

لا تذكر كلمة فى القرآن إلا إذا اقتضاها السياق ، وتطلبها النظم

---

(١) المرجع السابق صـ ٧٢ .

ولا تحذف كلمة فى القرآن إلا وحذفها أبلغ وأنسب ، وأكثر ترابطا فى الأسلوب ، وأحكم للصياغة الفنية المعجزة . لأن نظم القرآن أرفع أنماط الكلام ، ومن ثم فلا حشو ولا تطويل يفسد به المعنى ، ويترتب عليه الملل، ولا اختصار تستغلق به الأفكار ويعسر معه الفهم ، بل لكل مقام مقال، ولكل موقف نمط عجيب من النظم ، بحيث تتداعى الألفاظ تداعيا طبيعيا حسبما تتطلبه المعانى وتقتضيه الأفكار وتنحدر فى سهولة ويسر ، حتى تتماسك فى مواضعها التى هيئت لها .

فللذكر مجاله فى الصياغة القرآنية ، وللحذف مجاله هو الآخر ، ووراء كل منهما من المعانى الإضافية ما يؤكد فكرة النظم القرآنى الذى به يتعلق مناط الإعجاز [١]

وقد تعرض السكاكى لكثير من دواعى الذكر سواء فيما يتعلق بالمسند إليه أو المسند أو غيرهما . ومن أهم هذه الدواعى فى القرآن الكريم الرغبة فى إطالة الكلام ، لأن إصغاء السامع مطلوب ، وحينئذ يبسط الكلام .

نجد هذا عند تعرضه لأحوال ذكر المسند إليه فقد ذكر من هذه الدواعى أن يكون إصغاء السامع مطلوبا فيبسط الكلام ثم أوضح أن موسى — عليه السلام — بسط كلامه مع ربه لأجل هذا المعنى « إذ قيل له وما تلك بيمينك » وكان يتم الجواب بمجرد أن يقول عصا ، ثم ذكر المسند إليه وزاد فقال « هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى »[٢].

وبتأمل قليل نلاحظ أن الله — جل وعلا — كان يعد موسى للذهاب

---

(١) فكرة النظم بين وجوه الإعجاز ص ١٨٨ .

(٢) مفتاح العلوم ص ٧٧ .

إلى فرعون وهو من هو فى التسلط والجبروت والظلم ، وموسى لم يتمرس بعد بمعجزاته من العصا وضم يده إلى جناحه تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ، فكرر ذكر اسمه فى ثلاثة الأرباع الأولى من سورة « طه » ست عشرة مرة ، وهى التى تنتهى عندها قصته .

فكان لابد من الذكر حتى تزول آثار الخوف ، وتكسوه سمات الاطمئنان ، ويقدم إلى فرعون الطاغية[1] .

ونظيره فى البسط والذكر قوله تعالى « نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين » ، ويوضح السكاكى هذا السر فى الآية الكريمة بقوله « قد بسطوا الكلام ابتهاجاً منهم بعبادة الأصنام وافتخاراً بمواظبتها منحرفين عن الجواب المطابق المختصر ، وهو : أصناما »[2] .

فالبسط فى هذه الآية يختلف قليلا عن البسط فى الآية السابقة ، إذ أن البسط هنا ملحوظ فيه الإصرار على العبادة وتأكيدها ، وتسفيه أحلام المخاطب إذ سألهم « ماتعبدون » استنكاراً لما يفعلونه من عبادة مالا ينفعهم شيئاً ولا يضرهم . فجاء جوابهم بذكر العبادة استلذاذاً لها ، وتنبيهاً على إصرارهم لما هم عليه ، وأما البسط هناك فى السابقة فملحوظ فيه إزالة الخوف وبعث الطمأنينة لما هو قادم إليه بجانب ما فيه من التلذذ بتلك الإطالة .

وأما دواعى الحذف فى القرآن الكريم فكثيرة ، فقد تعمد بعض الأساليب القرآنية إلى حذف بعض الكلمات أو الجمل لوجود مايدل عليها ، أو لأن حذفها ينطوى على بعض الأسرار التى يقتضيها المقام ، ولا يتم المعنى المقصود إلا بها .

---

(١) فكرة النظم ص ١٨٩ .

(٢) مفتاح العلوم ص ٧٧ .

فالحذف من الأبواب الساحرة التي يقوم عليها نظم القرآن وإعجازه ، وقد وصفه عبد القاهر بقوله « هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر . فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن ، وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر ، وتدفعها حتى تنظر .. وما من اسم أو فعل تجده قد حذف ، ثم أصيب به موضعه وحذف في الحال ينبغي أن يحذف فيها إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره ، وترى إضماره في النفس أولى وآنس من النطق به[١] .

وقد تعرض السكاكي لحذف المسند إليه في أساليب القرآن الكريم مبيناً ما انطوت عليه من أسرار ولطائف ، فذكر أن الأغراض التي يقوم عليها حذف المسند إليه تأتي مناسبة للمقامات والأحوال ، ولا يهتدى إليها إلا العقل السليم والطبع المستقيم .

وقد ضرب لذلك أمثلة قرآنية عديدة تاركاً لذهن القارىء وطبعه استنباط ما قامت عليه أغراض الحذف ، فمن ذلك قوله تعـــالى « سورة أنزلناها وفرضناها » ، إذ لم يقل : هذه سورة أنزلناها ، حيث إن الاستعمال وارد على تركه أو ترك نظائره . وقوله تعالى : « وما أدراك ماهية نار حامية » ويمكنك تأمل الفرق بين الذكر والحذف بإثارة الفرق بالسؤال عن القارعة يقتضي الإسراع بذكرها مع حذف المبتدأ . وكذا ما تجده من الحذف في قوله تعالى : « فصبر جميل » وقوله « طاعة معروفة » على أحد الاعتبارين فيهما ، وهو فأمري صبر جميل وأمركم ، أو الذي يطلب منكم أو طاعتكم طاعة معروفة بحسب تفسير المعروفة[٢] .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٠٤ ، ١١٠ .

(٢) مفتاح العلوم ص ٧٧ .

وقد يكون الحذف لقصد الاختصار والاحتراز عن العبث ، كحذف المسند في قوله عز وجل « أفأنبئكم بشر من ذلكم النار » إذا جعلته على تقدير النار شر من ذلكم[١] .

وكما يجيء حذف المسند في القرآن الكريم للاختصار والبعد عن التطويل يجيء حذفه أيضاً لأغراض كثيرة منها : تخييل أن العقل عند الترك هو معرفة ، وأن اللفظ عند الذكر هو معرفة من حيث الظاهر وبين المعرفتين بون . ولك أن تأخذ من هذا القبيل قوله عز وعلا « والله ورسوله أحق أن يرضوه »[٢] .

ويشير السكاكي إلى حذف الجمل في الأساليب القرآنية قصداً إلى الإيجاز الذي يتطلبه المقام وتستدعيه المقاصد ، فيقول : « انظر إلى الفاء التي تسمى فاء فصيحة في قوله تعالى : « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم » كيف أفادت فامتثلتم فتاب عليكم[٣] » .

ويذكر السكاكي حذف الجمل على رأي الزمخشري في قوله تعالى « ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله » فلقد قدر : ولقد آتينا داود وسليمان علما فعملا به وعلماه وعرفا حق النعمة فيه والفضيلة وقالا الحمد لله . ثم يعقب على رأي الزمخشري بقوله : « ويحتمل عندي أنه أخبر تعالى عما صنع بهما وأخبر عما قالاه ، كأنه قال : نحن فعلنا إيتاء العلم وهما فعلا الحمد تفويضاً استفاده ترتب الحمد على إيتاء العلم إلى فهم السامع مثله في قم

---

(١) المصدر السابق صـ ٨٩ .
(٢) المصدر السابق ـ الموضع السابق .
(٣) السابق صـ ١٢١ .

يدعوك بدل قم فإنه يدعوك وانه فن من المبالغة لطيف المسلك[١] » .

ومن أمثلة الحذف للاختصار قوله تعالى : « فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا » يقول السكاكى « بطى أبحت لكم الغنائم » لدلالة فاء التسبيب فى فكلوا »[٢] .

والأمثلة القرآنية التى تدل على اهتمام السكاكى بأساليب الحذف فى القرآن الكريم أكثر من أن تحصى ، فقد كشف النقاب — بحاسة البصير وذوق الخبير — عن كثير من اللطائف القرآنية التى يقوم عليها هذا اللون العجيب .

٣ — من أسرار التعريف والتنكير :

تعرض السكاكى لدواعى تعريف الاسم وتنكيره فى باب المسند إليه والمسند ، فأبان عن كثير من الأسرار القرآنية التى يأتى الاسم من أجلها معرفاً أو منكراً ، وأوضح أن ذلك له مدخله فى روعة النظم وبلاغة الأساليب ، وأن الأحوال تقتضى كلا من التعريف والتنكير ، ومن ثم كان لهما مدخلهما فى نظم القرآن وإعجازه .

ففى باب المسند إليه ذكر أن الحالة التى تقتضى تعرفه فهى إذا كان المقصود من الكلام إفادة السامع فائدة يعتد بمثلها ، والسبب فى ذلك هو أن فائدة الخبر لما كانت هى الحكم أو لازمه ، ولا شبهة أن احتمال تحقق الحكم متى كان أبعد كانت الفائدة فى تعريفه أقوى ، ومتى كان أقرب كانت أضعف ، وبعد تحقق الحكم بحسب تخصيص المسند إليه والمسند كلما ازداد تخصصاً

---

(١) السابق — الموضع السابق .
(٢) السابق — الموضع السابق .

ازداد الحكم بعداً وكلما ازداد عموماً ازداد الحكم قرباً[١] » .

وفى تعريف المسند إليه بالضمير ذكر أن الخطاب حقه أن يكون مع مخاطب معين ، ثم يترك إلى غير معين ، وهو فى القرآن الكريم كثير ، وفى كل موضع نجد لطيفة وسراً يقوم عليها هذا اللون من الخطاب .

ويبين السكاكى النكتة فى تعميم الخطاب فى قوله تعالى « ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم » بأنها القصد إلى تفظيع حال المجرمين ، وأن قد بلغت من الظهور إلى حيث يمتنع خفاؤها البتة فلا تختص رؤية راء دون راء ، بل كل من يتأتى منه الرؤية ، فله مدخل فى هذا الخطاب[٢] .

وجاء المسند إليه علماً فى قوله تعالى « تبت يدا أبى لهب وتب » حيث القصد إلى إهانته بهذه الكنية والاسم صالح لهذه الإهانة[٣] .

وعدل القرآن الكريم عن التصريح إلى الاسم الموصول فى قوله تعالى « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه » قصداً لزيادة التقرير كما ذكر السكاكى ثم قال معلقاً على هذه اللطيفة فى الآية الكريمة « والعدول عن التصريح باب من البلاغة يصار إليه كثيراً[٤] » .

وجاء المسند إليه اسم إشارة فى قوله تعالى « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » قصداً إلى كمال العناية بتمييزه وتعيينه[٥] ، وقد يكون القصد بالإشارة إليه تحقيره واسترذاله كما يحكيه رب العزة عز وعلا عن

---

(١) السابق ص ٧٧ . (٢) السابق ص ٧٨ .
(٣) السابق — الموضع السابق .
(٤) السابق — الموضع السابق .
(٥) السابق ص ٧٩ .

الكفار « ماذا أراد الله بهذا مثلا » وفى موضع آخر « أهذا الذى بعث الله رسولا » وفى موضع آخر « أهذا الذى يذكر آلهتكم » ومنه « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب »[1] .

وكما يكون القصد باسم الإشارة التحقير يكون القصد به التعظيم والدلالة على بعد منزلته ، وذلك ما نراه فى قوله تعالى « آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه » ذهاباً إلى بعد درجته ، وقول امرأة العزيز فيما يحكيه جل وعلا قالت « فذلكن » ولم تقل « فهذا » ويوسف حاضر رفعا لمنزلته فى الحسن واستحقاق أن يحب ويفتتن به واستبعاداً لمحله ، ومنه قوله تعالى « وتلك الجنة التى أورثتموها »[2] .

وقد يجيء تعريف المسند إليه باللام متى أريد به نفس الحقيقة ، كقوله عز من قائل « وجعلنا من الماء كل شيء حى » أى جعلنا مبدأ كل شيء فى هذا الجنس الذى هو جنس الماء ، يأتى فى الروايات أنه جل وعلا خلق الملائكة من ريح خلقها من الماء والجن من نار خلقها منه وآدم من تراب خلقه منه »[3] .

وكذا ما نراه فى قوله تعالى « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة » ويشير السكاكى إلى أن قرب المسافة بين الاسم المعرف بلام الحقيقة وبين غير المعرف ، فإن المعرف بها يعامل معاملة غير المعرف .

أما التعريف باللام فى قوله تعالى « إن الإنسان لفى خسر » وقوله : « والسارق والسارقة » وقوله « ولا يفلح الساحر حيث أتى » فللدلالة على

---

(١) السابق ص ٨٠ . (٢) السابق — الموضع السابق .
(٣) السابق — الموضع السابق .

العموم والاستغراق (١) .

ويعرف المسند إليه بلام العهد إذا كان حصة معهودة من الحقيقة ، كما في قوله تعالى « وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم » فجمع السحرة ، وفي موضع آخر « كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول (٢) .

ويشير السكاكي إلى تنكير دابة في قوله تعالى « والله خلق كل دابة من ماء » بقوله : أي من نوع من الماء مختص بتلك الدابة ، أو من ماء مخصوص وهي النطفة (٣) .

ويبين النكتة في التنكير في قوله تعالى حكاية عن الكفار في حق النبي — عليه السلام — « هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد » فقد نكر « رجل » للتجاهل ، كأن لم يكونوا يعرفون عنه إلا أنه رجل ما .

وقد أوضح السكاكي معنى التجاهل وسر روعته في قوله : « ترى أنك لا تعرف منه إلا جنسه ، كما إذا سمعت شيئاً في اعتقادك فاسداً عمن هو مفتر كذاب ، وأردت أن تظهر لأصحاب لك سوء اعتقادك به قلت : هل لكم في حيوان على صورة إنسان يقول : كيت وكيت متفادياً أن تقول في فلان فتسميه ، كأنك لست تعرف منه ولا أصحابك إلا تلك الصورة ، ولعله عندكم أشهر من الشمس ، ثم قال : وباب التجاهل في البلاغة وإلى سحرها (٤) .

---

(١) السابق — الموضع السابق .
(٢) السابق — الموضع السابق .
(٣) السابق ص ٨٣ . (٤) السابق — الموضع السابق .

والتنكير في قوله تعالى « وعلى أبصارهم غشاوة » لتهويل أمرها ، وفي قوله تعالى « ولكم في القصاص حياة » على معنى ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة لمنعه عما كانوا عليه من قتل الجماعة بواحد متى اقتدروا ، أو نوع من الحياة وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لمكان العلم بالاقتصاص ، أو ما ترى إذا هم بالقتل فتذكر الاقتصاص ، فأورثه أن يرتدع كيف يسلم صاحبه من القتل ، وهو من القود ، فيتسبب لحياة نفسين »[1].

والنظم القرآني عدل عن التعريف إلى التنكير في قوله تعالى « فأذنوا بحرب من الله ورسوله » ، فلم يقل بحرب الله ورسوله قصداً إلى التعظيم والتهويل[2] .

وبخلاف ذلك - يعني لقصد التهوين والتقليل - قال : وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر » دون أن يقول : ورضوان الله قصداً إلى إفادة وقدر يسير من رضوانه خير من ذلك كله لأن رضاه سبب كل سعادة وفلاح[3].

ومثل هذه اللفتات في الكشف عن أسرار التعريف والتنكير في نظم القرآن وأسلوبه نجدها كثيرة عند السكاكي ومبثوثة في مواضع متفرقة من مفتاحه ، وكلها تدل على قوة عارضته وتمرسه بالأساليب العربية ، واهتمامه بالنظم القرآني المعجز .

---

(١) السابق . الموضع السابق .

(٢) السابق - الموضع السابق .

(٣) المصدر السابق ص ٨٣ ، ٨٤ .

٤ - من أسرار التقديم والتأخير :

التقديم والتأخير باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية . لا يزال يفتر لك عن بديعة ويفضى بك إلى لطيفة : ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان(١).

وقد أولى السكاكى هذا اللون البلاغي ما يستحقه من العناية والاهتمام، ودرسه دراسة موزعة على مباحث القسم الثالث من كتابه ، فبعضها يتعلق بالمسند إليه ، وبعضها يتعلق بالمسند ، وثالث يتعلق بالمعمولات ، ورابع يتعلق بالاستفهام ... وهكذا .

وهو فى كل ما تعرض له من قواعد هذا اللون وأغراضه يعنى عناية فائقة بإبراز جماله وروعته فى أساليب القرآن الكريم ونظمه، كاشفاً أسرار ما قدم وما أخر فى كل أسلوب ، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى عدا .

فمن ذلك ما نراه من تقديم المسند فى قوله تعالى « ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » حيث ذكر أن الغرض من التقديم التنبيه على أن المقدم خبر لا نعت ، كقوله :

له همم لا منتهى لكبارهـــا وهمته الصغرى أجل من الدهر(٢)

ويشير السكاكى إلى تقديم المسند إليه على الخبر الفعلى ، فيذكر أنه يفيد تقوى الحكم ، دون التخصيص إذا لم يقدر أنه كان فى الأصل مؤخراً ثم قدم .

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ٨٢ .

(٢) مفتاح العلوم صـ ٩٥ .

وعلى هذا جاء التقديم لتقوية الحكم وتوكيده في قوله عز وعلا : « واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون » ليس المراد أن شيئا سواهم لا يخلق إنما المراد تحقيق أنهم يخلقون . وقوله : « إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » وقوله: « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون » وقوله : « وإذا جاؤوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به »[١].

ويبين السكاكي سبب تقوية الحكم في هذا التقديم بقوله : « وسبب تقويه هو أن المبتدأ لكونه مبتدأ يستدعى أن يسند إليه شيء فإذا جاء بعده ما يصلح أن يسند إليه صرفه المبتدأ إلى نفسه فينعقد بينهما حكم سواء كان خاليا عن ضمير المبتدأ نحو زيد غلامك ، أو كان متضمنا له ، نحو أنا عرفت وأنت عرفت وهو عرف أو زيد عرف ثم إذا كان متضمنا لضمير صرفه ذلك الضمير إلى المبتدأ ثانيا ، فيكتسى الحكم قوة » فإذا قلت : هو يعطى الجزيل كان المراد تحقيق إعطائه الجزيل عند السامع دون تخصيص إعطاء الجزيل »[٢] .

أما إذا قدر المسند إليه المقدم أنه كان في الأصل مؤخرا ثم قدم فإنه يفيد التخصيص مع التقويه والتوكيد .

ومن ذلك ما تراه في قوله تعالى : « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم » يقول : « المراد لا يعلمهم إلا الله ، ولا يطلع على أسرارهم غيره لا بطانهم الكفر في سويداوات قلوبهم »[٣].

---

(١) المصدر السابق ص ٩٦ .

(٢) « « — الموضع السابق .

(٣) السابق ـ السابق .

ويبين السكاكي سر التقديم في قوله تعالى حكاية عن قوم شعيب «وما أنت علينا بعزيز» فالتقديم هنا لإفادة تخصيص المسند بالمسند إليه تنبيهاً للسامع على خطئه، وقصداً لإزالة هذا الخطأ، يعنون أن العزيز علينا يا شعيب رهطك لا أنت، لكونهم من أهل ديننا، ولذلك قال — عليه السلام — في جوابهم: «أرهطي أعز عليكم من الله» أي من نبي الله، ولو أنهم كانوا قالوا: وما عززت علينا لم يصح هذا الجواب[1].

والتقديم في قوله تعالى: «إياك نعبد وإياك نستعين» للتخصيص، يقولون: نخصك بالعبادة لا نعبد غيرك، ونخصك بالاستعانة منك لا نستعين أحداً سواك، وكذا في قوله تعالى «إن كنتم إياه تعبدون» أي إن كنتم تخصونه بالعبادة[2].

ويذهب السكاكي إلى أن التقديم في قوله تعالى «وبالآخرة هم يوقنون» إلى جانب إفادته التخصيص يفيد التعريض بأن الآخرة التي عليها أهل الكتاب فيما يقولون أنها لا يدخل الجنة فيها إلا من كان هوداً أو نصارى، وأنها لا تمسهم النار فيها إلا أياماً معدودات، وأن أهل الجنة فيها لا يتلذذون في الجنة إلا بالنسيم والأرواح العبقة والسماع اللذيذ ليست بالآخرة وإيقانهم بمثلها ليس من الإيقان بالتي هي الآخرة عند الله في شيء[3].

وينقل السكاكي عن أئمة المعاني في قوله تعالى «لتكونوا شهداء على

---

(١) المصدر السابق ص ١٠١ .
(٢) السابق — السابق .
(٣) السابق — السابق .

الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » قولهم : أخرت صلة الشهادة أولا وقدمت ثانياً لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم وفي آخر لاختصاصهم بكون الرســـول شهيداً عليهم . وفي قوله تعالى « لإلى الله تحشرون » قولهم : إليه لا إلى غيره . وفي قوله تعالى « وأرسلناك للنـاس رسولا » قولهم إن تعريف الناس على الاستغراق ، ويقولون المعنى لجميع الناس رسولا وهم العرب والعجم ، لا العرب وحدهم ، دون أن يحملوه على تعريف العهد أو تعريف الجنس ، لئلا يلزم من الأول اختصاصه ببعض الانس ، لوقوعه في مقابلة كلهم ، ومن الثانى اختصاصه بالإنس دون الجن[1] .

ويبين السكاكى سر تقديم الظرف في قوله تعالى « لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون » بأنه للتعريض بخمور الدنيا ، وأن المعنى هي على الخصوص لا تغتال العقول اغتيال خمور الدنيا[2] .

والأمثلة على عناية السكاكى بهذا الباب ، وبيان أسراره ولطائفه في القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة ، وتستحق أن يفرد لها بحث خاص ، وإنما قصدت أن أبرز جانباً من هذا الاهتمام لأؤكد اهتمامه بالنظم القرآنى وأسراره ، واستجلاء المقامات والأحوال الداعية إلى ألوان ذلك النظم المعجز ، والتى يعد التقديم والتأخير من أبرز هذه الألوان وأحلاها وأكثرها روعة وسحراً .

---

(١) السابق — السابق .
(٢) المصدر السابق ص ١٠٢ .

٥ - من أسرار الفصل والوصل :

عقد الإمام عبد القاهر الجرجانى فى « دلائل الإعجاز » فصلا للحديث عن الفصل والوصل جاء فيه : « أن العلم بما ينبغى أن يصنع فى الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها من أسرار البلاغة ومما لا يأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص ، والأقوام طبعوا على البلاغة ، وأوتوا فناً من المعرفة فى ذوق الكلام هم بها أفراد ، وقد بلغ من قوة الأمر فى ذلك أنهم جعلوه حداً للبلاغة ، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال : معرفة الفصل من الوصل ، وذاك لغموضه ودقة مسلكه ، وإنما لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معانى البلاغة »[١] .

والسكاكى عندما خصص الفن الرابع من علم المعانى لهذا اللون الرفيع من ألوان النظم لم يفته أن ينبه فى مستهله على منزلته وعلو شأنه فى بلاغة الكلام ، فهو محك هذه البلاغة ومبعث سحرها وجمالها .

فيقول عن هذا اللون إنه « مركوز فى ذهنك لا تجد لرده مقــالا ولا لارتكاب جحده مجالا أن ليس يمتنع بين مفهومى جملتين اتحاد بحكم التآخى وارتباط لأحدهما بالآخر مستحكم إلا وآخى . ولا أن يباين أحدهما الآخر مباينة الأجانب لانقطاع الوشائج بينهما من كل جانب ، ولا أن يكونا بين بين لآصرة رحم ما هنالك فيتوسط حالها بين الأولى والثانية لذلك ، ومدار الفصل والوصل وهو ترك العاطف وذكره على هذه الجهات ، وكذا طى الجمل عن البين ولا طيها وأنها لمحك البلاغة ومنتقد البصيرة ومضمار النظار ومتفاضل الأنظار ومعيار قدر الفهم ومسبار غور الخاطر ومنجم صوابه وخطئه ومعجم جلائه وصدائه وهى التى إذا طبقت فيها

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ١٥٤ .

المفصل شهدوا لك من البلاغة بالقدح المعلى وان لك فى إبداع وشيها اليد الطولى[1] ».

وقد كان هم السكاكى فى كل ما عرض له من قواعد هذا الفن ومسائله التطبيق والتدريب على آى الذكر الحكيم ، كاشفاً عن الأسرار والدواعى التى تمكن فى كثير من الأســاليب القرآنية التى جاءت على الفصل أو الوصل .

فمن مواضع الفصل أن تكون الجملة الثانية مقررة ومؤكدة للأولى ، فيكون الفصل لكمال اتصال بين الجملتين . وقد وقع فى القرآن الكريم كثيراً .

من ذلك قوله تعالى : « الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » لم يعطف لا ريب على ذلك الكتاب حين كان وزانه فى الآية وزان نفسه فى قولك : « جاءنى الخليفة نفسه » أو وزان بينا فى قولك هو الحق بينا ، يدلك على ذلك أنه حين بولغ فى وصف الكتاب ببلوغه الدرجة القصيا من الكمال والوفور فى شأنه تلك المبالغة ، حيث جعل المبتدأ لفظة ذلك وأدخل على الخبر حرف التعريف كان السامع قبل أن يتأمل مظنة أن ينظمه فى سلك ما قد يرمى به على سبيل الجزاف من غير تحقيق وإيقان فاتبعه لا ريب فيه نفيا لذلك . وقد أصيب به المحز اتباع نفسه الخليفة إزالة لما عسى يتوهم السامع أنك فى قولك : جاءنى الخليفة متجوزاً أو ساهياً وتقرير كونه حالا مؤكدة ظاهر . وكذلك فصل « هدى للمتقين » لمعنى التقرير فيه للذى قبله ، لأن قوله « ذلك الكتاب لاريب فيه » مسوق لوصف التنزيل

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٠٨ .

بكمال كونه هادياً ، وقوله « هدى للمتقين » معناه نفسه هداية محضة بالغة درجة لا يكتنه كنهها ، وأنه فى التأكيد والتقرير لمعنى أنه كامل فى الهداية كما ترى[١] .

ومن الفصل لكمال الاتصال حيث كانت الجملة الثانية بياناً وتوضيحاً للأولى قوله تعالى : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون » .

يقول السكاكى : « لم يعطف يخادعون على ما قبله لكونه موضحاً له ومبيناً من حيث إنهم حين كانوا يوهمون بألسنتهم أنهم آمنوا وما كانوا مؤمنين بقلوبهم قد كانوا فى حكم المخادعين »[٢] .

وكذا قوله تعالى : « فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » لم يعطف قال على وسوس لكونه تفسيراً له وتبييناً[٣] .

وجاء الفصل فى قوله تعالى : « بل قالوا مثل ما قال الأولون ، قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون » لقصد البدل ، ولك أن تحمله على الاستئناف . وكذا قوله تعالى : « أمدكم بما تعملون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون » . وكذا قوله عز وعلا : « اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون » .

ويوضح السكاكى الاستئناف الواقع فى كثير من آيات القرآن الكريم

---

(١) المصدر السابق ص ١١٦ .
(٢) المصدر السابق — الموضع السابق .
(٣) السابق — السابق .

مبيناً سره ، شارحاً ما ينطوى عليه من معان ومقاصد . من ذلك ما نراه فى قوله تعالى « أولئك على هدى من ربهم » .

يقول السكاكى : (جاء مفصولا عما قبله بطريق الاستئناف كأنه قيل ما للمتقين الجامعين بين الإيمان بالغيب فى ضمن إقامة الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله تعالى وبين الإيمان بالكتب المنزلة فى ضمن الإيقان بالآخرة اختصوا بهدى لايكتنه كنهه ولا يقادر قدره مقولا فى حقهم هدى للمتقين الذين والذين ، بتنكير هدى ، فأجيب بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد ولا مستبدع أن يفوزوا دون من عداهم بالهدى عاجلا وبالفلاح آجلا . ولك أن تقدر تمام الكلام هو المتقين وتقدر السؤال ويستأنف الذين يؤمنون بالغيب إلى مسافة الكلام ، وأنه أدخل فى البلاغة ، لكون الاستئناف على هذا الوجه منطوياً على بيان الموجب ، لاختصاصهم بما اختصوا به ، على نحو ما تقول أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل منك لما فعلت ولك أن تخرج الآية عما نحن بصدده بأن يجعل الموصول الأول من توابع المتقين ، إما مجروراً بالوصف أو منصوباً بالاختصاص ، وتجعل الموصول الثانى مبتدأ وأولئك خبره مراداً به التعريض لمن لم يؤمنوا من أهل الكتاب ، جاعلا الجملة برأسها من مستتبعات هدى للمتقين والفصل من هذه الوجوه لاستئناف الذين لا يؤمنون بالغيب لجهات فتأملها »[1] .

وهذا التوضيح الوافى لبيان مايفيده الاستئناف فى الآية الكريمة السابقة نجده عند السكاكى فى كثير مما عرض له من الأساليب القرآنية المعجزة .

ومن ذلك قوله تعالى « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على

---

(١) السابق — السابق .

كل أفاك أثيم » وقوله : « قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال ان رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين قال أو لو جئتك بشىء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين » فإن الفصل فى جميع ذلك بناء على أن السؤال الذى يستصحبه تصور مقام المقاولة من نحو : فماذا قال موسى ؟ فماذا قال فرعون ؟ .

ثم يقول السكاكى : « وسلوك هذا الأسلوب فى القرآن كثير »[1] .

وفى الوصل بين الجملتين للتوسط بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع يبين السكاكى أنه لا بد من جهة جامعة تشترك فيها الجملتان ، وقد تدق هذه الجهة فى بعض المواضع ، ومن ثم فإن لصاحب المعانى فضل احتياج فى هذا الفن إلى التنبه لأنواع هذا الجامع والتيقظ لها .

ثم يقول موضحاً دقة القرآن الكريم فى مراعاة هذه الجهة الجامعة : « قل لى إذا لم يوفه حقه من التيقظ وأنه من أهل المدر أنى يستحلى كلام رب العزة مع أهل الوبر حيث يبصرهم الدلائل ناسقاً ذاك النسق « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت » لبعد البعيد عن خياله فى مقام النظر ، ثم لبعده فى خياله عن السماء وبعد خلقه عن رفعها وكذا البواقى ، لكن إذا وفاه حقه بتيقظه لما عليه تقلبهم فى حاجاتهم جاء الاستحلاء ، وذلك إذا نظر أن أهل الوبر إذا كان مطعمهم ومشربهم

(١) السابق ص ١١٥ ، ١١٦ .

وملبسهم من المواشي كانت عنايتهم مصروفة لا محالة إلى أكثرها نفعاً وهي الإبل ، ثم إذا كان انتفاعهم بها لا يتحصل إلا بأن ترعى وتشرب كان جل مرمى غرضهم نزول المطر ، وأهم مسارح النظر عندهم السماء ثم إذا كانوا مضطرين إلى مأوى يأويهم وإلى حصن يتحصنون فيه ولا مأوى ولا حصن إلا الجبال .

لنا جبل يحتله من نجيره   منيع يرد الطرف وهو كليل

فما ظنك بالتفات خاطرهم إليها ، ثم إذا تعذر طول مكثهم في منزل ومن لاصحاب مواش بذاك كان عقد الهمة عندهم بالتنقل من أرض إلى سواها من عزم الأمور ، فعند نظره هذا أيرى البدوي إذا أخذ يفتش عما في خزانة الصور له لا يجد صورة الإبل حاضرة هناك أو لا يجد صورة السماء لها مقارنة أو تعوزه صورة الجبال بعدهما أو لا تنص إليه صورة الأرض تليها بعدهن لا وإنما الحضري حيث لم تتآخذ عنده تلك الأمور وما جمع خياله تلك الصورة على ذلك الوجه إذا تلا الآية قبل أن يقف على ما ذكرت ظن النسق بجهله معيباً للعيب فيه[1] .

فتراه في كشفه لهذه الجهة التي تجمع بين هذه الأشياء في خيال واحد ينبه إلى الروعة والسحر اللذين جاء عليهما الأسلوب القرآني . فهذه الصورة تجتمع في خيال البدوي لأنها من وحي بيئته ، وما تتطلبه حياته في حله وترحاله ، فينبغي لأهل الحضر أن يتنبهوا إلى هذه الدقيقة وإلى ربط الخطاب بمن خوطب به وكذا بأحواله وما عليه بيئته ، ولن يستطيع أن يفهم السر العميق وراء هذه الأساليب وأمثالها إلا إذا فطن إلى ذلك ،

---

(١) المصدر السابق ص ١١٢ .

وعلى الرغم من كثرة الأمثلة التى ساقها وشرحها فى كل موضع من مواضع الفصل والوصل نجد السكاكى يشير إلى كثرة الأمثلة القرآنية فى كل موضع بحيث يضيق كتابه عن حصرها وإحصائها فيقول : (وأمثال ذلك أكثر من أن أحصيها)[1] .

وقد كان السكاكى واضحاً كل الوضوح فى ربطه قواعد هذا الباب ومسائله بالآيات القرآنية ، كما كان مهتماً بالشرح والبيان لكل ما عرض له من الشواهد والأساليب القرآنية مما يدل على إدراكه لروعة هذا الباب وسحره فى نظم القرآن الكريم .

ولو أردنا أن نعرض لكل الألوان البلاغية التى عرض لها السكاكى لنقف على عنايته واهتمامه بإبراز هذه الألوان فى أساليب القرآن الكريم والتطبيق لها على نظمه المعجز لخرج بنا الحديث عن القصد ، ولطال بنا الكلام بما يبعدنا عن الهدف الأصلى لهذا الكتاب .

فهدفنا الأساسى هو وضع العمل الذى قدمه السكاكى فى « مفتاح العلوم » فى موضعه الحقيقى الذى أراد له صاحبه ، وإبراز غرضه وهدفه ومقصوده بحيث لا يضل القارىء هذه الأمور فى خضم القواعد التى ساقها فى كتابه ، فيخلط بين هذه القواعد وهدف السكاكى من كتابه ، ويرمى الرجل باتهامات باطلة هو منها براء .

ومن ثم فإننا نكتفى بالألوان السابقة للتدليل — فقط — على عناية السكاكى بالنظم القرآنى ، واهتمامه بإبراز الإعجاز القرآنى فى هذا الجانب .

---

(١) السابق صـ ١١٣ .

فالعناية والاهتمام التى رأيناها للسكاكى فيما سبق من ألوان نراها فى باقى الألوان والمسائل البلاغية ، كالقصر ، والفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب ، وكذا التشبيه والمجاز والكناية وغير ذلك من الألوان التى ضمنها كتابه ، فقد كان حريصاً على ربط هذه الألوان والفنون البلاغية بالنظم القرآنى ، وتطبيقها على آيات الذكر الحكيم ، بحيث يصبح هدفه من الكتاب واضحاً فى كل مبحث من مباحثه ، وهو التدليل على إعجاز القرآن الكريم ، وإبراز عظمته وروعته فى نظمه وأسلوبه .

● ● ●

الفصل الرابع

السكاكي بين التأثر والتأثير

وفيه مبحثان :

الأول : تأثر السكاكي بمن سبقه .

الثاني : أثر السكاكي فيمن بعده .

المبحث الأول

تأثر السكاكى بمن سبقه

– ١ –

أوضحنا – فيما سبق – أن مفتاح العلوم هو الأثر الوحيد الباقى من تراث السكاكى ، وأن الحكم للرجل أو عليه ، والتعرف على مناحى عقله وفكره إنما يكون من خلال هذا الكتاب .

وقد استطاع السكاكى – فى مدة قصيرة من عمره – أن يتبحر فى العلوم المختلفة ، وأن يحذق فيها ، ولاسيما علوم العربية التى عرف له إقباله عليها .

وقد تنوعت ثقافة الرجل وتعددت جوانبها ، فمن دراسات قرآنية إلى فقهية ، إلى جانب نبوغه فى العلوم اللغوية ودراسة المنطق وعلم الكلام ، وكان إلمامه بالمنطق وعلم الكلام يفوق أى جانب آخر من جوانب ثقافته المتعددة ، ولا عجب فقد وصفه ياقوت بأنه « فقيه متكلم متفنن فى علوم شتى »[1] .

وهذه الثقافة المتنوعة المتعددة الجوانب نجد أصداءها فى ثنايا كتابه خادمة لقضية الإعجاز بالنظم التى هى شغله الشاغل فى كتابه ، فهناك إلى جانب إلمامه باللغة ومفرداتها بصر بقواعد الصرف والاشتقاق ، وإتقان لمسائل النحو ووظيفته ، وإدراك تام لعلمى المعانى والبيان والوان البديع ، ثم الوقوف على علم الاستدلال وعلم الشعر أوزانه وقوافيه إلى غير ذلك

---

(١) معجم الأدباء ٢٠/٥٩ .

عما له ارتباط واتصال بهذه العلوم ، ويمت من قريب أو بعيد بهذه القضية التي نصب نفسه لها وأدار حولها كتابه .

ولم تكن هذه الثقافة المتعددة لتؤتى أكلها لولا ما تمتع به السكاكى من موهبة فذة، وحس مرهف، وذوق متمرس، نجدها تحدوه فى كل ما تعرض له من أسرار القرآن الكريم ولطائفه ، وما حواه نظمه المعجز من أدلة الإعجاز وبراهينه .

والمطالع لمفتاح العلوم يدرك - بأدنى تأمل - أن صاحبه كان على بصر كبير وإلمام عظيم بثقافة عصره ، وأنه أوتى من الموهبة ما يتناسب ومكانته العظيمة ، بحيث بات ذلك واضحاً فى كتابه .

وهذا الذى نجده فى المفتاح من ثقافة الرجل وعمق هذه الثقافة يدعونا أن نخالف ما ذهب إليه الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى ، فقد ذهب إلى أن فكر السكاكى وثقافته كان يعوزهما الإدمان والمعايشة ، فلم تتح له فرصة التوفر على دراسة اللغة والأدب ، وإن حفظ قدراً من قواعدهما .

يقول : « ونحن نعرف أن السكاكى عاش عيشة العوام حتى ناهز الثلاثين ، ثم انصرف إلى العلم طلبا للحظوة ونيل ما عند السلطان « وله حكاية مشهورة فى هذا ، ودراستنا لثقافته تفيدنا أنه لم يتوفر على درس اللغة والأدب ، ولم تتح له ظروف حياته الإدمان ، والممارسة ، والمعايشة، حتى يتهيأ له اكتساب ذوق هذه اللغة ، وإن أتاحت له أن يحفظ قدراً من قواعدها ، لأننا نعتقد أن اكتساب الذوق يأتى متأخراً بالنسبة للاحاطة بالأصول والقواعد ، فهو محتاج إلى جهد أكثر ومثابرة أطول ، وبجانب هذا كان السكاكى يحفظ أخلاطاً من المعارف الغامضة والشاذة »[1].

---

(١) البلاغة القرآنية فى كشاف الزمخشرى ص ٨٠٧ .

فالسكاكى رجل صاحب قضية استطاع أن يعالجها معالجة لم نرها لأحد قبله ، وأدواته فى ذلك تعمقه فى علوم اللغة والأدب وبصره بوسائل الإقناع والاحتجاج : وموهبة نافذة فى جوانب القضية ، فلولا هذه الوسائل ومعايشتها لما استطاع أن يقدم دلائل الإعجاز القرآنى وروعة نظمه وأسلوبه بهذه الطريقة التى وجدناها فيما سلف من فصول ومباحث هذا البحث .

ومما تجدر الإشارة إليه أن علوم الأدب - ومنها المعانى والبيان وفنون البديع وألوانه - كانت قد نضجت مسائلها ، وأفرغت أصولها قبل عصر السكاكى ، فاللغة جمعت مفرداتها ، والصرف والنحو والمعانى والبيان والبديع وغيرها لم تزد كثيراً بعد عصر السكاكى عما كانت عليه قبله ، « فقد جد العلماء فى هذه الفروع كلها وتحمسوا لها بداعى خدمة القرآن وتبيين مافيه، فالنحويون - مثلا - اجتهدوا فى إعراب القرآن ، ومن هؤلاء الكسائى والفراء والزجاج، وكان نحوهم مشتملا على أشياء بيانية، كأسباب الذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، وبعضهم اشتغل بمجاز القرآن ، ككتاب أبى عبيدة المسمى « مجاز القرآن ، وقد أخذ منه البخارى كثيراً فى صحيحه فى باب التفسير ، والبيانيون جدوا فى معرفة أساليبه التى سببت الإعجاز، حتى إن عبد القاهر الجرجانى سمى كتابه « دلائل الإعجاز » ، وألف أبو بكر الباقلانى كتابه المشهور فى أسباب الإعجاز »[1] .

وهذه العلوم كلها ما وضعت إلا لخدمة القرآن ، ومن أجله نمت وترعرعت ، بل إن علمى المعانى والبيان تكون البحث فيهما حول البحث فى أسباب الإعجاز القرآنى ، بدأ نتفا قصيرة ، ومازال يزيد على توالى الأزمان

---

(١) ظهر الإسلام ٢ / ١٢٤ .

حتى وصل إلى أبي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) لجعله أحق العلوم بالتعلم، إذ بدونه لا تفهم أسباب إعجاز القرآن الكريم .

وتوالت الجهود وكثرت المؤلفات في هذا المجـــال حتى جاء الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) فأخرج للناس علماً دقيقاً ذا قواعد وأصول في كتابين جليلين هما : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة .

والإمام عبد القاهر بما قدمه لهذين العلمين يعد — كما يقول العلوي — أول من أسس من هذا العلم قواعده ، وأوضح براهينه وأظهر فوائده ورتب أفانينه ، ولقد فك قيد الغرائب بالتقييد وهد من سور المشكلات بالتسوير المشيد ، وفتح أزهاره من أكمامها . وفتق أزراره بعد استغلاقها واستبهامها »(١) .

ولم يكن العلامة جار الله الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) بما قدمه في تفسيره « الكشاف » بأقل من الإمام عبد القاهر شأناً ، بل إن دراسة الزمخشري لمسائل البلاغة في كشافه تعد الامتداد الحق لما درسه عبدالقاهر في كتابيه ، فقد طبق كثيراً مما قرره عبدالقاهر وأضاف أصولا بلاغية هامة لم يعرض لها عبد القاهر ونمى كثيراً من الأصول البيانية ، وحرر الكثير من المسائل .

« وتطبيقات الزمخشري في كشافه لبعض الأصول البلاغية المقررة في زمانه يمكن أن تعد من إضافاته مادام يضفي عليها من حسه وذوقه ، وشيء آخر في هذه التطبيقات يعطيها أهمية وأصالة ، ذلك أن هذه الأصول البلاغية التي قررها عبد القاهر كانت كأنها متكورة أو قلقة بين معاصريه ، ولذلك كان يشكو كثيراً من جهل الناس بما يقول ، وعجزهم عن استيعابه

---

(١) الطراز ١ / ٤ .

وتمثله فأتاحت تطبيقات الزمخشرى لها قوة ومكانة ، وثبتتها فى البيئة العلمية ، وأظهرت قدرتها على تحديد المزايا البلاغية لأسلوب القرآن فى صورة دقيقة وشاملة وارتضها فرقة المعتزلة التى تناوىء شيعة عبد القاهر وتصاولها ، فكان ذلك تأصيلا لهذه الأصول أى تأصيل »[1] .

وجاء السكاكى فى القرن السادس الهجرى فوجد أن علوب الادب قد خطت خطوات كبيرة ، وأن كثيراً منها قد استوفى مسائله وأفرغت أصوله ، كما أن مسائل المعانى والبيان تضافرت الجهود فى بناء صرحها وإرساء قواعدها .

ولم يكن فى وسع السكاكى إلا أن ينهل من هذا التراث الضخم الذى خلفه الأقدمون فى فروع العلم المختلفة ، وإلا أن يتزود به فى تكوين شخصيته العلمية وشحذ موهبته وذوقه .

وقد كان لهذا التراث أثر واضح فى ثقافة السكاكى ، وفيما أثاره فى مفتاحه من مسائل وقضايا وفى عرضه لجوانب قضيته التى لم يكن له أن يعرضها فى هذا الثوب الأخاذ لولا إلمامه بهذا التراث الهائل وتعمقه فى ثناياه .

والمتصفح لمفتاح العلوم يرى أن استفادة السكاكى بجهود السابقين واضحة فى الكتاب ، ويصعب عليه أن يميز فى تأثره بمن سبقه بين جانب وآخر أو نزعة وأخرى ، وذلك لأن الرجل استطاع بما له من عقل وفكر أن يهضم هذا التراث ، وأن يحوله إلى عنصر واحد يتخذه زاداً للوصول إلى قضيته ومعالجة جوانبها .

---

(١) البلاغة القرآنية فى كشاف الزمخشرى ص ٦ .

وعلى الرغم من ذلك فإنا نجد أثر المتكلمين وبحوثهم واضحاً فى الكتاب وفيما أثاره السكاكى من مسائل وقضايا يتصل بقضيته الرئيسة وهى الإعجاز القرآنى ونظمه ، ولا عجب فى هذا ، فالسكاكى كان معتزلياً وله إلمام كبير بثقافتهم وأساليبهم ومحاوراتهم .

ولعلنا نجد هذا الأثر واضحاً فى الإطار العام الذى أدار حوله قضية الإعجاز ، فالقضية عنده قضية كلامية استخدم لها كل وسائل الإقناع والاحتجاج ، وقد برز هذا فى إرخاء العنان لخصمه فى خاتمة كتابه .

فقد قدر — تقديراً باطلا — أن محمداً — عليه السلام — ما كان نبيا وأن القرآن كان كلامه . ثم يقول بعد هذا التقدير « أفمنيتم أن تدركوا ضوء النهار بين أيديكم أن كان أفصح العرب وأملكهم لزمام الفصاحة والبلاغة غير مدافع ولا منازع وكلام مثله حر أن يجل عن الانتقاد فضلا أن يحدر لثامه عن الزيف لدى النقاد ، فالقرآن الذى زعمتموه كلامه أما كان يقتضى بالبيت أن يكون أحرى كلام على الاستقامة لفظاً وإعراباً وفصاحة وبلاغة وسلامة عن كل مغمز وحقيقاً بأن يكتب على الحدق بذوب الذهب ، فإذ قد جهلتم حقه هناك أما اقتضى لا أقل أن يلين شكيمتكم ليخلص منكم كفافا لا عليه ولا له »[1] .

ثم يقدر السكاكى — حيث أعمى الخذلان أهل الضلال وأطماع ظهر السفه — أنه ما كان أفصح العرب وأنه كان كآحاد الأوساط قد تعمد ترويج كلامه أما كان لكم فى أنه مروج والعياذ بالله وازع يزعكم أن تجاذفوا ، فالمروج كما لا يخفى وإن صادف الشمل سكرى تدير عليهم الغباوة كؤوسها وجثثا تفرز فى سنة من الغفلة رؤوسها يحتاط فيما يتعمد رواجه عليهم لا يألوا فيه

---

(١) مفتاح العلوم ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

تهذيباً وتنقيحاً فكيف إذا صادفه مشتملا على إيقاظ متفطنين لا يبارون قوة ذكاء وإصابة حدس وحدة ألمعية وصدق فراسة »[1] .

وبهذا الأسلوب يجادل خصمه ويحاوره ، سالكاً سبيل علماء الكلام فى محاوراتهم ، مما يدل على أنه اقتفى آثارهم واستفاد من منهجهم وثقافتهم ، ولا عجب . فقد كان واحداً منهم وإماماً من أئمتهم .

وكما كان للمتكلمين أثر واضح عند السكاكى نجد للأصوليين - أيضاً - أثراً كبيراً فى ثقافة الرجل، ويبدو هذا الأثر واضحاً فى المفتاح ، خصوصاً فيما يتصل بمسائل البلاغة وأحكامها ، فالأصوليون لهم الأثر الذى لا يجحد فى البلاغة وقواعدها ، وصناعتهم تقوم على فهم هذه المسائل والقواعد ، فهم لا يستطيعون استنباط الأحكام الفقهية من كتاب الله الكريم إلا إذا فهموا أسلوبه وطريقته فى أداء المعانى ومراميه فى التعبير ، ومن ثم فقد طرقوا أبواب الأمر والنهى والاستفهام والنفى والعموم والخصوص والمقيد والمطلق والحقيقة والمجاز وغيرها مما هى من صميم الدرس البلاغى .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن أصحاب أصول الفقه أدنى إلى البلاغة من أصحاب الكلام وأجدر بالمشاركة منهم[2] .

ويتضح مدى صواب هذا الرأى عندما نطالع كتب الأصوليين ، فلا نجد أياً منها خلا من بحوث البلاغة ، وأفرد العديد من مباحثه لدراسة مسائلها وقضاياها ، حتى إنهم كانوا مشاركين حقيقيين فى نشأة هذا العلم وبناء أركانه .

---

(١) المصدر السابق صـ ٢٤٢ .

(٢) ينظر النقد المنهجى عند الجاحظ صـ ٢٢٩ .

وقد صرح السكاكى بهذا الأثر عندما يقول عن علمى المعانى والبيان « لا علم فى باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ منهما على المرء لمراد الله - تعالى - من كلامه ، ولا أعون على تعاطى تأويل مشتبهاته ، ولا أنفع فى درك لطائف نكته وأسراره ، ولا أكشف للقناع من وجه إعجازه »[1] .

فعلم الأصول يراه السكاكى فى مرتبة تسبق علمى المعانى والبيان فى الوصول إلى الإعجاز والتعرف على مراد الله من كلامه .

ثم يذكر أن علم البلاغة مع ما له من الشرف الظاهر والفضل الباهر لا ترى علماً لقى من الضيم ما لقى ولا من سوم الخسف ما منى ، ثم يقول « انظر باب التحديد فإنه جزء منه فى أيدى من هو ، انظر باب الاستدلال فإنه جزء منه فى أيدى من هو ، بل تصفح أبواب أصول الفقه من أى علم هى ومن يتولاها »[2] .

وقد استعان السكاكى بالأصوليين واستفاد منهم فى كثير من القضايا ، وإن لم يشر إلى ذلك نظراً لوضوحه ، واندماج ثقافته الأصولية فى غيرها من ثقافات الرجل المتنوعة .

فمن ذلك قوله فى اللام بعد أن ذكر تعريف الحقيقة بها ، وأن استغراقها مشكل : « والأقرب بناء على قول بعض أئمة الفقه بأن اللام موضوعة لتعريف العهد لا غير »[3] .

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٨ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٣) السابق ص ٩٣ .

وكثير من مسائل علم المعانى أخذه السكاكى عن الأصوليين وإن لم يشر إليهم ، مما يدل على تأثره بهم واستفادته من بحوثهم .

كما نجد أثر علماء الإعجاز القرآنى واضحاً فى مفتاح العلوم ، وبخاصة أولئك الذين بحثوا قضية الإعجاز من جهة النظم والتأليف ، وإن كان السكاكى — أيضاً — لم يشر إلى كثير منهم .

فمن أولئك الذين أثروا فيه ووجدنا هذا الأثر واضحا فى مفتاحه أبو الحسن الرمانى ، وهذا الأثر نجده فى تعريف الاستعارة ، حيث يقول « حدها عند بعضهم تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على جهة النقل للإبانة »(١) .

وهذا الحد الذى ذكره السكاكى نجده عند الرمانى فى قوله : « الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على جهة النقل للإبانة »(٢) .

وقد تأثر السكاكى أيما تأثر بما خلفه البيانيون وعلماء المعانى ، بل إن نتاجهم كان له أكبر الأثر فى عقل السكاكى وثقافته وهو يعالج قضية الإعجاز بالنظم فى كتابه .

فنجد تأثر السكاكى بصاحب « نقد النثر » . فقد قسم صاحب « نقد النثر » الكلام إلى قسمين : خبر وطلب ، وقسمه السكاكى هذا التقسيم وقال : « كلام العرب شيئان الخبر والطلب »(٣) .

---

(١) السابق ص ١٦٠ .

(٢) النكت فى إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز ص ٧٩ .

(٣) ينظر نقد النثر ص ٤٤ ، مفتاح العلوم ص ٥٦ .

ولم يسم الطلب إنشاء كما سماه القزويني ومن جاء بعده ، ولعل سبب ذلك أنه تحدث عن أنواع الإنشاء الخمسة وهي التمني والاستفهام والأمر والنهي والنداء ، واعتبرها الخطيب القزويني من الطلب ، لأن الإنشاء عنده ضربان : طلب وغير طلب . وبذلك سمى السكاكي موضوعات الإنشاء طلبا كما سماه صاحب « نقد النثر » لأن النوع الثاني ، وهو « غير الطلب » كصيغ المدح والذم والرجاء والقسم والتعجب وصيغ العقود ورب وكم الخبرية لم يبحثه السكاكي باعتباره نوعاً من الخبر فقلت أنواعه إلى معنى الإنشاء .

ويظهر تأثر السكاكي بصاحب « نقد النثر » في الجملة الشرطية ، فقد عدها كلاهما خبرا ، يقول صاحب « نقد النثر » : « والخبر منه جزم ، ومنه مستثنى ومنه ذو شرط ، فالجزم مثل : « زيد قائم » وقد جزمت في خبرك على قيامه . والمستثنى « قام القوم إلا زيداً » ، فقد استثنيت زيداً ممن قام . وذو الشرط ، « إذا قام زيد صرت إليك » فإنما يجب مصيره إليه إذا قام زيد فهو معلق بشرط »[1] .

ونجد السكاكي يكرر هذا القول في كثير من المواضع ، مثل قوله : « إن الجملة الشرطية جملة خبرية مقيدة بقيد مخصوص محتملة في نفسها للصدق والكذب »[2] .

وغير هذا كثير مما يعد دليلا على تأثر أبي يعقوب بعلماء المعاني والبيان،

---

(١) نقد النثر ص ٤٥ .

(٢) مفتاح العلوم صـ ٧٦ ، ٧٩ ، ١٨١ ، والبلاغة عند السكاكي ، صـ ٢٠١ ، ٢٠٢ .

بل إن فضله فى هذا الباب كان فى جمع ما تفرق من مسائل هذه العلوم مما خلفه الأقدمون ، وكان له غذاء وريا .

وللنحويين أثر واضح فى مفتاح العلوم ، فقد استفاد من تراثهم استفادة كبيرة ، وكان نتاجهم مصدراً هاماً من المصادر التى استقى منها مادة الكتاب .

وقد كان الحاتمى من الأساتذة الذين حرص السكاكى على النقل عنهم وذكر أسمائهم ، فقد نقل عنه رأيه فى الاشتقاق الأكبر ، كما نقل رأيه فى الاستعارة والشعر والعروض[1] .

كما ذكر أبا الأسود الدؤلى مشيراً إلى أهم الأسباب التى دعته إلى استخراج علم النحو فى قصة مشهورة مع الإمام على بن أبى طالب — رضى الله عنه — ثم يقول عنه « فهو أول أئمة علم النحو — رضوان الله عليهم أجمعين »[2].

والمفسرون لهم أثر واضح وإفادة ظاهرة عند أبى يعقوب ، فلم يكن لنجد عنده هذه الآراء الحية فى استنباط الأسرار والحكم من كتاب الله دون أن يكون له اطلاع واسع على كتب التفسير وآراء المفسرين .

نجد هذا واضحاً فى حديثه عن إفادة إنما معنى القصر ، وأنها متضمنه ما وإلا ، يقول : « ولذلك تسمع المفسرين لقوله تعالى : « إنما حرم عليكم الميتة والدم » بالنصب يقولون : معناه ما حرم عليكم إلا الميتة والدم ، وهو المطابق لقراءة الرفع المقتضية لإنحصار التحريم على الميتة والدم بسبب

---

(١) مفتاح العلوم ص ٦ ، ١٠٧ ، ٢١٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٩٨ .

أن ما فى قراءة الرفع يكون موصولا صلته حرم عليكم واقعاً اسماً لإن ، ويكون المعنى إن المحرم عليكم الميتة » [١].

كما نجد السكاكي يذكر بعض مطاعن الجهال والضلال ، وأنهم يقولون أن القرآن ينادى بأن ليس من عند الله ، ونداؤه بأن ليس من عند الله من وجوه ، منها : أن لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ، وفيه من الاختلافات ما يربي على اثنى عشر ألفاً ، كما تسمع أصحاب القراءات ينقلونها إليك .

ويجيب السكاكى على هذا الطعن ، فيذكر — فى تفصيل — أن هذا الطعن مبناه ناشىء من جهلهم بالمراد من الاختلاف ، ثم بين المراد منه متعرضاً لقوله ﷺ : « إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف » فى كلام طويل ، وشرح مستفيض ، مهتدياً بآراء المفسرين فى هذه المسألة [٢].

ومن المطاعن التى ساقها أنهم يدعون أن القرآن يكذب بعضه بعضاً ، لاشتماله على كثير من التناقض ، فإن صدق لزم كذبه ، وإن كذب لزم كذبه ، والكذب على الله محال ، قائلين : بين قوله « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » وقوله « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » وبين قوله « فوربك لنسألهم أجمعين عما كانوا يعملون » وقوله « فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين » تناقض .

ويرد السكاكى على هذا الزعم بأن هؤلاء لايعرفون شروط التناقض ، إذ من شروطه اتحاد الزمان واتحاد المكان واتحاد الغرض ، ومن لهم باتحاد ذلك فيما أورد وأبعد أن عرف أن مقدار يوم القيامة خمسون ألف

(١) السابق ص ١٢٦ .
(٢) السابق ص ٢٤٨ .

سنة ، وأنه مشتمل على مقامات ، ثم بين – فى كلام طويل – هذه المقامات، وأن السؤال يكون فى بعضها وتركه يكون فى البعض الآخر ، متأثراً فى كل ما ذكر بما جاء فى كتب المفسرين ، مستفيداً بآرائهم فى كل ما عرضه[١] .

والسكاكى فى أخذه عن السابقين لم ينكر أنه أفاد من تراثهم إفادة كبيرة ، بل إنه يعترف بفضلهم وجهودهم ، ويشيد بهم ويذكر آراءهم منسوبة إليهم ، كما نجده يذكرهم بالتقدير والإجلال ، مترحماً عليهم .

فمن ذلك ما ذكر عند حديثه عن الثلاثى المجرد ، فقد ذكر رأى الأقدمين فى نحو « النوى والهوى » بقوله : « وعند أصحابنا رحمهم الله ما يذكر فى نحو النوى والهوى من الجمع بين إعلالين »[٢].

وفى حديثه عن وجه الشبه يذكر رأى السابقين فى عدم التصريح بوجه الشبه وذكر شىء من مستتبعاته فيقول : « واعلم أنه ليس بملتزم فيما بين أصحاب علم البيان أن يتكلفوا التصريح بوجه الشبه على ما هو به ، بل قد يذكرون على سبيل التسامح ما إذا أمعنت فيه النظر لم تجده إلا شيئاً مستتبعاً لما يكون وجه التشبيه فى المآل ، فلابد من التنبيه عليه »[٣].

ويذكر علماء النحو سائلا لهم جميعا الرضوان من الله ، فى قوله عن أبى الأسود الدؤلى ، وهو أول أئمة النحو رضى الله عنهم أجمعين »[٤] .

ويذكر شيخه الحاتمى متبعا اسمه بهذا الدعاء « تغمده الله برضوانه » .

---

(١) السابق ص ٢٤٩ .

(٢) السابق ١٧ .

(٣) السابق صـ ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٤) السابق صـ ٩٨ .

كما يتبع اسم الإمام عبد القاهر بقوله : « قدس الله روحه »[1] .

وكثيرا ما يشرح المسألة ، وبعد أن يفرغ من الشرح والتوضيح ينبه إلى أن هذا ليس رأيه وإنما هو رأى السابقين ، كما فعل عند حديثه عن الاستعارة بالكناية ، فبعد أن عرفها وأوضح أن الاستعارة التخييلية هى اضافة لازم المشبه به للمشبه ، وأن كلتا الاستعارتين - بذلك - لا تنفعك إحداهما عن الأخرى قال : « هذا ما عليه كلام الأصحاب »[2] .

وتفرد السكاكى برأى لايجعله يغمط المخالفين لرأيه حقهم ، بل كان - مع مخالفته لهم - يذكر رأيهم ، مقدراً إياهم ، ثم يشير إلى ما خالفهم فيه ، وهذا نراه كثيرا فى كتابه .

من ذلك ما نجده فى باب الاستعارة ، فبعد أن يذكر أنواع الاستعارة الخمسة ، ويمثل لها بآيات من القرآن الكريم مع توضيح ما فيها من روعة النظم وعظمته يقول : « واعلم أن الكلام فى جميع ما ذكر من الأمثلة فى الأنواع الخمسة قول الأصحاب ، ولعل لى فى البعض نظرا »[3] .

بل نجده كثيراً بعد أن يترحم على السابقين ، ويذكرهم بالفضل ويذكر مخالفته لهم فى الرأى لا يجعل لرأيه مزية على رأيهم ، بل يدع القارىء يختار ما شاء تقديراً لهم وإجلالا واتهاماً لنفسه وتواضعا .

وهذا ما نراه فى تعريف الحقيقة والمجاز الحكميين ، فبعد أن عرفهما على رأى الأصحاب، ثم ذكر تعريفه لهما قال : « وإذ قد عرفت ماذكرت

---

(١) السابق ص ١٥٧ .
(٢) السابق ١٦١ .
(٣) السابق ١٦٥ .

وما ذكروا فاختر أيهما شئت »[1].

وربما يطوى الكلام طيا فى المسألة اكتفاء بقول سابقيه ، كما نراه فى المجاز اللغوى ، حيث أورد رأى السلف فى قوله تعالى « وجاء ربك » أى أمر ربك ، و « أسأل القرية » أى أهل القرية ، ثم قال : « ولسبب ذلك لم أذكر حداً شاملا له ، ولكن العهدة فى ذلك على السلف »[2].

والسكاكى يرى فى السابقين فضلا ومنة على من جاء بعده ، فهم الذين مهدوا لهم سبيل البحث والدرس ، ويقر بتتبعه آثارهم والسهر على هديهم ، بل إنه يستميحهم إذا ما أدلى بدلوه فى بحارهم .

فتراه يقول : « والأصحاب حين سبقونا إلى التعرض لهذا الجزء من علم المعانى - أعنى علم الاستدلال - ونراهم ما آلوا جهدا فيه ، آثرنا أن نتبعهم فى ذلك مسامحين ، قضاء لحق الفضل لهم :

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة ... بسعدى شفيت النفس قبل التندم

ولكن بكت قبلى فهيج لى البكا ... بكاها فقلت : الفضل للمتقدم[3]

واعترافا بما قدمه هؤلاء من خدمات وجهود فى فروع العلم المختلفة ؛ ويقينه بأنه يستضىء بنورهم ويهتدى بهديهم جعل السكاكى يدافع عنهم ، ويحذر من أن يغمز إليهم غامز ، أو يحاول محاول النيل منهم والإساءة إليهم ، مشيراً إلى أن الطرق التى ركبها هؤلاء كانت مسالك متوعرة ، ومع ذلك فقد أتعبوا خواطرهم فى التفتيش والتنقير .

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٩ .

(٢) السابق ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٣) السابق ص ٢٠٨ .

يقول: « وسيحمد ما أوردت ذوو البصائر، وإنى أوصيهم أن أورثهم كلامى نوع استمالة ، وفاتهم ذلك فى كلام السلف إذا تصفحوه أن لا يتخذوا ذلك مغمزاً للسلف أو فضلا لى عليهم ، فغير مستبدع فى أيما نوع فرد أن يزل عن أصحابه ما هو أشبه بذلك النوع فى بعض الأصول أو الفروع ، أو التطبيق للبعض بالبعض حتى كانوا المخترعين له ، وإنما يستبدع ذلك ممن زجى عصره راتعاً فى مائدتهم تلك ، ثم لم يقو أن يتنبه .

وعلماء هذا الفن ـ وقليل ما هم ـ كانوا فى اختراعه واستخراج أصوله ، وتمهيد قواعدها وأحكام أبوابها وفصولها ، والنظر فى تفاريعها واستقراء أمثلتها اللائقة بها ، وتلقطها من حيث يجب تلقطها ، وإتعاب الخاطر فى التفتيش والتنقير عن ملاقطها وكدا النفس والروح فى ركوب المسالك المتوعرة إلى الظفر بها مع تشعب هذا النوع إلى شعب بعضها أدق من البعض ، وتفننها أفانين بعضها أغمض من بعض ، فعلوا ما وفت به القوة البشرية إذ ذاك »(١) .

هذا هو موقف أبى يعقوب السكاكى من تراث السابقين : وذاك رأيه فيما قدموه ، وواضح بعد هذا العرض أن السكاكى كان على وعى تام بما خلفه الأقدمون فى فروع مختلفة ، وأنه استطاع ـ على الرغم من تأخر اشتغاله بالعلم حتى كبرت سنه ـ استطاع أن يهضم ذلك التراث ، وأن يعايشه ، وأن يخلطه بعقله ونفسه ، وأن يستفيد من ذلك التراث فى تكوينه العملى ، وفيما قدمه فى مفتاحه فيما يتصل بالنظم القرآنى وإعجازه .

* * *

---

(١) السابق ص ١٧٥ .

- ٢ -

وإذا كان السكاكى قد انتفع بجهود السابقين على اختلاف ثقافاتهم ومشاربهم ، سواء صرح باسمه - كما أشرنا - أو لم يصرح ، فإن فى تتبع هؤلاء الأعلام وأثرهم فى مفتاح العلوم تطويلا وخروجاً عن القصد .

وعلى الرغم من ذلك فإن هناك ثلاثة من علماء الإعجاز القرآنى ممن تأثر بهم أبو يعقوب أرى لزاماً أن نقف مع كل منهم وقفة - ولو قصيرة - نتبين من خلالها إلى أى حد تأثر بهم وبما خلفوه حول قضية الإعجاز القرآنى .

هؤلاء الثلاثة هم : الإمام عبد القاهر الجرجانى ، والعلامة جار الله الزمخشرى وفخر الدين الرازى ، وإنما عمدت إلى هؤلاء - دون غيرهم من علماء الإعجاز على الرغم من كثرتهم وتأثر السكاكى بهم - لأن الإمام عبد القاهر هو أول من قدم لنا قضية الإعجاز بالنظم فى إطار متكامل ، ووضع قواعد وأصولا لهذه النظرية عد بها أول مؤسس لعلم هام من علوم القرآن وهو : علم البلاغة ، وجار الله الزمخشرى يعد أول من قدم تطبيقا عمليا كاملا لقواعد النظم ونظرياته على كتاب الله ، فكأن الأول - وهو عبد القاهر - قدم القواعد النظرية مشفوعة ببعض الأمثلة والتطبيقات .

والثانى - وهو الزمخشرى - استخدم هذه القواعد ليطبقها على القرآن كله . أما الإمام فخر الدين الرازى فكان أول من حول هذه القواعد التى وضعها عبد القاهر إلى قوالب وقوانين أقرب إلى لغة العلوم منها إلى لغة الأدب ، فكان ماقدمه إرهاصاً للعمل الذى قام به السكاكى فى مفتاحه ، حيث صا ا من هذه النظرية - أعنى نظرية الإعجاز القرآنى ونظمه - إطاراً علميا واضح المعالم يعتمد على ضبط المسائل وتبويب الأبواب ، ووضع الحدود والرسوم ، فقدر الله على يديه أن تحفظ أصول هذه النظرية مهما اختلفت البيئات وتوالت السنون والعصور .

١ - عبد القاهر الجرجانى[1]

يعد الإمام عبد القاهر الجرجانى شخصية فذة ، لها أثرها على الثقافة العربية وعلما بارزاً من أعلام الإعجاز والبلاغة ، فقد كان لجهوده الموفقة أثر كبير فى تطوير البحث فى هذين المجالين والنهوض بهما ، مما يجعلنى أقف معه وقفة متأنية أبرز فيها مكانته وفضله ، كما أبين مدى تأثر السكاكى به فى هذين المجالين ،

عكف عبد القاهر على ما خفله المؤلفون قبله من تراث أدبى ونقدى وبلاغى وهضمه هضماً جيداً ، كما كانت له ثقافته النحوية ، وطول باعه فى هذا العلم ، فقرأ فى النحو للخليل وسيبويه والزجاج وثعلب وأبى على الفارسى وابن جنى وغيرهم من أئمة النحو وأعلامه ، كما قرأ فى النقد والبلاغة للجاحظ والمبرد وابن قتيبة وثعلب وابن المعتز وقدامة وغيرهم .

ويظهر أن الإمام عبد القاهر مع شهرته فى النحو وكثرة مصنفاته فيه لم يكن له فيه أثر كبير ، ولكنه - بلا شك - أفاد من دراسته للنحو تلك

---

(١) هو . أبو بكر عبد القاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجانى، فارسى الأصلى، جرجانى النشأة، ولد حوالى سنة ٣٧٧ ه ، وتتلمذ بجرجان على يد الشيخ أبى الحسين محمد بن الحسن الفارسى ، نزيل جرجان ، وهو ابن أخت الشيخ أبى على الفارسى. الإمام النحوى المشهور ، فأخذ عنه النحو ، وقرأ عليه ايضاح أبى على . وتتلمذ بعد ذلك على الكتب فعكف على التراث النحوى والبلاغى والنقدى قبله وهضمه وتمثله وقرأ أيضا الكثير من دواوين الشعر ، وانعكس كل ذلك على كتاباته بوضوح ، واشتهر بامامته فى النحو والبلاغة ، وتوفى عام ٤٧١ ه . ومن أهم مؤلفاته النحوية . المغنى ، والجمل ، والعوامل المائة ، وخلف فى البلاغة كتابيه: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة .

الفكرة التى كان لها أكبر الأثر فى النهوض بعلم البلاغة ، بل كانت نقطة تحول فى تاريخ هذا العلم ، وهى فكرة النظم ، التى شرحها ودافع عنها ، وأقام عليها الأدلة والبراهين ، ومثل لها بروائع الأمثلة .

ومن هنا جاءت شهرة عبد القاهر ، فشهرته وذيوع صيته فى ميدان البلاغة تفوق بكثير شهرته فى ميدان النحو ، ومكانته فى تاريخ هذا العلم مكانة كبيرة ، فقد قدم لنا جهدا بلاغيا له قيمته التى لا تجحد ، أودعه كتابيه : « دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة » .

وهذا الجهد الذى قدمه عبد القاهر فى كتابيه يمثل مرحلة النضج والرشد الفكرى فى الدراسات البلاغية ، فقد استطاع أن يضع نظريتى المعانى والبيان وضعا دقيقا .

وفلسفته البيانية فى دلائل الإعجاز — والذى عالج فيه نظرية المعانى — تقوم على فكرة النظم الذى عرفه بأنه : (توخى معانى النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التى يصاغ لها الكلام)[1] .

وقد بسط هذه النظرية فى كتابه بسطا وافيا يقوم على تصور كامل وفهم دقيق لمرامى هذا العلم وأهدافه كما يدل على إدراكه التام لقيمته فى صناعة الكلام ونقده ، وتفهم إعجاز القرآن الكريم والبصر بأسراره ولطائفه .

فتراه يصور فى مقدمة كتابه مدى إدراك طائفة من أهل عصره للبلاغة وتصورهم الفاسد لها ، وأنهم يقفون بها عند حد السلامة النحوية واللغوية ، ولا يدركون أن لصياغة الكلام على نحو خاص أسرارا يجب أن يبحث

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ٦٤ .

عنها ، فيقول : (إنك لا ترى علما هو أرسخ أصلا ، وأبسق فرعاً وأحلى جنى ، وأعذب ورداً ، وأكرم نتاجاً وأنور سراجاً من علم البيان ، الذى لولاه لم تر لساناً يحوك الوشى ، ويصوغ الحلى ، ويلفظ الدر ، وينفث السحر ، ويقرى الشهد ، ويريك بدائع من الزهر .... إلى فوائد لا يدركها الإحصاء ، ومحاسن لا يحصرها الاستقصاء ، إلا أنك لن ترى - على ذلك - علماً قد لقى من الضيم ما لقيه ، ومنى من الحيف مامنى به ، ودخل على الناس من الغلط فى معناه ما دخل عليهم فيه ، فقد سبقت إلى نفوسهم اعتقادات فاسدة وظنون رديئة ، وركبهم فيه جهل عظيم وخطأ فاحش ، ترى كثيراً منهم لا يرى له معنى أكثر مما يرى للإشارة بالعين أو الرأس ، وما تجده للخط والعقد ، يسمع الفصاحة والبلاغة والبراعة فلا يعرف لها معنى سوى الإطناب فى القول ، وأن يكون المتكلم فى ذلك جهير الصوت ، جارى اللسان ، لا تعترضه لكنة ، ولا تقف به حبسة ، وأن يستعمل اللفظ الغريب والكلمة الوحشية فإن استظهر للأمر وبالغ فى النظر فألا يلحن ، فيرفع فى موضع النصب ، أو يخطىء فيجىء باللفظة على غير ما هى عليه فى الوضع اللغوى ، وعلى خلاف ما ثبتت به الرواية عن العرب .

وجملة الأمر أنه لا يرى النقص يدخل على صاحبه فى ذلك إلا من جهة نقصه فى علم اللغة ، لا يعلم أن ههنا دقائق وأسراراً طريق العلم بها الروية والفكر ، ولطائف مستقاها العقل ، وخصائص معان ينفرد بها قوم قد هدوا إليها ، ودلوا عليها ، وكشف لهم عنها ، ورفعت الحجب بينهم وبينها ، وأنها السبب فى أن عرضت المزية فى الكلام ووجب أن يفضل بعضه بعضاً ، وأن يبعد الشأو فى ذلك ، وتمتد الغاية ويعلو المرتقى ، ويعز المطلب ، حتى ينتهى الأمر إلى الإعجاز ، وإلى أن يخرج عن طوق البشر[1] .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٣ وما بعدها .

ويمكن من خلال هذا النص الذى قدم به عبد القاهر كتابه « دلائل الإعجاز » أن نعرف هدفه ، وأن نعرف — أيضاً — دقته فى فهم القضية التى أدار حولها كتابه - أعنى قضية النظم — وقد كان إعجاز القرآن من أهم الدوافع التى حفزته إلى معرفة أسرار البلاغة ، وليس لإعجاز القرآن - عنده - وجه إلا بلاغته وفصاحته

وبهذا الهدف وتلك الغاية مضى عبد القاهر يشرح القضية فى كتابه شرحاً وافياً يدل على فهم كامل وذوق رفيع ، وقد عرض فى شرحه لهذه القضية كثيراً من الأبواب والمسائل التى عدت - فيما بعد - أمهات وأبواب علم المعانى .

أما نظرية البيان فقد قدمها فى كتابه « أسرار البلاغة » الذى عالج فيه أبواب ومسائل البيان وهى : الحقيقة والمجاز والاستعارة والتشبيه والتمثيل والكناية والتعريض .

ويمتاز أسلوب عبد القاهر فى عرضه للمسائل البلاغية — فى كتابيه — بأنه أسلوب تحليلى يقوم على البحث العميق والاستقصاء الدقيق ، والفلسفة الواعية لكل فن من الفنون البلاغية وأثرها فى الأعمال الأدبية ، مبيناً عيوبها ومحاسنها ، رابطاً إياها ربطاً وثيقاً بالدراسات النفسية والجمالية .

وعبد القاهر - فى دراسته لهذه الفنون - لم يفصلها عن حقلها الأصيل وهو الأدب ، ولكنه ربطها ربطاً وثيقا بالنصوص الأدبية شعرها ونثرها وإن كان لم يهمل القاعدة التى اتخذها أساساً لبحوثه ودراساته المنهجية المنظمة إلى حد كبير .

وليس هنا مجال لإبراز الجهد البلاغى الضخم الذى قدمه لنا فى كتابه ، فقد أفردت فيه المؤلفات والبحوث والرسائل ، ولكن أشير - فقط - إلى أن عبد القاهر - بهذا الجهد الكبير - ذهبت شهرته بين البلاغيين على أنه رجل البلاغة وقطبها ، وأنه هو الذى فتق أكمامها بل عده كثير من الكاتبين والباحثين فى ميدان البلاغه واضع هذا العلم ومؤسسه .

فيقول يحى بن حمزة العلوى (ت٧٤٩ هـ) : «إن عبدالقاهر أول من أسس من هذا العلم قواعده وأوضح براهينه ورتب أفانينه ، وفتح أزهاره من أكامها وفتق أزراره بعد استغلاقها واستبهامها بكتابيه : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة [1] » .

وإذا كان الإمام عبد القاهر يعد صاحب مدرسة فى تناول الدرس البلاغى فإن أبا يعقوب السكاكى يعد تلميذاً من تلاميذ هذه المدرسة ، وتأثره بصاحب هذه المدرسة واضح كل الوضوح فى كل ما كتبه حول قضية الإعجاز القرآنى ونظمه ، وإن أصبح أبو يعقوب - فيما بعد - صاحب مدرسة بلاغية لها طابع خاص ومنهج بعيد عن منهج عبد القاهر ، بل إن

(١) الطراز ١ / ٤ .

السكاكى يعد امتداداً لمدرسة الجرجانى والجسر الذى انتقلت من خلاله بلاغه عن القاهر إلى المتأخرين .

يقول الشيخ عبد المتعال الصعيدى « ولكن مدرسة عبد القاهر لم تصل إلى المتأخرين بطريق مباشر وإنما أوصلها إليهم السكاكى فى كتابه « مفتاح العلوم » وأسلوبه فيه دون أسلوب عبد القاهر والخفاجى ، لأنه لم يكن أديبا مثلهما ، وإنما كان رجل علم وفلسفة ومنطق ، فسارت بهذا مدرسة عبد القاهر فى طريق بعيد عن طريقته ، وصارت كتب البلاغة عند المتأخرين لا تعنى إلا بتقرير القواعد وما يتصل بهذا من الجدل العلمى حتى ضاعت فيها ملكة النقد الأدبى ، وأصبحت دراستها لا ثمرة فيها لأنها لا تربى فى دراستها ملكة الإنشاء ولا تدربهم على أساليب النقد [1] » .

لقد كان أبو يعقوب فى عرضه لقضية الإعجاز بالنظم متأثراً إلى حد بعيد بالإمام عبد القاهر ، ولم يختلف عنه فى تناول هذه القضية ، اللهم إلا فى الثوب الذى عرضها فيه ، فلكل من الرجلين منهجه وذوقه ، والسكاكى رجل منطق وفلسفة ، والقاعدة عنده لها موضع التقدير والاحترام ، فلم يكن ليطلب منه أن يسير فى عرض قضيته على طريق الإمام عبد القاهر الذى يميل إلى الناحية الأدبية وإن تابعه فى الدعوة إلى الذوق وتحكيمه فى القضايا الأدبية والبلاغية والنقدية .

ولذلك يشير إلى أهمية الذوق ، والإهتمام بالتدرب على الأدب لاكتسابه مقتدياً بالإمام عبد القاهر ، وذلك فى قوله : « وكان شيخنا الحاتمى ذلك الإمام الذى لن تسمح بمثله الأدوار مادار الفلك الدوار تغمده الله برضوانه يحيلنا بحسن كثير من مستحسنات الكلام إذا راجعناه

---

(١) مقدمة سر الفصاحة ص : ى .

فيها على الذوق والفن - حينئذ ممن نبغ فى عدة شعب من علم الأدب وصبغ بها يده وعانى فيها وكده وكده ، وهاهو الإمام عبد القاهر قدس الله روحه فى « دلائل الاعجاز » كم بعيد هذا [1] » .

لقد تعرض السكاكى إلى علوم الأدب ومدخلها فى الاعجاز القرآنى ، ونص على مدخل الكلمة المفردة فى الاعجاز وما يتصل بها من الاعلال والابدال وغيرهما من الأحكام ، كما نص على منزلة علم النحو وقواعده ، وكيف يتوصل به إلى الوقوف على فصاحة القول وبلاغة الأسلوب ، ثم مسائل المعانى والبيان ومحسنات البديع وغير ذلك مما عرض له من وسائل وأدوات هذه القضية .

وهو فى كل ما عرض له يستوحى عبد القاهر ويستلهمه ، فعبد القاهر أشار إلى قيمة اللفظة المفردة ، وأنه لابد من نظرة إليها قبل دخولها فى التأليف والنظم ، كما أن علم النحو - عنده - أساس للتعرف على نظرية النظم ؛ فالنظم عنده « توخى معانى النحو وأحكامه فيما بين الكلم على حسب الأغراض التى يساق لها الكلام » كما تعرض للمحسنات البديعية وإن كان تعرضاً يسيراً ، وتعرض لأوزان الشعر وقوافيه ، وكل هذا نجده فى مفتاح العلوم يلبس ثوبا فلسفيا منطقيا ذا إطار واضح ومعالم محددة .

وكثيراً ما يصرح السكاكى بهذا الأخذ مشيداً بفضل الامام عبد القاهر وجهده فى لطائف النظر وفى باب الارشاد والتعليم ، كقوله عنه فى أحد المواضع : « جزاه الله أفضل الجزاء ، فهو الذى لا يزال ينور القلوب فى مستودعات لطائف نظره ، لا يألو تعليما وإرشادا [2] .

---

(١) انظر مفتاح العلوم ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) المصدر السابق ص ١٥٧ .

فكتابا عبد القاهر : دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة يعدان أهم مصدر للسكاكى فى كتابه المفتاح ، ومعظم آراء السكاكى ومذهبه فى البلاغة والاعجاز مستمدة منهما [١] .

وقد لمح السكاكى ما أشار إليه عبد القاهر من فروق بين مباحث البلاغة الثلاثة ، فميز بعضها عن بعض تمييزاً تاما وجعل لكل مبحث منها علما خاصا ، فكان من هذا التمييز علوم البلاغة الثلاثة : المعانى والبيان والبديع .

فالنظم عند عبد القاهر يشمل الخبر وأركان الجملة وما يحدث فيها من تقديم وتأخير ، وكون المسند اسماً أو فعلا ، وما يتعلق بالمسند أو المسند إليه من شرط وحال ، ويشمل الفصل والوصل ، ومعرفة مواضعهما ، ومعانى الواو والفاء وثم وبل ولكن وغيرها من أدوات العطف ، ويشمل التعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والاضمار والإظهار . وهذه الموضوعات ليست إلا مباحث علم المعانى الذى حد السكاكى معالمه وهذب مسائله .

ونستطيع أن نقرر باطمئنان أن السكاكى أخذ مباحث علم المعانى عن كتاب « دلائل الاعجاز » إلى جانب ما أخذه عن المتكلمين والأصوليين واللغويين ، ولكنه صاغها الصياغة التى كانت أقرب إلى فهم أهل عصره أو أقرب إلى روح المنطق الذى سيطر على مناهج البحث البلاغى ، ولا سيما فى عصر السكاكى وفى بيئته المشرقية ، فعلم المعانى ليس إلا معانى النحو أو النظم الذى شرحه عبد القاهر ، وكان السكاكى أول من أدخل موضوعاته فى البلاغة [٢] .

---

(١) نحو بلاغة جديدة ص ٥ .

(٢) البلاغة عند السكاكى ص ٢١٣ .

كما بحث الإمام عبد القاهر فى « أسرار البلاغة » موضوعات التشبيه والمجاز بأنواعه والكناية ، وهو وإن تعرض لهذه المسائل فى « دلائل الإعجاز » إلا أنه فى « أسرار البلاغة » أطال الوقوف عندها فكان أول من ميز بين أقسامها ، وهذب مسائلها مع التحليل والنقد وإبراز الصور الأدبية الرائعة فى الأمثلة التى ذكرها والشواهد التى ساقها فى كتابه .

وهذا الصنيع أوحى للسكاكى أن يصوغ من هذه المباحث علم البيان ويميزه عن غيره من علوم البلاغة الثلاثة ، على الرغم من تعرض عبدالقاهر فى « أسرار البلاغة » لبعض موضوعات البديع ومسائله .

وإذا كنا نأخذ على السكاكى عدم اعتداده بالبديع وإهماله جانب المحسنات البديعية ، على الرغم من جعلها علما مستقلا إلا أنه لم يدخلها فى البلاغة وإنما هى عنده — من توابعها ، فلا أثر لها — عنده — فى بلاغة الأسلوب وقوته أو إعجاز القرآن وعظمته ، إذا كنا نأخذ عليه هذه النظرة فإن الإمام عبد القاهر هو الذى أوحى إليه بها على الرغم من أن عبد القاهر يجعل لها أثراً واضحاً فى بلاغة الكلام طالما أن المعانى تستدعيها وتطلبها ، إلا أن مسلكه كان هاديا للسكاكى أن ينهج هذا المنهج ، ويضع المحسنات البديعية من البلاغة موضع التابع والذيل .

ذلك أن الإمام عبد القاهر — فى انتصاره لجانب المعانى وإهماله جانب اللفظ — نجده قد ذهب بعيداً فى تقدير المعنى ، وإن كان لا يعنى المعانى الأول التى تفهم من حاق اللفظ ، وإنما يعنى المعانى الثانوية التى تنتج من توخى معانى النحو وأحكامه .

فعبد القاهر لا يرى لهذه المحسنات مزية ولا حسناً ما لم يكن معناها هو الذى طلبها واستدعاها ، فنجده يقول : « وعلى الجملة فإنك لا تجد

تجنيساً مقبولا ولا سجعا حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغى له بدلا ، ولا تجد عنه حولا [1] » .

ويكرر هذا المعنى فى كتابيه « أسرار البلاغه » و « دلائل الإعجاز » ، وقد تابعه السكاكى فى هذه النظرة إلى المحسنات فقال : « وأصل الحسن فى جميع ذلك أن تكون الألفاظ توابع للمعانى ، لا أن تكون المعانى لها توابع ، أعنى أن لا تكون متكلفة [2] » .

ومن أجل هذا لم يدخل السكاكى البديع فى البلاغة ، وإنما هو وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام . وهذا ما فعله عبد القاهر ، فلم يقف عند أنواع البديع طويلا ، ولم يذكر منه إلا أنواعاً قليلة جداً . وانشغل بنظرية النظم والبرهنة عليها أكثر من انشغاله بأمور أخرى ، وأخذ يعيد ويكرر هذه الفكرة فى كتابيه المشهورين [3] .

ويردد السكاكى ما ردده عبد القاهر من أن علم البلاغة على شرفه وخطره لم يحظ بالاهتمام الذى ينبغى له ، ولم يحتل المكانة التى كان لابد أن يتبوأها ، ثم يشير السكاكى إلى أن فضله فى هذا العلم فى جمع ما تفرق منه ، حيث إنه نظر فوجد أن هذا العلم قد تفرق أيادى سبا .

يقول : « مع ما لهذا العلم من الشرف الظاهر والفضل الباهر لا ترى علماً لقى من الضيم ما لقى ولا منى من سوم الخسف بما منى ، أين الذى مهد له قواعد ورتب له شواهد وبين له حدودا يرجع إليها وعين له رسوماً يعرج عليها ووضع له أصولا وقوانين وجمع له حججاً وبراهين

---

(١) أنظر أسرار البلاغة ١ / ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) مفتاح العلوم ص ١٨٢ .

(٣) البلاغة عند السكاكى ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

وشمر لضبط متفرقاته ذيله واستنهض فى استخلاصها من الأيدى رجله وخيله ، علم تراه أيادى سبا جزء حوته الدبور وجزء حوته الصبا انظر التحديد فإنه جزء منه فى أيدى من هو ، انظر باب الاستدلال فإنه جزء منه فى أيدى من هو ، بل تصفح معظم أبواب أصول الفقه من أى علم هى ومن يتولاها ، وتأمل فى مودعات من مبانى الإيمان ما ترى من تمناها سوى الذى تمناها وعد وعد ولكن الله جلت حكمته إذ وفق لتحريك القلم فيه عسى أن يعطى القوس باريها بحول منه عز سلطانه وقوة فما الحول والقوة إلا به »[1] .

ومما سبق يتضح أن السكاكى سار على درب الإمام عبد القاهر ، وتأثر به فى الإطار العام الذى بنى عليه مفتاحه ، وفى الهدف الذى نصب نفسه له وهو الإعجاز القرآنى فى نظمه وأسلوبه .

وإذا تركنا أثر عبد القاهر على السكاكى فى الإطار العام والهدف والمنهج الذى سار عليه ، وانتقلنا إلى الجزئيات فسوف يستعصى على هذا البحث سرد مواطن التأثر بالإمام عبد القاهر فى كل مسائل المفتاح وجزئياته ، وذلك لكثرتها كثرة فائقة ، بحيث تحس وأنت تقرأ المفتاح أن روح عبدالقاهر ملازمة لقلم السكاكى وهو يصوغ هذه النظرية ويضع مسائلها .

ولذلك نكتفى بضرب الأمثلة وعرض بعض النماذج ، حتى تتضح صورة هذا التأثر فيما يتصل بمسائل الكتاب وأبوابه .

التقديم والتأخير :

تحدث الإمام عبد القاهر عن التقديم والتأخير فى بحث الاستفهام بالهمزة ، وفى النفى وفى الخبر المثبت ، وما يفيد منه التخصيص ، وما يفيد التقوى والتأكيد . وتحدث عن تقديم مثل وغير حينما تكونان مسنداً إليهما ، وعند تقديم النكرة على الفعل وعكسه .

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٨ ، ١٧٩ . وانظر دلائل الإعجاز ص ١٤ .

وعندما نقارن ما كتبه السكاكى فى هذا الباب بما كتبه الإمام عبد القاهر نجد أن السكاكى لم يخرج عما كتبه عبد القاهر إلا فى النذر اليسير وفى ترتيب بحثه فيه ، حيث إن هذا الموضوع جاء موزعاً عند السكاكى على ركنى الجملة — المسند إليه والمسند — ومتعلقات الفعل ، بينما أفرد له عبد القاهر باباً ضم كل أطرافه .

« ومن يرجع إلى كلام السكاكى يرى أنه حاكى عبد القاهر فيما يفيده تقديم المسند إليه على الخبر الفعلى ، فقد رأى فى النكرة أن البنـــاء عليها لا يفيده إلا التخصيص كما يرى عبد القاهر ، ولم يخالفه إلا فى توجيه ذلك بما لا يؤثر فى موافقته له ، وقد رأى فيما يلى حرف النفى ما يراه عبد القاهر ، فلا يصح عنده مثله : ما أنا رأيت أحداً ، ولا ما أنا رأيت إلا زيداً ، وكذلك لا يصح عنده : ما زيداً ضربت ولا أحداً من الناس ، ولا ما أنا ضربت زيدا ولا أحد غيرى ، فالمضمر والمظهر عنده فى ذلك سواء ، ولهذا لم يذكر شرط تقديم التأخير فيما يلى حرف النفى ، ولا يوجد فى كلامه ما يشعر بحمله على المثبت فى هذا الشرط ، وقد رأى فى المعرف المثبت أنه يحتمل التخصيص وتقوية الحكم كما يرى عبد القاهر ، ولكنه يرى أن البناء على المظهر ليس كالبناء على المضمر فى احتمال هذين الاعتبارين على السواء ، فهو لا ينفى فيه الاختصاص ، بل يبعده »[1] .

وقد تهافت الخطيب القزوينى عندما ذكر خلافاً بين الرجلين فى باب التقديم ، فقد نظر إلى ظاهر كلام الشيخ عبد القاهر أن تقديم المسند إليه يفيد التخصيص بالخبر الفعلى إن ولى حرف النفى ، دون أن يفرق فى المسند إليه بين المظهر والمضمر ، إلا أن اكتفاءه بالمضمر — فقط — يشير إلى

---

(١) انظر بغية الإيضاح ١/١٣١ .

ضعف اعتبار التخصيص في المظهر ، وهذا ما أوضحه السكاكي ، ولعله كان أقدر على فهم مراد الشـــيخ عبد القاهر من الخطيب القزويني ، فالواقع ألا خلاف بين السكاكي وعبد القاهر في باب التقديم والتأخير ، وأن تأثر السكاكي بالإمام واضح كل الوضوح في هذا الباب .

الفصـل والوصل :

تعرض الإمام عبد القاهر لأنواع الجمـل وحالها في العطف وعدمه ، فذكر أن الجمل ثلاثة أضرب : جملة يكون حالها مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف والتأكيد مع المؤكد ، فلا يكون فيها العطف البتة لشبه العطف فيها — لو عطفت — بعطف الشيء على نفسه . وجملة حالها مع التي قبلها حال الإسم يكون غير الذي قبله إلا أنه يشاركه في حكم ويدخل معه في معنى مثل أن يكون كلا الاسمين فاعلا أو مفعولا أو مضافاً إليه فيكون حقها العطف . وجملة ليست في شيء من الحالين ، بل سبيلها مع التي قبلها سبيل الاسم مع الإسم ، لا يكون منه في شيء ، فلا يكون إياه ولا مشاركاً له في معنى ، بل هو شيء إن ذكر لم يذكر إلا بأمر ينفرد به ويكون ذكر الذي قبله وترك الذكر سواء في حاله لعدم التعلق بينه وبينها رأساً ، وحق هذا ترك العطف البتة .

فترك العطف يكون إما للاتصال إلى الغاية أو الانفصال إلى الغاية والعطف لما هو واسطة بين الأمرين ، وكان له حال بين حالين[1] .

وإذا رجعنا إلى حديث السكاكي في باب الفصل والوصل[2] فسوف

---

(١) انظر دلائل الإعجاز صـ ١٥٨ وما بعدها .

(٢) مفتاح العلوم صـ ١٠٨ وما بعدها .

نجد تشابهاً يقترب من التطابق بين ما قاله وما ذكره الإمام ، بل إن الأمثلة التي ساقها السكاكي سواء في مواضع الفصل أو الوصل هي أمثلة عبد القاهر مما يدل دلالة واضحة على تأثره به في هذا الباب وأخذه عنه أخذاً ظاهراً .

— التشبيه :

لم يخالف السكاكي الإمام عبد القاهر في باب التشبيه إلا في الفرق بين التشبيه التمثيلي وغير التمثيلي ، فالتشبيه التمثيلي عند عبد القاهر ، ما كان وجه الشبه فيه عقلياً غير غرزي ، سواء كان مفردا أم مركباً ، وأن التشبيه غير التمثيلي ما كان الوجه فيه حسياً أو غرزياً ، سواء أكان مفردا أم مركبا ، بينما رأى السكاكي أن التشبيه التمثيلي : ما كان وجه الشبه فيه مركباً عقلياً غير حقيق ، أي ليس غرزياً ، وغير التمثيلي ما كان الوجه فيه خلاف ذلك[1] .

ويذكر الأستاذ الهادي العدل أن الذي حمل السكاكي على مخالفة عبدالقاهر في الفرق بين التشبيه والتمثيل أنه رأى أن الدقة واللطف والحاجة إلى حسن التوصل إنما يتحقق في المركب أما المفرد فلا ، فأخرجه عن دائرة التمثيل[2] .

وهذه المخالفة لا تعد شيئاً إذا ما قورنت بتأثر السكاكي بعبد القاهر فيما عداها من مسائل التشبيه وأقسامه وأحكامه ، فقد تابعه في تقسيم التشبيه إلى قريب وغريب وفي ضبط كل منهما وتابعه في حديثه عن التشبيه المقلوب

---

(١) انظر نظرات في التمثيل البلاغي ص ٦ .
(٢) دراسات تفصيلية لبلاغة عبد القاهر ص ٢٧ .

كما تابعه فى تقسيم وجه الشبه إلى حسى وعقلى ، وعقلى غير حقيقى ، وفى تشبيه المركب بالمركب . كما أن معظم الأمثلة التى استشهد بها السكاكى فى هذا الباب نجدها عند الإمام عبدالقاهر . مما يدل على أخذه منه وتتبعه لأثره[1] .

المجاز العقلى :

أخذ السكاكى عن الإمام عبدالقاهر تعريف المجاز العقلى ، وذكر أسماءه التى أطلقها عليه عبد القاهر ، مثل : العقلى والحكمى والمجاز فى الإثبات والمجاز فى الجملة ، بل أبعد من هذا نراه ينقل عن الإمام أمثلته القرآنية ، وكثرة وقوع هذا النوع فى القرآن الكريم .

فيقول : «وهذا الضرب من المجاز كثير فى القرآن ، فمنه قوله تعالى : «تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها» وقوله عز اسمه : «وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً» . وقوله «فنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا» ، وقوله «وأخرجت الأرض أثقالها»[2] .

ولم يخالف السكاكى عبدالقاهر فى هذا النوع من المجاز إلا فى لزوم أن يكون للفعل فاعل حقيقى حيث يرى الإمام أنه ليس بلازم فى المجاز العقلى أن يكون للفعل فاعل حقيقى يكون الإسناد إليه حقيقة ويتفرع عنه الإسناد المجازى ، بينما يرى السكاكى أن الفعل لا بد أن يكون له فاعل حقيقة ، لامتناع صدور الفعل لا عن الفاعل[3] .

---

(١) انظر أسرار البلاغة ١/١٧٨ وما بعدها ، ومفتاح العلوم صـ ١٤١ وما بعدها .

(٢) ينظر أسرار البلاغة ٢/٢٤٤ ، ومفتاح العلوم صـ ١٦٨ وما بعدها .

(٣) انظر دلائل الإعجاز صـ ٢٠٢ ، ٢٠٣ ومفتاح العلوم صـ ١٦٨ .

الاستعارة :

يقول الإمام عبد القاهر فى مبحث الاستعارة ؛ إنها على أصول :

أحدها : أن يؤخذ الشبه من الأشياء المشاهدة والمدركة بالحواس على الجملة للمعانى المعقولة .

وثانيها : أن يؤخذ الشبه من الأشياء المحسوسة لمثلها إلا أن الشبه مع ذلك عقلى .

وثالثها : أن يؤخذ الشبه من المعقول للمعقول »[١] .

ويأخذ السكاكى هذا التقسيم ويجعله فى خمسة أنواع ، فيقول : « ولما أن الاستعارة مبناها على التشبيه تنوع إلى خمسة أنواع تنوع التشبيه إليها ، استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسى ، أو بوجه عقلى ، واستعارة معقول لمعقول ، واستعارة محسوس لمعقول ، واستعارة معقول لمحسوس »[٢] .

وفى موضع آخر نرى السكاكى يوضح الاستعارة وقرينتها فى قول الشاعر :

وصاعقة من نصله تنكفى بها على أرؤس الأقران خمس سحائب

فيقول: « انظر حين أراد استعارة السحائب لأنامل يمين الممدح تفريعاً على ما جرت به العادة من تشبيه الجواد بالبحر الفياض تارة وبالسحاب الهطال أخرى ماذا صنع ، ذكر أن هناك صاعقة ثم قال من نصله فبين أن تلك الصاعقة من نصل سيفه ، ثم قال على أرؤس الأقران ، ثم قال :

---

(١) أسرار البلاغة ١/١٥٧ .

(٢) مفتاح العلوم ص ١٦٤ .

خمس ، فذكر العدد الذى هو عدد جميع أنامل اليد لجعل ذلك كله قرينة لما أراد من استعارة السحائب للأنامل »[1] .

وهذا التوضيح يكاد يتفق فى لفظه مع توضيح عبد القاهر لما فى البيت من استعارة ، وقرينة تلك الاستعارة[2] .

الكناية :

تحدث السكاكى عن الكناية حديثاً مفصلا محددا ، فنظم مسائلها ، وفصل بين أنواعها ، وأدخل فيها التعريض والرمز والإشارة ، وعد هذه الأنواع جزءا من الكناية .

وهو فى كل ما تعرض له يتابع الإمام عبدالقاهر ، فقد عقد لها الإمام فصلا فى « دلائل الإعجاز » ذكر فيه أنواعها من كناية واقعة فى الصفة ، وأخرى واقعة فى طريق الإثبات ، وحرر هذين القسمين وإن كان لم يتكلم عن الكناية عن الموصوف ، كما بين عبد القاهر الصور المتشابهة فى الكناية عن إثبات الصفة إلى الموصوف ، والصور المتشابهة فى الكناية عن الصفة ، كما كان التعريض عنده مرادفاً لها لا يفرق بينهما ، كما كان التلويح كذلك .

وهذه الإشارات تجدها - بوضوح - عند أبى يعقوب ، بل إنه أخذ أمثلة عبد القاهر ، ونقلها عنه[3] .

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٩ .

(٢) انظر دلائل الإعجاز ص ٢٠٥ .

(٣) انظر دلائل الإعجاز ص ٢٠٨ ومابعدها ، ومفتاح العلوم ص ١٧٠ وما بعدها .

- الإعجاز فى آية :

تعرض الإمام عبد القاهر لبيان الإعجاز فى قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين » ، فأوضح أن أمر الإعجاز فى مراعاة نظم الآية ، وأنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها ، وأن الفضل تناتج ما بينها وحصل من مجموعها [1] .

ثم يأخذ فى توضيح هذا الترابط بين كلمات الآية ، موضحاً موقع كل كلمة ومدخله فى عظمة الأسلوب القرآنى وإعجازه ، فى شرح أدبى وعبارة أخاذة لم يسبق إليهما .

فيأخذ عنه السكاكى هذا التطبيق للآية نفسها ، فيعرض الآية مطبقا عليها كل قواعد البلاغة والفصاحة من معان وبيان وفصاحة معنوية وفصاحة لفظية ، فقواعد البلاغة وقسما الفصاحة شاملة لجميع المقاصد التى توصل إلى معرفة الإعجاز .

والسكاكى فى تطبيقه على الآية الكريمة لم يخرج عما قاله عبد القاهر فى هذه الآية ، ولا عن نظريته فى النظم ورد الاعجاز إليه [2] .

ونستطيع القول بأن تأثر السكاكى بالامام عبد القاهر واضح

---

(١) دلائل الاعجاز صـ ٤١ .

(٢) انظر مفتاح العلوم صـ ١٧٦ وما بعدها ، وهذا الكتاب صـ ١٦٠ وما بعدها .

كل الوضوح فى كل ما عرض له من أبواب المفتاح وفصوله ، بحيث يضيق هذا البحث عن تتبعها وحصرها ، مما يدل على أن الإضافات التى أضافها السكاكى إلى ما صنعه عبد القاهر إنما كانت إضافات يسيرة اقتضاها منهجه ، وطريقته فى تبويب الأبواب وتحديد المسائل وضبط الأقسام ، وهو ما نحمده له ، فقد حفظ - بهذا المنهج - أصول نظرية النظم التى قام عليها الاعجاز القرآنى .

● ● ●

٢ — جار الله الزمخشرى[1]

يعد العلامة الزمخشرى علما من أعلام الإعجاز القرآنى، كما أنه رائد من رواد البلاغة، وصرح شامخ فى بناء علومها الثلاثة، وذلك بما قدمه فى تفسيره «الكشاف» من درس تطبيقى على كتاب الله الكريم. فقد جاء هذا الدرس تطبيقا للقواعد البلاغية والبيانية التى قررها عبد القاهر الجرجانى فى كتابيه دلائل الاعجاز وأسرار البلاغه على آيات الذكر الحكيم.

---

(١) هو: محمود بن عمر بن أحمد وكنيته أبو القاسم، ولد بزمخشر ونشأ فيها فغلبت عليه النسبة إليها، فقيل الزمخشرى، وكان قد جاور بمكة زمانا ولقب نفسه بجار الله، فصار هذا اللقب علما عليه، وكانت ولادته فى السابع والعشرين من رجب سنة ٤٦٧ هـ فى عهد السلطان ملكشاه السلجوقى ووزيره نظام الملك، وكان هذا العهد أزهى الفترات التى نهضت فيها العلوم والآداب. رحل إلى بخارى طلبا للعلم فيها، حيث كانت مثابة المسجد وكعبة الملك، ثم اتجه إلى خراسان فاتصل ببعض رجال الدولة هناك، ثم ارتحل إلى أصفهان مادحا ملوكها، ثم شخص إلى بغداد فناظر وسمع من علمائها، ثم أحس بسمو نفسه وتخليصها من مطامع الدنيا وزخارفها فاتجه إلى مكة، معتزما أن يقيم فأقام بها مدة، ثم رجع إلى خوارزم، فأقام بها إلى أن حم القضاء عليه سنه ٥٣٨ هـ بعد حياة حافلة بالتنقل والترحال، طلبا للعلم وسعيا إليه.

وقد ترك من المؤلفات والمصنفات ما يزيد على أربعين مؤلفاً فى شتى العلوم والفنون، من أهمها: الكشاف فى التفسير، والفائق فى غريب الحديث، والمفصل فى النحو، وأطواق الذهب والمقامات وشرحها فى الادب، وأساس البلاغه فى اللغه والمستقصى فى أمثال العرب.

وهذا الدرس الذى قدمه الزمخشرى أخذ طابع الجدة والابتكار والأصالة من عدة أمور :

أولها : أن هذه التطبيقات التى قدمها الزمخشرى فى كشافه لبعض الأصول البلاغية المقررة فى زمانه يمكن أن تعد من إضافاته ما دام يضفى عليها من حسه وذوقه .

ثانيها : أن العلامة الزمخشرى قدم من خلال هذا الدرس التطبيقى كثيراً من الآراء والنظرات الجديدة التى أضافها إلى جهود سابقيه .

ثالثها : أن الأصول البلاغية التى قررها عبدالقاهر كانت كأنها منكورة وقلقة بين معاصريه ، ولذلك كان يشكو كثيراً من جهل الناس بما يقول ، وعجزهم عن استيعابه وتمثله ، فأتاحت تطبيقات الزمخشرى لها قوة ومكانة وثبقتها فى البيئة العلمية وأظهرت قدرتها على تحديد المزايا البلاغية لأسلوب القرآن فى صورة دقيقة وشاملة ، وارتضتها فرقة المعتزلة التى تناوىء شيعة عبد القاهر وتصاولها ، فكان ذلك تأصيلا لهذه الأصول أى تأصيل [1] .

وعلى الرغم من عناية الزمخشرى بتطبيق قواعد البلاغة فى تفسيره لم ينل من الشهرة فى ميدان البلاغة ما ناله عبد القاهر الجرجانى وأبو يعقوب السكاكى ، وذلك أن الزمخشرى - وإن كان له هذا الأثر الكبير الذى أشرنا إليه - إلا أنه لم ينظم مباحث البلاغة ومسائلها كما نظمها كل من عبد القاهر والسكاكى ، ولم يكن له منهج متميز فى بحثها ، وإنما تناثرت مباحثها فى كشافه ، كما تناثرت آراؤه ونظراته بحيث لا يمكن جمعها وترتيبها إلا بعد جهد ومشقة .

---

(١) انظر البلاغة القرآنية ص ٦ .

وقد قام بهذا الجمع والتبويب من المعاصرين رجلان من المشتغلين بالدراسات البلاغية والقرآنية.

أولهما : الدكتور :مصطفى الصاوى الجوينى فى كتابه « منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن وبيان إعجازه » .

وثانيهما : الدكتور : محمد حسنين أبو موسى فى كتابه « البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى وأثرها فى الدراسات البلاغية » .

وقد كان كشاف الزمخشرى من الأصول الهامة التى اعتمد عليها السكاكى ، واستقى منها مادته العلمية ، وأفاد منها فى مفتاحه . نجد هذه الإفادة والتأثر فى مواضع كثيرة وإن لم يصرح بذكره إلا فى موضعين .

فمن ذلك ما أفاده منه فى باب التقديم ، حيث يقول « والتخصيص لازم للتقديم غالباً ، ولذلك نسمع أئمة المعانى فى معنى « إياك نعبد وإياك نستعين » يقولون: نخصك بالعبادة لا نعبد غيرك ، ونخصك بالاستعانة منك لا نستعين أحداً سواك ، وفى معنى « إن كنتم إياه تعبدون » يقولون إن كنتم تخصونه بالعبادة، وفى معنى قوله « وبالآخرة هم يوقنون » تذهب إلى أنه تعريض بأن الآخرة التى عليها أهل الكتاب فيما يقولون إنها لا يدخل الجنة فيها إلا من كان هودا أو نصارى ، وأنها لا تمسهم النار فيها إلا أياماً معدودات ، وأن أهل الجنة فيها لا يتلذذون فى الجنة إلا بالنسيم والأرواح العبقة والسماع اللذيذ ، ليست بالآخرة وإيقانهم بمثلها ليس من الإيقان بالتى هى الآخرة عند الله فى شىء . . [وفى قوله تعالى « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » يقولون أخرت صلة الشهادة أولا وقدمت ثانيا] لأن الفرض فى الأول إثبات شهادتهم على الأمم ، وفى الآخرى اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم [1] » .

(١) مفتاح العلوم ص ١٠١ .

وهذه التعليقات التى أوردها السكاكى على هذه الأمثلة القرآنية نجدها بنصها فى كشاف الزمخشرى ، مما يحملنا نطمئن إلى أنه أخذ هذه المعانى من الزمخشرى ، مشيراً إليه بأئمة المعانى [1] .

وفى الفرق بين الجملة الإسمية والفعلية - حيث إن دلالة الأولى على الثبوت والثانية على التجدد والحدوث - نجده ينقل نقلا يكاد يتفق مع ما أورده الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون » .

فنراه يقول فى الحالة المقتضية لمجىء المسند جملة اسمية : « وأما الحالة المقتضية لكونها اسمية فهى إذا كان المراد خلاف التجدد والتغير كقولك زيد ابوه منطلق فالاسم إن دل على التجدد لم يدل عليه إلا بالعرض ، وما تسمع من تفاوت الجملتين الفعلية والاسمية تجددا وثبوتا هو يطلعك على أنه حين ادعى المنافقون الإيمان بقولهم آمنا بالله وباليوم الآخر جائين به جملة فعلية على معنى أحدثنا الدخول فى الايمان وأعرضنا عن الكفر ليروج ذلك عنهم كيف طبق المفصل فى رد دعواهم الكاذبة قوله تعالى : « وما هم بمؤمنين » حيث جىء به جملة اسمية ، ومع الباء وعلى تفاوت كلام المنافقين مع المؤمنين ومع شياطينهم فيما يحكيه جل وعلا عنهم وهو « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم (تفاوتا الى جملة فعلية وهى (آمنا) والى اسمية ومع ان وهى (انا معكم) كيف أصاب شاكلة الرمى » [2] .

وهذا الذى أورده السكاكى فى الفرق بين (آمنا) بالجملة الفعلية ، وبين

---

(١) انظر هذه المواضع فى تفسير الكشاف .

(٢) مفتاح العلوم ص ٩٤ ، ٩٥ .

« وماهم بمؤمنين » بالاسمية هو بعينه ما شرحه الزمخشري وأوضحه في تفسير الآية الكريمة [1] .

كما تأثر السكاكي بجار الله في الالتفات وفي كشف القيمة الفنية لهذا اللون من التعبير فيقول : « اعلم أن هذا النوع ـ أعني نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة ـ لا يختص المسند إليه ولا هذا القدر ، بل الحكاية والخطاب والغيبة ، ثلاثتها ينقل كل واحد منها إلى الآخر ، ويسمى هذا النقل التفاتا عند علماء علم المعاني ، والعرب يستكثرون منه ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه وأملأ باستدرار إصغائه وهم أحرياء بذلك [2] » .

وإذا رجعنا إلى كلام الزمخشري في هذا الفن نجده يقول في تفسير قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » فإن قلت : لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت : هذا يسمى الالتفات في البيان . وقد يكون من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى التكلم كقوله تعالى « حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم » وقوله تعالى : « والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه » وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات : ـ

تطاول ليلك بالاثمد ... ونام الخلي ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة ... كليلة ذي العائر الأرمد
وذلك من نبأ جاءني ... وخبرته عن أبي الأسود

وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه ، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع

(١) انظر الكشاف ١/٣٠

(٢) مفتاح العلوم ص ٨٦ .

وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد . وقد تختص مواقعه بفوائد ، ومما اختص به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق الثناء وغاية الخضوع والاستعانة فى المهمات ، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل : إياك يامن هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه ، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذى لا تحق العبادة إلا به [1] » .

فتحديد السكاكى للالتفات والكشف عن معناه ، وكذا أثره ومايحدثه فى الكلام من نشاط وتطرية للسامع ، وأيضا الاستشهاد بأبيات امرىء القيس وتوضيح ما فيها من الالتفات كل هذا نجده عند الزمخشرى مما يؤكد إفادة السكاكى منه وأخذه عنه فى هذا الموضع .

ويذكر السكاكى فن التغليب ، ويسوق كثيرا من الآيات القرآنية التى جاءت على هذا اللون ، ونجده فى كل ما ذكره ينقل عن الزمخشرى ، ولا يزيد على ما جاء فى كشافه .

فيقول : « باب التغليب باب واسع يجرى فى كل فن ، قال تعالى : حكاية عن قوم شعيب « لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا » أدخل شعيب فى لتعودن فى ملتنا بحكم التغليب وإلا فما كان شعيب فى ملتهم كافراً مثلهم . . . وكذا قوله « إن عدنا فى ملتكم » وقال تعالى « إلا امرأته كانت من الغابرين » وفى موضع آخر « وكانت من القانتين » عدت الأنثى من الذكور بحكم التغليب ، وقال تعالى « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس » عد ابليس من الملائكة بحكم التغليب عد الأنثى من الذكور ، ومن هذا الباب

(١) الكشاف ١/١٠

قوله تعالى « بل أنتم قوم تجهلون » بتاء الخطاب ، غلب جانب أنتم على جانب قوم ، وكذا (وما ربك بغافل عما تعملون) فيمن قرأ بتاء الخطاب ، أى أنت يا محمد وجميع المكلفين وغيرهم وكذا يذرؤكم فى قوله تعالى « جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه » خطابا شاملا للعقلاء والأنعام مغلبا فيه المخاطبون على الغيب والعقلاء على مالا يعقل[1].

ويبين الزمخشرى نكتة التعبير بالفعل المضارع بدل الماضى فى قوله تعالى « والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور » وكيف أن الآية جاءت بالفعل « تثير » على المضارعة دون ما قبله وما بعده ؟

فيقول : « ليحكى الحال التى تقع فيها إثارة الرياح السحاب ، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية . وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب ، وغير ذلك ، كما قال تأبط شراً :

بأنى قد لقيت الغول تهوى ... بسهب كالصحيفة صحصحان
فأضربها بلا دهش فخرت ... صريعاً لليدين وللجران

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التى تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجب من جرأته على كل حول وثباته عند كل شدة ، وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها لما كان من الدلائل على القدرة الباهرة قيل : فسقناه وأحيينا ، معدولا بهما عن لفظة الغيبة إلى ما هو أدخل فى الاختصاص وأدل عليه[1] .

ويقول السكاكى : « قال فتثير استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة

(١) الكشاف ٣ / ٤٦٤ .

على القدرة الربانية من إثارة السحاب مسخراً بين السماء والأرض متكوناً في المرأى تارة عن قزع وكأنها قطع قطن مندوف ، ثم تتضام متقلبة بين أطوار حتى يعدن ركاماً وأنه طريق للبلغاء لا يعدلون عنه إذا اقتضى المقام سلوكه أو ما ترى تأبط شراً في قوله :

بأني قد لقيت الغول تهوى بسهب كالصحيفة صحصحان
فأضربها بلا دهش فخرت صريعاً لليدين وللجران

كيف سلك في (فأضربها بلا دهش) قصداً إلى أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها بضرب الغول كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها ويتطلب منهم مشاهدتها تعجيباً من جرأته على كل هول وثباته عند كل شدة »[1] .

ونستطيع — بأدنى تأمل — أن نرى هذا الاتفاق بين السكاكي والزمخشري مما يحملنا نؤكد أن أبا يعقوب أخذ عن الزمخشري وأفاد منه في هذا الموضع .

كما تأثر السكاكي بالزمخشري في باب الفصل والوصل في عدة مواضع ، من ذلك بيان الفصل للاستئناف في قوله تعالى « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يقول السكاكي « أولئك على هدى من ربهم جاء مفصولا عما قبله بطريق الاستئناف كأنه قيل : ما للمتقين الجامعين بين الإيمان بالغيب في ضمن إقامة الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله تعالى وبين الإيمان بالكتب المنزلة في ضمن الإيقان بالآخرة ، اختصوا بهدى لا يكتنه كنهه ولا يقادر قدره مقولا في حقهم هدى للمتقين الذين ، والذين بتنكير هدى ، فأجيب بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد ولا مستبدع أن يفوزوا دون من عداهم بالهدى عاجلا وبالفلاح آجلا ، ولك أن تقدر تمام الكلام هو : المتقين

(١) مفتاح العلوم ص ١٠٧ .

وتقدير السؤال ويستأنف الذين يؤمنون بالغيب إلى ساقة الكلام وأنه أدخل في البلاغة ، لكون الاستئناف على هذا الوجه منطوياً على بيان الموجب لاختصاصهم بما به اختصوا به[1] .

وهذا الذي أورده السكاكي مأخوذ من صاحب الكشاف[2] .

كما ذكر الزمخشري وخالفه في المعطوف عليه في قوله تعالى « وبشر المؤمنين » في سورة الصف ، حيث ذهب صاحب الكشاف إلى أنه معطوف على « تؤمنون » قبله ، لكونه في معنى آمنوا ، بينما يرى السكاكي غير ذلك ، فيقول : « عطف ، وبشر المؤمنين » في سورة الصف عندي على قل مراداً قبل يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم ، وذهب صاحب الكشاف إلى أنه معطوف على تؤمنون قبله ، لكونه في معنى آمنوا »[3] .

كما صرح بذكر صاحب الكشاف وخالفه في باب الإيجاز ، وذلك في تقدير المحذوف في قوله تعالى : « ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله » .

قال السكاكي « قدر صاحب الكشاف — رحمه الله — قوله ولقد آتينا داوود وسليمان علما وقالا الحمد لله نظراً إلى الواو في وقالا ولقد آتينا داوود وسليمان علماً فعملا به وعلماه وعرفا حق النعمة فيه والفضيلة وقالا الحمد لله ، ويحتمل عندي أنه أخبر تعالى عما صنع بهما وأخبر عما قالا كأنه قال نحن فعلنا إيتاء العلم وهما فعلا الحمد تفويضاً استفادة ترتب الحمد على إيتاء العلم إلى فهم السامع مثله في قم يدعوك بدل قم فإنه يدعوك وانه فن من المبالغة لطيف المسلك »[4] .

---

(١) مفتاح العلوم ص ١١٥ .

(٢) انظر الكشاف ١/٢٤ .

(٣) مفتاح العلوم ص ١١٣ .

(٤) المصدر السابق ص ١٢١ .

ومن المواضع التي خالف فيها السكاكي صاحب الكشاف وإن لم يصرح باسمه الجملة الحالية في قوله تعالى : « وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم » .

وقد ذكر الخطيب القزويني هذه المخالفة في قوله : « قال السكاكي : الوجه فيه عندي هو أن « ولها كتاب معلوم » حال لقرية ، لكونها في حكم الموصوفة نازلة منزلة « وما أهلكنا قرية من القرى » لا وصف ، وحمله على الوصف سهو لا خطأ ، ولا عيب في السهو للإنسان ولا ذم ، والسهو ما يتنبه صاحبه بأ في تنبيه ، والخطأ ما لا يتنبه له صاحبه أو يتنبه ولكن بعد تعب . وكأنه عرض بالزمخشري حيث قال في تفسيره « لها كتاب » جملة واقعة صفة لقرية ، والقياس ألا يتوسط الواو بينهما ، كما في قوله تعالى : « وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون » وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف ، كما يقال في الحال : جاءني زيد عليه ثوب ، وجاءني زيد وعليه ثوب »[1] .

والواقع أن روح الزمخشري واضحة كل الوضوح في مفتاح العلوم ، ولا عجب ، فقد كان هم السكاكي هو النظم القرآني وماحواه من أدلة الإعجاز وبراهينه ، وإذا كانت أصول عبد القاهر وقواعده زاداً نظريا لما قدمه السكاكي ، فقد جاءت تطبيقات الزمخشري غذاء ورواء استمد منه السكاكي كثيراً مما دلل به على قضية الإعجاز القرآني وما حواه أسلوبه من بديع النظم وعجيب التأليف .

بل إن تحليلات الزمخشري ونظراته الثاقبة في كثير من الأساليب كانت هاديا للسكاكي في تعريفه لعلم المعاني .

---

(١) الايضاح ٢ /١٠٧ .

فقد جاء تعريفه لهذا العلم بأنه « تتبع خواص تراكيب الكلام فى الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره »[١] .

« والسكاكى له رأى عجيب ، يذكر فى هذا الصدد ، وهو أنه يستمد قيمة الخصائص البلاغية فى الأسلوب من قيمة قائليها ، لذلك لا يعتد بخواص التراكيب إلا إذا كانت قد صدرت من بليغ ، فهو لا ينظر للخصوصية من حيث هى ، وإنما يعنى بالصنعة المقصودة والاحتفال المتعمد من القائل ، فلو صدرت التراكيب البليغة من غير بليغ سقطت قيمتها ، وليس من حقك أن تعجب بالنص قبل أن تعرف قدر قائله .

يقول فى شرحه لتعريف علم المعانى : « وأعنى بخاصية التراكيب ماسبق منه إلى الفهم عند سماع ذلك التركيب جاريا مجرى اللازم له لكونه صادراً عن البليغ ، لا لنفس ذلك التركيب من حيث هو »[٢] .

وتتبع السكاكى فى كل ما تأثر فيه بالزمخشرى وأخذه عنه يخرجنا عن القصد ، وحسبنا أن نشير إلى أن أخذ السكاكى من الزمخشرى واضح فى كثير من الأبواب والمسائل ، وأن المواطن التى تأثر به فيها أكثر من أن تحصى عداً ، وأن مخالفته له فى العديد من القضايا والمسائل تعد دليلا على أن السكاكى كان ذا شخصية واضحة مستقلة ، كما كان ذا عقل قوى يستوعب كل ما يقرأ ، وأن ما أخذه ، وتأثر به صبغه بشخصيته ، بحيث استطاع أن يضفى عليه وأن يلبسه حلته .

---

(١) مفتاح العلوم ص ٧٠ .

(٢) البلاغة القرآنية ص ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ومفتاح العلوم ص ٧٠ .

٣ - فخر الدين الرازى(١)

يعد فخر الدين الرازى بكتابه « نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز » الجسر الذى عبرت عليه البلاغة من تقريرات عبد القاهر وتحليلاته الأدبية إلى القوالب والقواعد التى رأيناها عند السكاكى ، فى هذا الكتاب أصول الدراسات البلاغية التى انتهت إليها جهود المتقدمين من علماء البلاغة .

وقد حصرت فى هذا الكتاب مسائل البلاغة وفنونها من غير محاولة لتوزيعها على علومها الثلاثة ، ولكن مباحث كل منها مجتمعة فى هذا الكتاب ، فى حدودها وتعاريفها ، وفى تقسيماتها وفنونها ، ولم يشذ منها إلا القليل .

فنرى فى هذا الكتاب حديثا مفصلا عن الفصاحة والبلاغة ، والخبر وما يتعلق به من أحوال . وذكر لأحوال المسند أو المسند إليه من تعريف وتنكير وذكر وحذف ، كما تعرض بالتفصيل للقصر وحده ، والفصل والوصل والإيجاز والإطناب ، وفيه أيضاً كثير من المحسنات البديعية .

---

(١) هو الإمام فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الرازى ، ولد سنة ٥٤٤ هـ ، وألف فى فنون كثيرة منها : تفسير القرآن ، وشرح سورة الفاتحة ، ومنها فى علم الكلام : المطالب العلية . ونهاية العقول . وكتاب الاربعين ، والمحصل ، وكتاب البيان والبرهان فى الرد على أهل الزيغ والطغيان ، والمباحث المشرقية ، وفى أصول الفقه المحصول ، وفى الحكمة الملخص وشرح الإشارات وشرح عيون الحكمة ، وله شروح أسماء الله الحسنى ، وشرح الوجيز فى الفقه ، وشرح سقط الزند للمعرى ، وشرح كليات القانون فى الطب . وكانت وفاته يوم عيد الفطر من سنة ٦٠٦ هـ .

وقد كان علم البيان بمعناه الواسع هو الهدف الذى من أجله وضع الرازى كتابه توصلا إلى إعجاز القرآن فى نظمه وأسلوبه ، إذ أنه بعد أن أدرك فضل هذا العلم وأثره فى الأدب وفى إثبات الإعجاز القرآنى وجد أن ما كتبه الإمام عبد القاهر الجرجانى فى كتابيه « دلائل الإعجاز » ، و « أسرار البلاغة » هو خير ما كتب فى هذا العلم ، إلا أنه أهمل رعاية الترتيب بين أبواب هذا العلم وأصوله ، فرأى أن يلتقط من الكتابين معاقد فوائدهما مع مراعاة الترتيب والتبويب .

فهو يرى « أن الناس كانوا مقصرين فى ضبط معاقده وفصوله متخبطين فى إتقان فروعه وأصوله ، معتقدين فيه اعتقادات حائرة عن منهج الصواب والسداد ، زائغة عن طريق الحق والرشاد ، ظانين أن كل من عرف أوضاع لغة من اللغات وقدر على استعمال بعض العبارات فهو بالغ فى تلك اللغة من البيان إلى ذرى أملاكها ، مالك لمباديها وغاياتها . واستمر الناس بهذا الوسواس إلى أن وفق الله — تعالى — الإمام مجد الإسلام عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى تغمده الله برحمته وأفاض عليه فنون مغفرته حتى استخرج أصول هذا العلم وقوانينه ، ورتب حججه وبراهينه ، وبالغ فى الكشف عن حقائقه والفحص عن لطائفه ودقائقه ، وصنف فى ذلك كتابين لقب أحدهما بـ « دلائل الإعجاز » ، والثانى بـ « أسرار البلاغة » وجمع فيهما من القواعد الغريبة والدقائق العجيبة والوجوه العقلية والشواهد النقلية واللطائف الأدبية والمباحث العربية ما لا يوجد فى كلام من قبله من المتقدمين ، ولم يصل إليها غيره أحد من العلماء الراسخين[1] » .

ولكون عبد القاهر مستخرجاً لأصول هذا العلم وأقسامه وشرائطه

---

(١) نهاية الإيجاز ص ٤ .

وأحكامه أهمل رعاية ترتيب الأصول والأبواب ، وأطنب فى الكلام كل الإطناب .

ويعترف الرازى بأنه التقط من الكتابين معاقد فوائدهما ومقاصد فرائدهما غير أنه راعى الترتيب مع التهذيب والتحرير مع التقرير وضبط أوابد الإجمالات فى كل باب بالتقسيمات اليقينية ، وجمع متفرقات الكلام فى الضوابط العقلية مع الاجتناب عن الإطناب الممل ، والاحتراز عن الاختصار المخل[1] .

وكتاب الرازى يبدو فيه رجحان الجانب العقلى ، فهو محاولة لتقنين الأصول والقواعد التى يقوم عليها علم البلاغة ، كما أن له اهتماما خاصا بضبط الحدود وتقسيم الأقسام .

وإذا كان كتاب السكاكى يمثل الشكل الأخير والصورة النهائية التى وقفت عندها مسائل البلاغة وقواعدها فإن نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز يعد المرحلة الأولى لصنيع السكاكى ، كما يعد الركيزة التى قام عليها حصر المسائل البلاغية وتحديد أبوابها .

وقد أفاد السكاكى من كتاب الرازى إفادة كبيرة ، بل إن هذا الكتاب كان أحد الأصول الهامة التى اعتمد عليها السكاكى ، خصوصاً فى القسم الثالث من مفتاحه .

فالفكرة الرئيسة التى بنى عليها السكاكى كتابه ـ وهى فكرة الإعجاز بالنظم ـ نجدها عند الرازى محوراً أدار حولها كتابه .

فقد ذكر السكاكى مذاهب أربعة فى الإعجاز لم يعجبه واحد منها ،

---

(١) المصدر السابق — الموضع السابق .

وهى ما نجده فى قوله : « اعلم أن قارعى باب الاستدلال - بعد الاتفاق على أنه معجز - مختلفون فى وجه الإعجاز ، فنهم من يقول وجه الاعجاز هو أنه عز سلطانه صرف المتحدين لمعارضة القرآن عن الاتيان بمثله بمشيئته ، لا أنها لم تكن مقدوراً عليها فيما بينهم فى نفس الأمر . . . ومنهم من يقول وجه إعجاز القرآن وروده على أسلوب مبتدأ مباين لأساليب كلامهم فى خطبهم وأشعارهم ، لا سيما فى مطالع السور ومقاطع الآى . . . . ومنهم من يقول وجه إعجازه سلامته عن التناقض . . . . ومنهم من يقول وجه الإعجاز الاشتمال على الغيوب »(١) .

وبعد أن يفند السكاكى هذه المذاهب واحداً واحداً ويدفعها بما يردها ويبطلها يقول : « فهذه أقوال أربعة يخمسها ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة ولا طريق لك إلى هذا الخامس إلا طول خدمة هذين العلمين - يعنى المعانى والبيان - بعد فضل آلهى من هبة يهبها بحكمته من يشاء ، وهى النفس المستعدة لذلك فكل ميسر لما خلق »(٢) .

وهذه الفكرة بعينها نجدها عند الرازى ، حيث ذكر أقوال السابقين فى الإعجاز ، وحصرها فى هذه المذاهب الأربعة ، ولم يرض عن واحد منها ، ورأى أن القرآن معجز بما اشتمل عليه من فصاحة وبلاغة ، ولا يمكن التوصل إلى معرفة إعجازه إلا بدراسة البلاغة والتعمق فى مسائلها »(٣) .

---

(١) انظر مفتاح العلوم ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٢١٧ .

(٣) انظر نهاية الإعجاز ص ٥ وما بعدها .

ويذكر الرازى أموراً لابد منها لكى تكون العبارة فصيحة خالية من العيوب ، وهذه الأمور تعد شروطا لما أسماه « الدلالة اللفظية » وهى :

١ — أن يكون التركيب معتدل المزاج ، فإن فى التركيبات ما يكون متنافر جداً ، كقوله :

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

وكقوله :

لم يضرها والحمد لله شىء ... وانثنت نحو عزف نفس ذهول

٢ — أن تكون الكلمة جارية على مقاييس اللغة وقوانينها .

٣ — الاحتراز عن اللحن والمحافظة على قوانين النحو والإعراب .

٤ — الاحتراز عن الألفاظ الغريبة الوحشية[1].

وما كتبه السكاكى فى فصاحة المفرد والمركب جاء متأثراً إلى حد كبير بما ذكره الرازى فى هذا الموضع .

وذلك قوله: « وأما الفصاحة فهى قسمان راجع إلى المعنى وهو خلوص الكلام عن التعقيد ، وراجع إلى اللفظ وهو أن تكون الكلمة عربية أصلية ، وعلامة ذلك أن تكون على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدور ، واستعمالهم لها أكثر ، لا مما أحدثها المولدون ، ولا مما أخطأت فيه العامة ، وأن تكون أجرى عن قوانين اللغة ، وأن تكون سليمة عن التنافر والمراد بتعقيد الكلام هو أن يعثر صاحبه فكرك فى متصرفه ويشيك طريقك إلى المعنى ويوعر مذهبك نحوه ، حتى يقسم فكرك ويشعب ظنك إلى أن لا تدرى من أين تتوصل وبأى طريق معناه »[2] .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦ وما بعدها .

(٢) مفتاح العلوم ص ١٧٦ .

وفي التشبيه نجد أن حديث الرازي عنه جاء داخلا في حديثه عن المجاز ، فقد جعله كالمقدمة للاستعارة ، لأن البحث فيها لا يتم إلا بتقديم البحث عن التشبيه .

وهذا ما فعله السكاكي ، حيث أوضح أن التشبيه إنما عد أصلا من أصول البيان ، لابتناء الاستعارة عليه ، فيقول : « ثم إن المجاز - أعني الاستعارة - من حيث إنها من فروع التشبيه لا تتحقق بمجرد حصول الانتقال من الملزوم إلى اللازم ، بل لا بد فيها من تقدمة تشبيه شيء بذلك الملزوم في لازم له تستدعي تقديم التعرض للتشبيه ، فلابد من أن نأخذه أصلا ثالثاً ونقسمه[1] » .

وقد أطال الرازي الحديث في باب التشبيه ، فعقد له قاعدة من أربعة أبواب ، خص الأول منها بالحديث عن طرفي التشبيه ، فذكر أنهما إما أن يكونا محسوسين أو معقولين أو مختلفين ، والثاني خصصه لوجه التشبيه ، ففيه ماهو قريب ومنه ماهو غريب ، ويبين السبب في كون بعض التشبيهات قريبا وبعضها غريبا ، وخص الباب الثالث لأغراض التشبيه ، فقسم هذه الأغراض إلى قسمين ، فنها ما يعود إلى المشبه ، ومنها مايعود إلى المشبه به .

ولم يخرج كلام السكاكي عما ذكره الرازي في هذه الأبواب ، بل إن الأمثلة التي استشهد بها في هذه المسائل المتعلقة بالتشبيه وأقسامه نجدها عند الرازي[2] .

---

(١) المصدر السابق ص ١٤١ .

(٢) انظر مفتاح العلوم ص ١٤٢ ومابعدها ، ونهاية الإيجاز ص ٥٧ وما بعدها .

وفى باب المجاز العقلى نجد أن السكاكى يتأثر بالرازى فى كثير مما يتعلق بهذا النوع من المجاز خصوصا فى لزوم أن يكون للفعل فاعل حقيق.

فقد أبدى الإمام عبد القاهر الجرجانى فى هذه المسألة رأيا هو : أنه ليس بلازم فى المجاز العقلى أن يكون للفعل فاعل حقيق يكون الإسناد إليه حقيقة يتفرع عنه الإسناد المجازى فى المجاز العقلى. وجوز الإمام عبد القاهر أن يكون الفعل مسنداً إلى الفاعل المجازى من أول الأمر[1].

ثم جاء الرازى فأبدى نظراً على ماقاله الإمام عبد القاهر وقال : « ذلك لأن الفعل يستحيل وجوده إلا من الفاعل، فالفعل المسند إلى شىء إما أن يسند إلى ما هو مستند فى ذاته إليه فيكون الإسناد حقيقيا، وإذا لم يسند إلى ذلك الشىء فلابد من شىء آخر يكون هذا مستندا لذاته إليه واللازم حصول الفعل، لا من الفاعل وهو محال »[2].

وقد حذا السكاكى حذو الرازى وأفاد منه، فحذر من اتباع رأى الامام عبد القاهر، وجعل الفاعل الحقيق فى بعض الصور التى لا يظهر لها فاعل حقيق هو الله سبحانه وتعالى، وفى بعضها هو النفس لأنها فى حالة الاسناد المجازى مستندة إلى الداعى. والعقل لا يقبل الداعى فاعلا وإنما يقبله محركا.

وحجة السكاكى - كما هى حجة الرازى - أن المجاز فرع الحقيقة، ومحال أن يتحقق فرع بدون حقيقته[3]. كما تأثر السكاكى بالرازى فى تقسيم المحسنات البديعية إلى معنوية ولفظية، فقد كان مسلك الرازى موحياً

---

(١) انظر دلائل الاعجاز ص ٢٠٢، ٢٠٣.
(٢) نهاية الايجاز ص ٥٢.
(٣) انظر مفتاح العلوم ص ١٦٨.

بذلك ، حيث فرق هذه المحسنات بين الجملة التى خصصها للمفردات ، والجملة التى خصصها للنظم .

وقد جاء حديث السكاكى متفقا إلى حد كبير فى كثير من الألوان البديعية التى عرض لها ، كالقلب والترصيع والطباق والمقابلة والاعتراض واللف والنشر . وتأكيد المدح بما يشبه الذم وغيرها ، مما يجعلنا نطمئن إلى إفادة السكاكى بالرازى ومتابعته له فى هذه المحسنات .

وإذا كان السكاكى قد ختم مفتاحه بدفاع عن القرآن الكريم ورد شبه الضلال والطاعنين فى عظمة هذا الكتاب وإعجازه ، فإنه قد جاء فى هذه الخاتمة متابعاً ومتأثراً بالامام الرازى ، حيث كانت خاتمة كتابه عما قاله الملحدون من أن فى القرآن تناقضا ، وفى بيان فساد طعنهم فى القرآن من جهة التكرار والتطويل[1].

هذا قليل من كثير من المواضع التى تأثر فيها أبو يعقوب السكاكى بالامام فخر الدين الرازى ، فإن أثر الرازى واضح كل الوضوح فى كثير مما عرض له السكاكى فى المفتاح مما يدل على اهتمام السكاكى بكل ما كتبه الرازى حول قضية الاعجاز بالنظم وتأثره به .

* ● ●

---

(١) انظر مفتاح العلوم ص٢٤١ وما بعدها ، ونهاية الايجاز ص ١٦٠ وما بعدها .

المبحث الثانى

أثر السكاكى فى ميدان الإعجاز بالنظم

– ١ –

نال السكاكى بكتابه « مفتاح العلوم » شهرة لم ينلها إلا القليون ممن كتبوا فى الإعجاز القرآنى والبلاغة العربية قبله، فقد سحر العلماء وفتنهم، وجعلوه القطب الذى يدورون حوله، حتى أنساهم أنفسهم فأنكروا ملكاتهم ليسيروا فى ركابه.

ولم تكن شهرة السكاكى ومفتاحه مقصورة على بيئة دون أخرى. وإنما طبقت شهرته الآفاق، وعم أثره كل البيئات العلمية والأوساط الأدبية منذ ظهوره فى القرن السابع الهجرى وحتى عصرنا هذا.

وقد اشتهر السكاكى بكتابه هذا على أنه زعيم مدرسة تقف فى مواجهة المدرسة الأدبية فى دراسة البلاغة وتناول مسائلها، وذلك لما عرف عنه من اهتمام بالغ بتحديد الحدود وضبط المسائل والقواعد، ومن إشباعه الدرس البلاغى بالمنطق والفلسفة اللذين نجدهما ثمة ظاهرة فى مفتاحه، وأصبح لهذا المنهج أو هذه المدرسة فى دراسة البلاغة روادها وأعلامها الذين حذوا حذو السكاكى وساروا فى ركابه واقتفوا أثره.

وكانت البيئة المصرية خير بيئة احتضنت « مفتاح العلوم »، وأولته اهتماماً كبيراً، فأصبح المهيمن على مجالس العلم والمسيطر على عقول العلماء، كما أصبح العمدة فى تدريس البلاغة ومسائلها، وذلك على الرغم من اعتماد هذه البيئة على الذوق، وعلى ما يغذى الملكات الأدبية ويجعلها تنمو وتزدهر.

وقد صرح بهذا أحد علماء هذه البيئة ، وهو بهاء الدين السبكى ، فقد قرر أن « أهل بلادنا — يعنى أهل مصر — مستغنون عن دراسة البيان بما طبعهم الله — تعالى — عليه من الذوق السليم ، والفهم المستقيم ، والأذهان التى هى أرق من النسيم ، وألطف من ماء الحياة فى المحيا الوسيم أكسبهم النيل تلك الحلاوة ، وأشار إليهم بإصبعه فظهرت عليهم هذه الطلاوة ، فهم يدركون بطباعهم ماأفنت فيه العلماء — فضلا عن الأغمار — الأعمار ، ويرون فى مرآة قلوبهم الصقلية ما احتجب من الأسرار خلف الأستار .. . فلذلك صرفوا هممهم إلى العلوم التى هى نتيجة ، أو مادة لعلم البيان ، كاللغة والنحو والفقه والحديث وتفسير القرآن[1] » .

فهذه البيئة كانت تعتمد على الذوق وتميل إليه ، كما فى كتب ابن الأثير وأسامة بن منقذ وابن أبى الإصبع المصرى . لكن بعد أن عرفت مفتاح العلوم اتجهت إليه وأقبلت عليه ، وأصبح له أثر واضح على ما خلفته هذه البيئة .

ويتجلى هذا الأثر فى التلخيصات والشروح التى ابتدأها بدر الدين بن مالك ، وفى دخول الفلسفة وبحوث البلاغة ومسائلها ،

وبذلك حفظت مصر المدرسة الفلسفية المشرقية ، وقامت على إحياء كتبها وخدمتها ، فألف علماؤها الكثير الجم من الشروح والحواشى على التلخيص والسمرقندية وغيرها ، وألفوا أصولا ومتونا على هذا النسق[2] .

أما فى بيئة المشارقة فقد كان المفتاح غايتهم التى يمموها ، بل إنهم أغلقوا

---

(١) عروس الأفراح (ضمن شروح التلخيص) ١ / ٥ .

(٢) انظر مصر فى تاريخ البلاغة ص ٢٢ .

بابهم دونه ، خصوصاً بعد ما لقيته هذه البيئة من هجمات المغول وتدميرهم الشامل لما خلفته هذه البيئة من تراث حافل وكنوز نفيسة ، ولم يبق أمام العلماء - بعد أن عاد الغزاة إلى ديارهم وهدأت الأحوال واستقر الناس - إلا النذر اليسير من نتاج أسلافهم في سائر العلوم والفنون .

يقول السبكي : « أما أهل بلاد المشرق الذين لهم اليد الطولى في العلوم ، ولاسيما العلوم العقلية والمنطق ، فاستوفوا هممهم الشامخة في تحصيله ، واستولوا بجدهم على جملته وتفصيله ، ووردوا مناهل هذا العلم فصدروا من عنها بملء سجالهم ، وكيف لا وقد أجلبوا عليه بخيلهم ورجلهم فذلك عمروا منه كل دارس ، وعبروا من حصونه المشيدة مارقد عنه الحارس ، وبلغوا عنان السماء في طلبه ، ولو كان الدين بالثريا لناله رجال من فارس ، إلى أن خرج عنهم المفتاح فكأن الباب أغلق دونهم »[1]

بل أضحت في هذه البيئة عدة ظواهر علمية كانت من وحى السكاكي وفكره ، ودرسه في مفتاحه ، وقل أن نجد هذه الظواهر في غير بيئته المشارقة .

ولعل من أبرز هذه الظواهر كثرة الشروح والحواشي والملخصات والتقارير التي أكب عليها العلماء فأقبلوا على تراث السابقين يقدمون عليه الشرح تلو الشرح والتلخيص تلو التلخيص دون زيادة أو إضافة فجمدت العقول وتحجرت ، ورضى هؤلاء أن يلغوا ملكاتهم ويكتفوا بما قدمه الأقدمون .

ومن الظواهر العلمية أيضا كثرة المناظرات والمناقشات التي كانت

---

(١) عروس الأفراح ١ / ٥ .

تعقد فى مجالس الرؤساء والأمراء ، ومن أشهرها تلك المناظرة التى جرت فى بلاط تيمور لنك سنة ٧٩١ هـ بين سعد الدين التفتازانى والسيد الشريف الجرجانى ، فقد اتصل السيد الشريف بتيمور لنك وارتحل معه إلى ماوراء النهر واشتغل بالتدريس هناك ، على حين كان السعد قديم الصلة بهذه البيئة مقدماً فى مجالس تيمور لنك فقامت المنافسة بينهما وجعل تيمور لنك يرجع السيد عما جعله يتجرأ على مهاجمة السعد مهاجمة فاصلة قضت بالمكانة الأولى للسيد الشريف . فمات السعد - رحمه الله - كمدا فى أوائل سنة ٧٩٢ هـ[1].

ولم تكن هذه المناظرة إلا مثالا لسيطرة الفكر الذى أثاره السكاكى وتأثر به من جاء بعده ممن اهتموا بالمنطق واتخذوه مناراً فى دراساتهم ومناهج بحثهم .

وقد أثار مفتاح العلوم نشاطاً واضحاً ، سواء فى بيئة المشارقة أو فى مصر والشام والعراق ، فقد عنى به جماعة من العلماء اشتغلوا بشرحه وتلخيصه وإيضاح مغلقه على طرق شتى ، ومن أشهر هؤلاء :

١ - بدر الدين بن مالك المتوفى سنة ٦٨٦ هـ اختصره فى كتاب سماه « المصباح فى اختصار المفتاح » ، واستمر ردحاً طويلا من الزمن قبلة طلاب البلاغة فى بلاد المغرب ، وعنى بشرحه جماعة من المؤلفين ، فكان مثله فى تلك البلاد مثل تلخيص القزوينى فى بلاد المشرق .

٢ - قطب الدين محمود بن مسعود بن مصلح الشيرازى ، المتوفى سنة ٧١٠ هـ ، شرحه فى كتاب سماه « مفتاح المفتاح » .

---

(١) انظر شذرات الذهب ٢ / ٣٢٢ .

٣ ـ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني ، المتوفى سنة ٧٣٩ هـ، اختصره في كتاب سماه « تلخيص المفتاح » طبقت شهرته الخافقين، وعنى بشرحه الجم الغفير من أهل المشرق ومصر والترك في كل العصور .

٤ ـ حسام الدين المؤذني الخوارزمي ، في شرح فرغ منه في أواسط المحرم سنة ٧٤٢ هـ .

٥ ـ محمد بن مظفر شمس الدين الخطيبي الخلخالي ، المتوفى سنة ٧٤٥ هـ، شرحه في كتاب سماه « شرح المفتاح » .

٦ ـ علي بن الحسين الموصلي الشافعي المتوفى سنة ٧٥٥ هـ . في شرح عرف بشرح ابن الشيخ عوينة .

٧ ـ عبد الرحمن عضد الدين الإيجي الشيرازي المتوفى سنة ٧٥٦ هـ ، اختصره في كتاب « الفوائد الغياثية في علوم المعاني والبيان والبديع » .

٨ ـ جمال الدين محمد بن أحمد الشريشي المتوفى سنة ٧٦٩ هـ ، في شرح له لطيف .

٩ ـ سعد الدين بن مسعود بن عمر التفتازاني المتوفى سنة ٧٩٢ هـ في كتاب سماه « شرح المفتاح » .

١٠ ـ علي بن محمد المعروف بالسيد الشريف الجرجاني ، المتوفى سنة ٨٠٦ هـ ، شرح القسم الثالث منه .

١١ ـ ابن كمال باشا المتوفى سنة ٩٤٠ هـ ألف « شرح المفتاح » و « تعبير المفتاح » .

١٢ ـ أحمد بن مصطفى المعروف بطا شكبرى زاده المتوفى سنة ٩٦٨هـ.

وقد ذكر السبكي شروحاً أخرى للمفتاح ، منها شرح للشيخ حسام

الدين قاضى الروم ، وشرح الشيخ ناصر الدين الترمذى ، وشرح الشيخ عماد الدين الكاشى[1].

غير أن هذا النشاط الواسع الذى دار حول المفتاح جاء مقصوراً على ما حواه من مسائل البلاغة وقواعدها ، فدار حول القسم الذى خصصه السكاكى لعلمى المعانى والبيان وما يتعلق بهما ، وهو القسم الثالث من الكتاب ، أما الركيزة الرئيسة فى الكتاب ، وهى قضية الإعجاز القرآنى فلم تنل اهتماما ولم تشغل بال الدارسين والباحثين ، ولم ينظروا إلى الكتاب نظرة تشمل كل جوانبه ، وتدور حول هدفه وما أراده له صاحبه ، ولعل ذلك يرجع إلى أمرين :

أولهما : أن قضية الإعجاز القرآنى بالنظم والتأليف لم تكن غريبة على أذهان الباحثين والمشتغلين بالدراسات القرآنية ، بل إنها فكرة قديمة مطروحة على موائد البحث والتنقيب ، منذ أوائل القرن الثالث عندما عرض لها أبو عبيدة معمر بن المثنى والجاحظ وأضرابهما ، من ثم فإن فكرة الكتاب لم تكن جديدة ، بل إن الأفكار التى دارت فى المفتاح حول الإعجاز القرآنى أو النظم هى أفكار مكرورة ، لذا فإن العلماء لم يحفلوا بما قدمه السكاكى من أفكار حول هذه القضية .

ثانيهما : أن مسائل البيان والبلاغة تعتمد على الذوق وتقوم على التحليل والتعمق فى فهم النصوص المدروسة ، ولا تعرف الأصول البلاغية ما يعرفه غيرها من التحديد والتقنين وضبط المسائل بالحدود والتعريفات ، وهذا ماعرفه الأقدمون وتوارثوه ، وجاءت مؤلفاتهم شاهدة عليه ، خصوصاً أهل مصر والشام والعراق الذين استغنوا عن قواعد هذا العلم

---

(١) انظر عروس الأفراح ١ / ٣٠ .

وحدوده بما طبعهم الله – تعالى – عليه من الذوق السليم والفهم المستقيم ، ولعل هؤلاء العلماء وجدوا فيما صنعه السكاكى بأصول هذا العلم وأسسه من ضبط لمسائله وتقعيد لقواعده ووضعه فى هذا القالب العلمى الدقيق ما بهرهم وشغلهم عن النظر الدقيق الشامل لكل جوانب الكتاب ، وكأنهم اكتفوا من السكاكى بما قدمه فى القسم الثالث فهاموا به وعكفوا عليه .

ولهذين السببين شغل العلماء بالقسم الثالث من الكتاب فجعلوه إمامهم فى تناول البلاغة ومسائلها ورائدهم فيما سلكوه من مناهج وطرق لمعالجة هذا الدرس وضبط أسسه وأصوله . من ثم كثرت الشروح والتلخيصات والتقريرات التى دارت حول هذا القسم ، ولم يلتفتوا إلى الكتاب كله وما أراده له صاحبه .

وإذا كان العلماء قد حمدوا للسكاكى ضبطه لمعاقل علم البلاغة ووضع مسائل هذا العلم فى صورة علمية أثبت التاريخ أنها أدعى لحفظه وصونه فإن السكاكى يحمد له – أيضا – أنه ضبط الأسس التى يقوم عليها فهم الإعجاز القرآنى ووضع هذه القضية فى قالب منطقى يفهمه القاصى والدانى، ويقره كل ذى عقل على اختلاف البيئات وتفاوت الأزمان .

● ● ●

— ٢ —

وعلى الرغم من أن قضية الإعجاز القرآنى ونظمه عند السكاكى لم تنل الحظ الوافر من اهتمام الدارسين والباحثين على مائدة الإعجاز فإننا نجد من هؤلاء من تأثر بالسكاكى فى هذا الجانب سواء من ناحية القواعد والقوالب التى ضبط بها معاقل هذه النظرية ، أو من ناحية تطبيقات السكاكى وكشفه الفياض للكثير من الأسرار والحكم التى ينطوى عليها النظم القرآنى وتقوم عليها أساليبه المعجزة .

ولعل هؤلاء الذين تأثروا بالسكاكى ونقلوا عنه فى هذا الجانب قد راعهم ما وجدوه فى مفتاحه من نظرات ثاقبة وأسس واضحة لم يجدوها عند غيره ممن تقدمه . ومعظم هؤلاء ممن ساروا على درب السكاكى وتربوا فى مدرسته البلاغية وكان لهم اشتغال بقضية الإعجاز بالنظم ، سواء شغلوا بالقواعد أو التطبيق ، خصوصاً أولئك الذين شغلهم كشاف الزمخشرى فوضعوا من أجله القواعد والمقاييس لفهم الإعجاز القرآنى من خلاله ، أو علقوا عليه وشرحوه ووضعوا عليه الحواشى ، كالعلامة قطب الدين الشيرازى (ت ٧١٠ هـ) فى حاشيته على الكشاف ، والعلامة شرف الدين الطيبى (ت ٧٤٣هـ) فى حاشيته « فتوح الغيب فى الكشف عن قناع الريب » والعلامة عمر الفارسى (ت ٧٤٥ هـ) فى حاشيته « تحفة الكشاف » والعلامة عماد الدين المعروف بالفاضل اليمنى (ت ٧٥٠ هـ) فى حاشيتين له على الكشاف الأولى : درر الأصداف فى حل عقد الكشاف ، والثانية : تحفة الأشراف فى كشف غوامض الكشاف . وغير هؤلاء كثيرون ممن لهم حواش على الكشاف ونجد عندهم تأثراً واضحاً فى حواشيهم بأبى يعقوب فيما أثاره حول النظم القرآنى وإعجازه .

ويكفي أن نقف مع ثلاثة من هؤلاء لنتبين إلى أى حد كان للسكاكى أثر واضح على ما كتبه العلماء والدارسون حول إعجاز القرآن ونظمه .

١ - يحي بن حمزة العلوى(١)

يعد يحي العلوى من المتأخرين الذين يمثلون الاتجاه الأدبى فى دراسة البلاغة ، وقد ضمن دراسته للبلاغة ومسائلها كتابه « الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز » .

وكان الباعث على تأليف هذا الكتاب أن جماعة من إخوانه شرعوا فى قراءة كتاب « الكشاف » عليه ، ورأى أن الزمخشرى قد أسس كشافه على قواعد علم البلاغة ، فاتضح عند ذلك وجه الإعجـــاز من التنزيل ، وعرف من أجله وجه التفرقة بين المستقيم والمعوج من التأويل ، وتحققوا أنه لا سبيل إلى الاطلاع على حقائق إعجاز القرآن إلا بإدراكه ، والوقوف

---

(١) هو : الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة بن على بن إبراهيم . ينتهى نسبه إلى الحسين بن على رضى الله عنهما ، ولد بصنعاء سنة ٦٦٩ هـ ، واشتغل بالعلوم وهو صغير ، فأخذ فى جميع أنواعها على أكابر علماء اليمن ، وتبحر فى جميع العلوم وفاق أقرانه ، وصنف التصانيف الحافلة ، فنها : الشامل ونهاية الوصول إلى علم الأصول ، والتمهيد لعلوم العدل والتوحيد والمعالم ، وكلها فى أصول الدين ، وفى النحو : الاقتصـــاد ، والحاصر لفوائد مقدمة طاهر ، والمنهاج والمحصل فى شرح أسرار المفصل . وفى علم المعانى والبيان الإيجاز والطراز ، وله غير ذلك من المصنفات الكثيرة التى بلغت مائة مجلد ، وهو من أكابر الزيدية باليمن ، وله ميل إلى الإنصاف مع طهارة لسان وسلامة صدر وعدم إقدام على التكفير والتفسيق بالتأويل ، وهو كثير الذب عن أعراض الصحابة رضى الله عنهم ، وقد تقلد باليمن إمارة المؤمنين سنة ٧٢٩ هـ وتوفى سنة ٧٤٩ هـ .

على أسراره وأغواره ، ومن أجل ذلك كان متميزاً على سائر التفاسير ، لأنه لم يعلم تفسيراً مؤسساً على علمى المعانى والبيان سواه ، فسأله بعضهم أن يملى فيه كتاباً يشتمل على التهذيب والتحقيق ؛ فالغاية التى يرمى إليها هذا الكتاب أو التى يرمى إليها علم البلاغة هى تلك الغاية التى رأيناها عند الأولين من الباحثين عن إعجاز القرآن الكريم عن طريق إثبات فصاحة ألفاظه وبلاغة معانيه .

وقد أجاد المؤلف فى درس فنون البلاغة وتوضيحها ، وختم كل موضوع درسه بشواهد حللها من القرآن ، ومن كلام النبى ﷺ ، ومن كلام الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ثم من كلام فحول الأدباء من أرباب صناعة النظم والنثر ، وهذه هى طبقات الكلام ودرجاته ، فالقرآن هو المثل الأعلى للفصاحة والبلاغة ويليه فى الطبقة كلام النبى ، فكلام الإمام ، ثم كلام الأدباء البلغاء ، فقد قرن البلاغة بالأدب على الرغم من أسلوب المنطق وأصول علم الكلام التى نجدها فاشية فى أسلوبه العلمى فى تناول الماهيات والحدود والتقاسيم[1] .

وقد كانت المصادر الرئيسة التى اعتمد عليها العلوى فى تأليف كتابه أربعة مصادر هى : « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » لضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) ، وكتاب « نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز » لفخر الدين الرازى (ت ٦٠٦ هـ) ، وكتاب « التبيان فى علم البيان المطلع على إعجاز القرآن » لعبد الواحد بن الكريم المعروف بابن الزملكانى (ت ٦٥١ هـ) وكتاب « المصباح فى اختصار المفتاح » لبدر الدين ابن مالك (ت ٦٨٦ هـ) .

---

(١) انظر البيان العربى ص ٣٦٦ .

وعلى الرغم من أن معظم المصادر التى اعتمد عليها العلوى فى طرازه تدور فى فلك المفتاح ، أو تتفق معه فى المنهج والأسلوب فإن للعلوى تأثراً بالامام عبد القاهر والزمخشرى ومن لف لفهما ، بل إنه أثنى ثناء مستطاباً على الامام عبد القاهر ، فذكر أن أول من أسس من هذا العلم قواعده ، وأظهر براهينه وفوائده ورتب أفانينه الشيخ العالم النحرير علم المحققين عبدالقاهر الجرجانى ، فقد فك القرائب بالتقييد ، وهد من سور المشكلات بالتسوير المشيد ، وفتح أزهاره من أكمامها ، وفتح أزراره بعد استغلاقها واستبهامها[1] .

وإذا كان العلوى لم يذكر مفتاح العلوم ضمن مصادر كتابه إلا أن تأثره به واضح كل الوضوح سواء كان له اطلاع على الكتاب أم كان تأثره به عن طريق الكتب والمصنفات التى دارت حوله ، كالمصباح لبدر الدين ابن مالك .

ولعلنا ندرك هذا الأثر إذا نظرنا إلى الاطار العام الذى بنى العلوى كتابه عليه ، فقد بنى الكتاب على الاعجاز القرآنى وبيان الأسرار التى ينطوى عليها نظمه ، فجاء كتابه مرتباً على ثلاثة فنون ، جعل الأول منها فى مقدمات تشمل تفسير علم البيان ومعناه وموضوعه ومكانته بين العلوم الأدبية ، والطريق إلى الوصول إليه ، وبيان ثمرته ، وما يتعلق بذلك من معنى الفصاحة والبلاغة والحقيقة والمجاز مما يعد تمهيداً لما يريده من مقاصد ، والفن الثانى جعله للمباحث المتعلقة بعلم المعانى والبيان والبديع ، أما الفن الثالث فقد جعله كالنتيجة والتتمة لهذه العلوم الثلاثة ، فعرض فيه لفصاحة القرآن الكريم ، وأنه قد وصل إلى الغاية التى لا غاية فوقها ، ثم تعرض

---

(١) الطراز ١ / ٤ .

لإعجازه شارحاً أوجه الاعجاز وأقوال العلماء فى ذلك وأظهر الوجه المختار فيه ، ثم عرض المطاعن التى وجهها الضلال والملاحدة إلى القرآن الكريم، وأطال فى رده عليهم ، وفصل القول فى ذلك ، فذكر عشرين مطعناً معظمها مما عرض له السكاكى فى خاتمة المفتاح ، وقد كان العلوى فى ختمه كتابه ناسجاً على منوال السكاكى فى الغاية والهدف الذى يرمى إليه وهو بيان إعجاز القرآن الكريم ، فكما أن السكاكى جعل القواعد التى عرض لها كالمقدمات التى توصله إلى نتيجة وهى الاعجاز القرآنى فكذلك الحال عند العلوى .

ويتابع العلوى أبا يعقوب فى تقسيم البلاغة إلى معان وبيان وبديع ، كما تابعه فى كثير من التعريفات والأقسام .

وعلى سبيل المثال نجد العلوى يعرف علم المعانى بأنه : العلم بأحوال الألفاظ العربية المطابقة لمقتضى الحال ، من الأمور الانشائية والأمور الطلبية وغيرها . ويعرف علم البيان بأنه « إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه ، كالاستعارة والكناية والتشبيه وغيرها[1] .

كما تعرض فى علم المعانى لأحوال المسند إليه والمسند ، والانشاء الطلبى كالأمر والنهى والاستفهام والتمنى والنداء ، والفصل والوصل والايجاز والاطناب — وفى علم البيان تعرض للتشبيه والاستعارة والكناية والتمثيل وقسم المحسنات البديعية إلى معنوية ولفظية ، ذاكراً ما يندرج تحت كل منهما من فنون وألوان .

وهو فى كل ذلك يتابع السكاكى ، ويقلد طريقته ، ولم يكن له فى هذه التقسيمات إلا إضافات قليلة .

---

(١) الطراز ١/١١ .

وفي مبحث الالتفات نجد العلوى — وإن كان قد استفاد كثيراً مما كتبه ابن الأثير في المثل السائر — نجده يتابع السكاكي فيما نقله من صاحب الكشاف من بيان أثره في الكلام وبيان مزيته وحسنه وفضله .

يقول العلوى : « إن أهل البلاغة من العرب دأبهم الالتفات ويستكثرون منه ، وما ذلك إلا لأنهم يرون الانتقال من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع وأكثر لنشاطه ، وأعظم في إصغائه . وإذا كانوا يحسنون قرى الأضياف وهو دأبهم وعليه هجيراهم وعاداتهم فيخالفون فيه بين لون ولون وطعم وطعم ، أفلا يستحسنون نشاط الأفئدة وملاءمة القلوب المخالفة بين أسلوب وأسلوب ، بل يكون هذا أجدر ، فإن اقتدارهم على مخالفة أساليب الكلام أكثر من اقتدارهم على مخالفة الأطعمة ، لأن البلاغة في الكلام عليهم أيسر ، وهم عليها أمكن وأقدر[1] .

وهذه العبارة تشبه إلى حد كبير ما ذكره السكاكي في حسن الالتفات وأثره في الأساليب ، وحفاوة العرب بهذا اللون .

يقول السكاكي : « والعرب يستكثرون منه ويرون الكلام إذ انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه واملأ باستدرار إصغائه وهم أحرياء بذلك ، أليس قرى الأضياف سجيتهم ونحر العشار للضيف دأبهم وهجيراهم ، لامزقت أيدى الأدوار لهم أديما ولا أباحت لهم حريما افتراهم يحسنون قرى الأشباح فيخالفون بين لون ولون ، وطعم وطعم ، ولا يحسنون قرى الأرواح فلا يخالفون فيه بين أسلوب وأسلوب وإيراد وإيراد ، فإن الكلام المفيد عند الإنسان لكن

---

(١) المصدر السابق ٢ / ١٤١ .

بالمعنى لا بالصورة أشهى غذاء لروحه وأطيب قرى لها »(١) .

وعبارة السكاكي اقتبسها من كشاف الزمخشري عند تفسيره لقوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » وبيان ما فى الآية من التفات معجز حيث قال : « وذلك على عادة افتنانهم فى الكلام وتصرفهم فيه ، ولأن الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد »(٢) .

وفى المبحث الذى خصصه العلوى للأمر نجده يعترض على السكاكى أن الأمر مفيد للفور لأنه الظاهر من الطلب ولتبادر الفهم إلى التحصيل ، ويقول : « والحق أن الأوامر ساكتة بالإضافة إلى التكرار ، وبالإضافة إلى الفور وليس فى ظاهرها ما يدل على واحد من هذين الأمرين إلا لدلالة خارجة عن ظاهر الأمر(٣) » .

وينقل العلوى عن السكاكى بعض الأحكام والمعانى التى تتصل بما الاستفهامية ، فيقول : « قال السكاكى : وقد يسأل بها عن الصفة ، فيقال : ما زيد ؟ وجوابه : الطويل ، أو القصير »(٤) .

والأمثلة التى تبرهن على تأثر العلوى بصاحب المفتاح كثيرة فى كتابه ، وعلى الرغم من كثرتها إلا أن العلوى استطاع أن يحتفظ بشخصية مستقلة فى كتابه ، وأن ينهج منهجاً يختلف كثيراً عن منهج السكاكى مع اختلاف الغاية التى رمى إليها كل منهما ، وإن التقيا على مائدة الإعجاز القرآنى .

---

(١) مفتاح العلوم صـ ٨٦ .
(٢) الكشاف ١ / ١٠ .
(٣) الطراز ٣/٢٨٣ وانظر مفتاح العلوم صـ ١٣٧ .
(٤) الطراز ٣ / ٢٨٧ .

٣ - قطب الدين الرازى[١]

يعد القطب الرازى واحداً من الذين أعجبوا ببلاغة الكشاف ، والطريقة التى اتبعها الزمخشرى فى الكشف عن إعجاز القرآن وبيان أسراره ، فتوفر على توضيح ما فيه من المسائل التى رأى أنها بحاجة إلى التوضيح والبيان ، وخلف فى هذا الميدان حاشية على الكشاف تعد من أنفس ما كتب على الكشاف وبلاغته

والقارىء لحاشية القطب يدرك لأول وهلة الغاية التى من أجلها ألف القطب هذه الحاشية ، فنراه يقول فى مقدمتها : « نريد أن نشرح مشكلات الكشاف ، ونميط حجاب الخفاء عن مباحثه اللطاف ، ناقدين للكلام فى كل باب ، مميزين بين القشر واللباب »[٢] .

---

(١) هو : محمد بن محمد الرازى ، الشافعى ، الشهير بقطب الدين التحتانى ، وقد اشتهر بهذا اللقب تمييزاً له عن قطب آخر كان يسكن معه بأعلى المدرسة الظاهرية بدمشق ، وكنيته أبو عبد الله وأبو جعفر . ولد فى قرية « دراين » من أعمال الرى ، وتبعد عنها بنحو ثلاثين ميلا ، وكان مولده سنة ٦٩٤ هـ ، وينتهى نسبه إلى آل بويه الذين هم سلاطين الديالمة المشهورون ، وقد تلقى العلم على يد علماء أجلاء مشهود لهم بطول الباع فى شتى فروع المعرفة العقلية والنقلية ، ومن أشهرهم ، قطب الدين الشيرازى (ت ٧١٠ هـ) وعضد الدين الإيجى (ت ٧٥٦ هـ) ومن تلاميذه : سعد الدين التفتازانى (ت ٧٩٢ هـ) والسيد الشريف الجرجانى (ت ٨١٦ هـ) . وقد كان القطب بحراً فى جميع العلوم ، ولاسيما العلوم العقلية ، وله تصانيف مفيدة منها : شرح الشمسية وشرح مطالع الأنوار فى الحكمة والمنطق ، وشرح الحاوى الصغير فى فقه الشافعية ، وشرح المفتاح ، وحاشية على الكشاف ، وكانت وفاته بدمشق فى سادس عشر سنة ٧٦٦ هـ . وحضر صلاته أكثر أعيان البلد ، ودفن بسفح قاسيون .

(٢) حاشية القطب على الكشاف ق ٢ أ .

وقد وصل القطب فى حاشيته إلى نهاية سورة طه ، وكان - رحمه الله - يأمل أن ينتهى من هذا الشرح الجليل فيقدم عملا كاملا ، إلا أن المنية وافته قبل أن يتم هذا العمل ، فكانت الحاشية هى آخر عمل قدمه فى حياته .

ولم يقدم القطب شرحاً لكل القضايا والمسائل التى عرضها الزمخشرى فهناك من المسائل ما أشبعه الزمخشرى بحثاً ، فلم ير القطب حاجة لشرحها وتوضيحها ، كما أن هناك قضايا أخرى سهلة هينة لا تحتاج إلى زيادة بحث ، من ثم فإن اهتمام القطب بات منحصراً فى المسائل التى لم يقف عندها الزمخشرى طويلا ، ورأى القطب حاجة إلى بسطها وتوضيحها سواء كانت هذه المسائل والقضايا نحوية أو بلاغية أو لغوية أو فقهية أو كلامية .

ولم يكن القطب مجرد شارح فقط ، بل امتد عمله إلى أمور وقضايا ظهرت فيها شخصيته المستقلة ، وقدرته العلمية الفائقة ، وكان صاحب مناقشات واعية دقيقة ، يسلم بما يراه صوابا ويرد ما يراه خطأ مستشهداً بآراء الفحول من العلماء ، ثم يأتى بالقول الصائب ، مؤيدا رأيه بالحجج العلمية القوية ، المعتمدة على العقل أو النقل .

ولا شك أن المصادر التى استقى منها قطب الدين آراءه ، والمراجع التى نقل عنها مادته هى الدعامة الأساسية التى قامت عليها حاشيته ، والوقوف على هذه المصادر يبين أنها كثيرة ومتنوعة تنوع العلوم التى تخدم تفسير كتاب الله الكريم .

فهناك المصادر التى تهتم بمعانى القرآن وإعرابه وغريبه وتأويل مشكله ، وهناك كتب التفسير ، وكتب النحو ، وكتب اللغة ، وكتب الحديث والكلام والتراجم وكتب البلاغة .

وعلى الرغم من تأثر القطب بالامامين عبد القاهر والزمخشرى ، وهذا أمر بدهى ، إذ أنه فى حاشيته يعيش فى رحابهما بين سطور الكشاف وقضاياه ، على الرغم من ذلك نجد القطب متأثرا إلى حد بعيد بالاتجاه الآخر الذى يقوم على القاعدة والتحديد الذى يأتى أبو يعقوب السكاكى على رأسه ، خصوصاً إذا عرفنا أن القطب قرأ مفتاح السكاكى قراءة واعية وهضم فكر الرجل وثقافته إلى حد جعله يقوم بشرحه فى كتاب مستقل ذكرته كتب التراجم ، وإن كنت لم أعثر عليه[1] .

وقد كان تأثر القطب بأبى يعقوب واضحاً فى حاشيته ، كما كان كثير النقل عنه فى مواضع مختلفة ، وقد صرح بذكر اسمه كثيرا .

ولم يقف نقل القطب عن السكاكى وتأثره به عند حد القواعد والحدود التى ساقها السكاكى فى مفتاحه بل تجاوز نقله وتأثره إلى ميدان التطبيق والكشف عن الأسرار الكامنة فى أساليب القرآن ونظمه المعجز .

ويظهر أثر السكاكى واضحاً عند القطب عند تعرضه لتحديد المصطلحات البلاغية وتعريفها ، فنراه يعرف علم المعانى بما عرفه به السكاكى فيقول : « علم المعانى معرفة خواص التراكيب ، وهى مدلولاتها العقلية والغرض منه الاحتراز عن الخطأ فى مطابقة مقتضى الحال »[2] .

وكذلك يعرف علم البيان بما لا يخرج عن تعريف السكاكى ، يقول : « وعلم البيان : معرفة إيراد المعنى الواحد فى عبارات مختلفة ،

---

(١) انظر روضات الجنات ٦/٤٣ .

(٢) انظر حاشية القطب ق ٣ ، ٧ ومفتاح العلوم ص ٧٧ ، ١٥٦ .

والغرض منه : الاحتراز عن الخطأ فى مطابقة الكلام لتمام المراد »[١] .

ويعرف القطب الرازى القصر بما عرفه به السكاكى فيقول « القصر عبارة عن تخصيص أحد الشيئين بالآخر ، وهو . إما قصر إفراد ، أو قصر قلب ، أما قصر الأفراد على الوصف فهو : أن يثبت السامع وصفين لموصوف أو يردد الموصوف إما هذا أو ذاك وأنت تخصص الموصوف بأحدهما . وأما قصر الإفراد على الموصوف فهو : أن يثبت السامع وصفا لموصوفين ، أو يردد وصفا بين موصوفين وأنت تخصص الوصف بأحدهما وأما قصر القلب فهو أن يثبت السامع أحد وصفين لموصوف ، وينفى الوصف الآخر عنه ، أو يثبت وصفا لأحد موصوفين ، وينفيه عن الآخر وأنت تقلب حكمه فى الصورتين[١] » .

فالقطب هنا يشرح كلام السكاكى فى تعريف القصر وتحديد أقسامه ، ولا عجب فى ذلك ، فالمفتاح لم يلق مالقيه من الشهرة وذيوع الصيت إلا على يد هؤلاء المشارقة الأعاجم الذين اعتنوا به فكتبوا على القسم الثالث منه الشروح والحواشى[٢] .

وإذا كان الرازى ينقل عن السكاكى كثيرا فى تقرير القواعد وتأصيلها كثيرا فإنه نقل عنه وتأثر به كثيرا فى مجال تطبيق القواعد على آيات الكتاب الكريم

فمن المواضع التى نقل فيها القطب عن السكاكى ما نجده فى قوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » حيث

---

(١) انظر حاشية القطب ق ٣٠٧ ومفتاح العلوم ص ٧٧ ، ١٥٦ .

(٢) انظر تحقيق حاشية القطب ص ٨٧ ، ٨٨ .

قال : « قال صاحب المفتاح : إن « دابة » و « وطائر » يحتملان الشخصية والجنسية ، فذكر في الأرض، ويطير لبيان أن القصد منهما إلى الجنس[1] .

وكذا ما نراه في تفسير قوله تعالى ، وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم فقد نقل عنه أن المضاف محذوف والتقدير : قتلهم أولادهم قتل شركائهم [2] .

وفي تفسير قوله تعالى « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئا » نجد القطب ينقل كلام السكاكي ويتأثر بفهمه وذوقه في معنى الآية .

فيقدر القطب سؤالا هو : قد جعل كل واحد منهما مخلوطا فما المخلوط به ؟ وأجاب عن هذا السؤال بقوله « المخلوط به في كل واحد من الخلطين هو المخلوط في الآخر ، لأن الخلط لما اقتضى مخلوطاً به فهو : إما الآخر أو غيره والثاني منتف بالأصل ، أو بالقرينة لدلالة سياق الكلام إذا قيل : خلطت هذا وذاك على أن كلا منهما مخلوط ومخلوط به ، وهو أبلغ من أن يقال : خلطت أحدهما بالآخر ، إذ فيه خلط واحد وفي الواو خلطان ، واعترض بأن خلط أحدهما بالآخر يستلزم خلط الآخر به ، ففي كل من الواو والباء خلطان . فلا فرق . أجيب بأن الواو تفيد الخلطين صريحا بخلاف الباء ،والحق في الجواب:أن اختلاط أحدهما بالآخر مستلزم لاختلاط الآخر به . وأما خلط أحدهما بالآخر فلا يستلزم خلط الآخر به ، لأن خلط الماء باللبن معناه : أن يقصد الماء أولا ويجعل مخلوطاً باللبن ، وهو لا يستلزم أن يقصد اللبن أولا ، بل ينافيه ، فخلط العمل الصالح بالسيء

---

(١) الحاشية ق ١٩٦ أ ، المفتاح ص ٨٢ .

(٢) الحاشية ق ٢٠٥ ب ، والمفتاح ص ٥٧ .

معناه أنهم أتوا بالصالح ثم استعقبوه سيئا وخلط السيء بالصالح أنهم أتوا أولا بالسيء ثم أردفوه بالصالح ، فأحدهما لا يستلزم الآخر ، وقد أشار إليه صاحب المفتاح بأن تقدير الآية . خلطوا عملا صالحاً بسيء ، وآخر سيئا بصالح ، أى تارة أطاعوا وأحبطوا الطاعة بكبيرة ، وأخرى عصوا وتداركوا المعصية بالتوبة [١] » .

ويرى القطب رأى السكاكى فى الهمزة فى قوله تعالى « أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم » فيقول : « والهمزة لإنكار تعجبهم وتعجيبهم كما ذكر صاحب المفتاح فى قول فرعون لمن حوله « ألا تستمعون » أنه تعجيب وعجب [٢] » .

كما ينقل القطب عن السكاكى دون إشارة إليه عند تفسير قوله تعالى حكاية عن زكريا ـ عليه السلام ـ « رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا » فيقول « لا يستراب فى أن المراد من هذه الجملة انى شخت ، وهو أصل الكلام ومتعارف الأوساط ، ثم ترك إلى شاب رأسى ، وهو أبلغ ، لأنه كناية عن الشيخوخة ثم ترك إلى الأبلغ وهو : اشتعل شيب رأسى ، ثم إلى اشتعل رأسى شيبا وهو أبلغ من جهة إسناد الاشتعال إلى الرأس ، إذ وزان اشتعل شيب رأسى ، واشتعل رأسى شيبا وزان اشتعلت النار فى بيتى ، واشتعل بيتى نارا .

أو اسلوك طريق الإجمال والتفصيل فى باب التمييز ، ثم إلى أبلغ وهو اشتعل الرأس شيبا لمزيد التقرير ، حيث إن فيه تعويلا على شهادة العقل

---

(١) الحاشية ق ٢٤٦ ب والمفتاح ص ١٢٢ .

(٢) الحاشية ق ٢٤٩ ب ، والمفتاح ص ١٣٤ .

دون اللفظ . فلما اشتملت الجملة على لطائف بيانية وفوائد معنوية ترقت إلى أعلى درجات البلاغة [1] .

فكلام القطب الرازى فى هذه الآية منقول عن صاحب المفتاح [2] .

والأمثلة على تأثر القطب فى حاشيته بأبى يعقوب كثيرة ومتنوعة ، مما يدل على أن المفتاح كان من أهم المصادر التى استقى منها القطب الرازى مادته العلمية فى شرحه الكشاف .

ومما تجدر الإشارة إليه أن القطب الرازى يعد مثالا لأولئك العلماء الذين توفروا على دراسة الكشاف وتوضيح مشكلاته وقدموا شروحاً وحواشى عليه ؛ فقد كان معظمهم من مدرسة السكاكى وممن تتلمذ على مفتاحه ، وكان مفتاح السكاكى من أهم ما اعتمدوا عليه فى شروحهم ، وبدا أثره واضحاً فيما خلفوه وكتبوه

(١) الحاشية ، ق ٣٢٩ ب .
(٢) مفتاح العلوم صـ ١٣٧ .

٣ — سعد الدين التفتازانى (١)

يعد التفتازانى من أشهر العلماء الذين توفروا على شرح مفتاح السكاكى وتلخيصه للخطيب القزوينى ، فله على الأول شرح المفتاح ، وعلى الثانى المطول على التلخيص ، والمختصر على التلخيص .

وقد كان السعد بارعاً فى المنطق والفلسفة والكلام والفقه وأصوله والتفسير والنحو ، واللغة ، وله فى كل ذلك مصنفات مختلفة ، هذا إلى جانب تمتعه بذوق أصيل وحس مرهف .

---

(١) هو مسعود بن عمر بن عبد الله ، وينسب إلى تفتازان - وهى البلدة التى ولد فيها - فيقال له « التفتازانى » ، ويلقب بسعد الدين ، وقد ولد بتفتازان - وهى قرية من نواحى « نسا » من أعمال خراسان - سنة ٧١٢ هـ ، كان سنيا متعصبا لمذهب أهل السنة . قوى المعارضة لمخالفيهم ؛ اشتهر بالفطنة والذكاء ودقة النظر وحـــدته : والغوص وراء المعانى الدقيقة . كما كان كثير التنقل والترحال طلبا للعلم وسعيا إليه ، وقد تتلمذ سعد الدين على يد أساتذة مشهود لهم بالنبوغ فى علوم وفنون مختلفة منهم : عضد الدين الإيجى . وقطب الدين الرازى ؛ وضياء الدين القرمى . وقد كان السعد ذا حظ وافر ونصيب كبير من العلم والثقافة فى كثير من المجالات خصوصاً فى العلوم البلاغية ، واللغوية والمنطقية ، ونال بذلك حظوة كبيرة فى أفاق العالم الإسلامى : وقد تتلمذ عليه كثير من الفضلاء أمثال حيدر الشيرازى والأثير البغدادى وشمس الدين بن حمزة الرومى : وكانت وفاته إثر المناظرة المشهورة بينه وبين السيد الشريف سنة ٧٩٢ هـ . وله من المؤلفات : حاشيته على تفسير الكشاف ؛ وشرح الأربعين النووية . وشرح التصريف الغزى : والمختصر والمطول على التلخيص ؛ وشرح المفتاح وغير هذه المؤلفات كثير .

وهو فى شرحه للمفتاح وتلخيصه يسير على الطريق الذى اختطه السكاكى فلا يخرج عنه ، وجاء مقتفيا إثر الشراح السابقين للمفتاح أو التلخيص ، وإن تأثر بكل من الإمامين عبد القاهر والزمخشرى .

فنراه فى مقدمة المطول يذكر أنه استعان فيه بكتاب عبد القاهر « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » فيقول : « وبذلت الجهد فى مراجعة الفضلاء المشار إليهم بالبنان ، وممارسة الكتب المصنفة فى فن البيان ، لاسيما « دلائل الإعجاز » و « وأسرار البلاغة » ولقد تناهيت فى تصفحهما غاية الوسع والطاقة »[1] .

والسعد التفتازانى رجل واسع المعرفة كثير الاطلاع على ما كتبه الأقدمون ، فهو إلى جانب تأثره بعبد القاهر الجرجانى والزمخشرى نراه يشير إلى ضياء الدين بن الأثير ، كما ذكر مراراً بعض اللغويين ، أمثال المبرد والزجاجى والجوهرى والمرزوقى شارح ديوان الحماسة .

أما الزمخشرى فإنه استوعب كشافه استيعاباً دقيقا ، وذكر فى مقدمة مطوله أنه عنى بدفع اعتراضات الخطيب القزوينى على السكاكى ، وهو لا يتسع فى مزج النحو والأصول بمباحث البلاغة ، وأيضا لا يتسع فى جلب آراء البيانيين والبلاغيين ممن لا يجرون على منهج عبد القاهر سوى ما ذكره من آراء ابن الأثير ، وهو جانب يدل على دقته . وأنه كان يعرف فرق ما بين الملاحظات المتفرقة ، وبين تحول المعانى والبيان عند عبد القاهر ومن تبعه إلى نظريتين لكل منهما وحدتها الشاملة .

وسعد الدين فى شرحه لتلخيص المفتاح يعتمد اعتماداً يكاد يكون كليا على كتابى عبد القاهر وكشاف الزمخشرى ومفتاح السكاكى ، وكان

---

(١) المطول ص ٤ .

يقابل بين آرائهم ويرد على الخطيب القزوينى فى كل ما اعترض به عليهم ، كما كان يتهمه - فى مواضع كثيرة - بقصوره فى تحرير كلامهم ، وخاصة كلام عبد القاهر ، حتى ليقول عنه فى نهاية علم البيان « المصنف كثيرا ما يغلط فى استنباط المعانى من عبارات الشيخ لافتقارها إلى تأمل وافر » (١)

وكما دافع عن عبد القاهر دافع عن السكاكى كثيرا ، وخاصة عن تعريفاته التى رفضها الخطيب القزوينى وراجع السكاكى فى بعض ما ذهب إليه ، وخاصة ما خالف فيه عبد القاهر والزمخشرى ، ونراه يحمل على تقسيماته الكثيرة للتشبيه ، وما أدخله فى حديثه عن الكيفيات الحسية والنفسية ، يقول : « واعلم أن أمثال هذه التقسيمات التى لا تتفرع على أقسامها أحكام متفاوتة قليلة الجدوى ، وكان هذا ابتهاج من السكاكى باطلاعه على اصطلاحات المتكلمين ، فلله در الإمام عبد القاهر وإحاطته بأسرار كلام العرب وخواص تراكيب البلغاء ، فإنه لم يزد فى هذا المقام على التكثير من أنواع التشبيهات وتحقيق اللطائف المودعة فيها ، وينبغى أن لا يفهم من ذلك أن التفتازانى انتحى بشرحه بعيدا عن دوائر علم الكلام والفلسفة والمنطق ، فقد كان على صلة وثيقة بهذه المباحث وصنف فيها مصنفات مختلفة (٢) .

وقد كان السعد فى دفاعه عن السكاكى وإيراد اعتراضات على الخطيب يتغلغل فى المباحث المنطقية والفلسفية والكلامية ، ولا غرابة فى ذلك ، فقد كان التفتازانى راسخ القدم فى علم الكلام وأصول الفقه ، وقد أشار ابن خلدون إلى هذا بقوله : « ولقد وقفت بمصر على تآليف متعددة لرجل

---

(١) المختصر (ضمن شروح التلخيص) ٤ / ٢٧٨ .
(٢) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

من عظماء هراة من بلاد خراسان يشهر بسعد الدين التفتازانى ، منها فى علم الكلام وأصول الفقه والبيان تشهد بأن له ملكة راسخة فى هذه العلوم ، وفى أثنائها ما يدل على أن له اطلاعاً على العلوم الحكمية ، وقدماً عالية فى سائر الفنون العقلية [1] .

وإذا كانت النزعة الفلسفية والمنطقية تغلب على السعد فى معظم مصنفاته البلاغية واللغوية ، خصوصاً المطول والمختصر فإنا نراه فى شرحه للكشاف ذا وجه آخر ، فقد عنى فى هذا الشرح بالجانب التطبيقى القائم على تذوق الأساليب الرفيعة ، كما حرص على الغوص وراء الأسرار واللطائف التى ينطوى عليها النظم القرآنى ، وهو فى دراسته البلاغية يعنى بتحليل التراكيب وإبراز محاسن الصياغات .

وشرح السعد — الذى يعرف بحاشيته على الكشاف — يعد آخر المؤلفات التى كتبها ، فلا شك أنه أودعها شتى الفنون ومختلف العلوم التى هى حصاد عمره ، وقد جمع فيها كثيراً من آراء السابقين ، وخاصة أصحاب الشروح والحواشى على الكشاف .

ولم يكن السعد بمنأى عن السكاكى وفكره وطريقته وهو يكتب حاشيته ، بل كان كثير الاستفادة منه والأخذ عنه ، خصوصاً فى تطبيقاته على آيات الذكر الحكيم واستنباطه للحكم والأسرار التى تقوم عليها الأساليب القرآنية والنظم المعجز .

وقد يكون من العسير أن نتتبع المواضع التى تأثر فيها السعد فى حاشيته بأبى يعقوب السكاكى ، إذ إنها كثيرة جداً ، خصوصاً فيما يتصل بتأثره

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨١ .

بمنهجه فى تناول القضايا البلاغية وطريقته فى عرض القواعد والأحكام التى يقوم عليها البيان ومسائله .

فالمعروف أن السعد واحد من ألمع هؤلاء الأعلام الذين تربوا فى مدرسة السكاكى وتشربوا روحه فلا غرو أن نجد توافقاً بين روحيهما ومنهجيهما .

ولذا فإنا سنقف — فقط — مع بعض المواضع التى تأثر فيها السعد بالسكاكى فيما يتصل بالنظم القرآنى وإعجازه مما له مدخل فى موضوعنا فى هذا البحث .

من ذلك ما نراه فى تفسير قوله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » يقول : « استعملت كلمة « ما » فى النساء مع اختصاصها أو غلبتها فى غير ذوى العقول ، لأن هذه التفرقة إنما هى إذا أريد الذات أما إذا أريد الوصف ، كما تقول فى الاستفهام : ما زيد ؟ أى أفاضل أم كريم ؟ وفى الموصولة أكرم ما شئت من هؤلاء الرجال ، أى القائم أو القاعد ، أو نحو ذلك ، فهو بكلمة « ما » دون « من » بحكم الوضع ، على ما ذكره المصنف وصاحب المفتاح وغيرهما »[1] .

فنراه هنا يعضد رأى المصنف (الزمخشرى) فى أن الموضع فى الآية لـ « ما » ، حيث أريد الوصف — دون « من » — بما ذهب إليه السكاكى وغيره فى ذلك .

وذكر السعد رأى السكاكى فى المقدر فى « لا إله إلا الله » ، حيث ذهب السكاكى إلى أن المقدر « ما » الابهامية ، لا من الاستغراقية ، لأن تقدير

---

(١) حاشية السعد على الكشاف ق ٢٥٥ أ ، والمفتاح صـ ١٣٤ .

الحرف العامل لو أوجب البناء لزم بناء المضاف إليه »[1] ، وذلك خلافاً لما ذهب إليه العلامة الزمخشري وجمهور النحويين ، حيث ذهب إلى أن المقدر من الاستغراقية[2] .

وفي تفسير قوله تعالى : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » يذكر الزمخشري أن الغرض من الوصفين — وهما « في الأرض » ، « يطير بجناحيه » — زيادة التعميم ، بحيث لا يبقى وهم خروج شيء من الأفراد ، فيعلق السعد التفتازاني على كلام الزمخشري بقوله : « ويظهر أنه لا يخالف ما ذكره صاحب المفتاح أنه ذكر « في الأرض » مع دابة ، و « يطير بجناحيه » مع طائر لبيان أن القصد من لفظ دابة وطائر إنما هو إلى الجنسين وإلى تقريرهما »[3] .

ويذكر السعد في تفسير قوله تعالى : « وجعلوا لله شركاء الجن » اعتراض لصاحب الإيضاح ملخصه أن جعل تقديم لله على شركاء على تقدير كونهما المفعولين للاهتمام — على ما يراه صاحب المفتاح — ليس بمستقيم ، لأن سوق الآية للإنكار التوبيخي ، فيمتنع إنكار تعلق جعلوا بكل من لله شركاء إلا باعتبار تعلقه بالآخر ، وهو ظاهر ، فلا يكون فرق بين جعلوا لله شركاء وجعلوا شركاء لله ، وكذا كل متعد إلى مفعولين يكون الاعتناء بذكر أحدهما باعتبار تعلقه بالآخر لا يصح تعليل تقديم ما قدم منهما بالاهتمام[4] .

---

(١) الحاشية ق ٢٣٠ أ .

(٢) انظر الكشاف ١ / ٣٥٦ .

(٣) الحاشية ق ٣٤٤ ب ، والمفتاح ص ٨٢ .

(٤) الحاشية ق ٣٥٣ ب .

ويدافع السعد عن صاحب المفتاح ، فيرد اعتراض صاحب الإيضاح عليه ويقول : « ورد بالمنع ، إذ ربما يكون فى أحدهما ما يوجب زيادة الاهتمام»[1] .

ثم يذكر أن السكاكى اعترض بأن جعل تقديم شركاء على الجن على أنهما مفعولا جعلوا قدم ثانيهما على الأول مخل بالغرض ، لأن الآية مسوقة لإنكار إثبات الشركاء مطلقاً — الجن كانوا أم غيرهم — فجعل لله شركاء مفعولى جعلوا ، وانتصاب الجن بفعل مضمر دل عليه السؤال المقدر ، وهو : من جعلوا شركاء ؟ والجواب أن المصنف جعل تقديم شركاء لحصل ذلك الغرض ، وإليه أشار بقوله : فائدته استعظام أن يتخذ لله شركاء من كان ملكاً أو جنياً أو إنسياً . فيحصل غرض السوق أيضاً على تقدير كونهما المفعولين »[2] .

وواضح أن نظرة السكاكى فى الآية الكريمة ، والتى أخذها السعد ودافع عنها واضح أنها نظرة تشمل كل ما يتعلق بها من أغراض وأسرار ، كما أنها نظرة عميقة تجوب أرجاء النص فى محاولة للكشف عما دق وخفى من سر دلائل عظمته وإعجازه .

وفى تفسير قوله تعالى : « قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك » يبرز السعد رأى صاحب المفتاح بجانب رأى الزمخشرى فى الآية ، حيث رأى أن ما ذهب إليه السكاكى جدير بالقبول .

فيذكر أن رأى الزمخشرى فى « لا » أنها مزيدة ، ثم يقول :

---

(١) الحاشية - الموضع السابق .

(٢) الحاشية - الموضع السابق .

« إلا إذا حمل ما منعك على ما حملك وما دعاك » على ما قدره صاحب المفتاح[١] .

ويخالف السكاكى العلامة الزمخشرى فى « لام » الحسنة فى قوله تعالى « فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه » فيرى الزمخشرى أنها للجنس بينما يرى السكاكى أنها للعهد ، فينقل السعد رأى السكاكى بعبارة توحى بانتصاره له .

يقول : « يشير - يعنى الزمخشرى - إلى أن اللام - يعنى فى الحسنة - لتعريف الجنس ... وذكر صاحب المفتاح أن الأقضى لحق البلاغة أن يجعل الحسنة تعريف العهد »[٢] .

ويحرص السعد على التقريب بين كل من الزمخشرى والسكاكى فى بعض ما قد يظن تباعد بينهما فيه ، من ذلك ما نراه فى تفسير قوله تعالى « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً » حيث قال الزمخشرى : « وفيه ما ليس فى قولك : خلطت الماء باللبن »[٣] .

فيقول السعد : « يريد أن الواو كالصريح فى خلط كل منهما بالآخر ، بمنزلة ما إذا قلت : خلطت الماء باللبن ، وخلطت اللبن بالماء ، بخلاف الباء فإن مدلولها لفظاً ليس إلا خلط الماء — مثلا — باللبن ، وأما خلط اللبن بالماء فلا يثبت إلا بطريق الالتزام ودلالة العقل ، وتقرير صاحب المفتاح قريب من هذا ، حيث جعل التقدير : خلطوا عملا صالحاً بسيء وآخر سيئاً

---

(١) الحاشية ٣٦٥ أ ، والمفتاح ص ١٥٦ .
(٢) الحاشية ق ٣٧٨ أ .
(٣) الكشاف ٢ / ١٧٠ .

بصالح . إلا أنه جعل الصالح والسيء فى أحد الخلطين غيرهما فى الآخر ، حيث قال : أى تارة أطاعوا وأحبطوا الطاعة بكبيرة ، وأخرى عصوا وتداركوا المعصية بالتوبة ، فالمخلوط به على هذا ما يقابل المخلوط ، سواء كان هو المذكور بعد الواو وبالعكس أولا ، بخلاف تقرير المصنف فإنه ذلك المذكور البتة ، حتى لا يجوز عنده : خلطت الماء واللبن ، بمعنى : خلطت الماء بغيره ، سواء كان اللبن أو غيره ، وخلطت اللبن بغيره . سواء كان الماء أو غيره ، ويجوز على تقرير المفتاح »[1] .

ويشير السعد إلى رابطة قوية بين كل من الإمامين عبد القاهر والزمخشرى وبين السكاكى ، وأن السكاكى كان يتتبع دروبهما ، ويسير فى طريقهما ، وذلك ما نجده فى بيان الزمخشرى لفضل علم البيان ، حيث تكلم فى هذا المعنى كلاماً هو ترداد لما ذكره عبد القاهر الجرجانى فى دلائله ، فيذكر السعد أن السكاكى نهج نهجهما فى ذلك .

فيقول : « قد أخذ صاحب المفتاح هذا الأسلوب من الكلام فى الثناء على علم البيان ، والازدراء بمن ليس له به يدان ، وفرط الافتقار إليه فى تأويل متشابهات القرآن ، حيث قال فى آخر فصل البيان : لا علم فى باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ من علمى المعانى والبيان على المرء لمراد الله - تعالى - من كلامه ، ولا أعون على تعاطى تأويل مشتبهاته ، ولا أنفع فى درك لطائف نكته وأسراره ، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه ... إلى آخر ما قاله السكاكى »[2] .

والأمثلة كثيرة ومتنوعة فى شرح السعد للكشاف ، وكلها تدل على

---

(١) الحاشية ق ٤١٠ أ ، والمفتاح ص ١٢٢ .
(٢) الحاشية ، ق ٤٤٥ أ .

تأثر سعد الدين وأخذه من السكاكي في هذا الجانب الذي قدا أنصفه فيه الكاتبون وعدوه له ونظروا إلى كتابه من خلاله ، أعني جانب الإعجاز القرآني ونظمه ، والذي كان السكاكي فيه صاحب نظرات ثاقبة تدل على رجاحه عقله ورفاهة حسه وصفاء ذوقه وانتفاعه بكل ما كتب قبله حول هذا الجانب .

رحم الله أبا يعقوب ، وجزاه عن كتابه وعمله الجزاء الأوفى لقاء ما قدمه لخدمة كتاب الله الكريم ومعجزة الإسلام الخالدة من جهد خالص أودعه كتابه « مفتاح العلوم » الذي أرجو أن ينظر إليه الباحثون والدارسون على أنه كتاب في إعجاز القرآن ونظمه ، فلعلهم يجدون — من خلاله هذه النظرة — ما لم تقع عليه العين ، أو يدركه العقل ، أو يتحسسه الوجدان .

ولله الحمد في الأولى والآخرة ؟

* * *

خاتمة

بعد هذه المرحلة الطويلة الشاقة فى « مفتاح العلوم » للسكاكى أعترف بأنها محاولة قصدت من ورائها أن تكون خطوة نحو فهم الرجل ، ووضع عمله موضعه اللائق به ، والكشف عن الوجه الحقيقى لأبى يعقوب ، والهدف الذى قصد إليه فى مفتاحه ، وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه .

والآن وقد آن للقلم أن يتوقف لنا أن نقف وقفة نتبين فيها أهم النتائج وأبرز المعالم التى بدت واضحة فى هذا البحث .

فما هى أهم النتائج وأبرز المعالم ؟

(١)

لعل أهم ما يطالعنا من هذه المعالم الرئيسة فى هذا البحث هو ما وصلنا إليه من أن كتاب « مفتاح العلوم » ليس كتاباً فى النحو أو الصرف أو الأوزان والقوافى ، أو أى علم من العلوم التى عرض لها فى الكتاب ، وإنما هو كتاب فى إعجاز القرآن ونظمه ، قصد صاحبه إثبات قضية الإعجاز القرآنى بالنظم عن طريق العلوم التى تعرض لبعض قواعدها ؛ كمفاتيح للتوصل إلى هذه العلوم ، فالتدرب على قواعد هذه العلوم يربى فى النفس ملكة بها يدرك الإعجاز فى نظمه وأسلوبه ، إذ أن الوقوف على هذه العلوم هو الطريق إلى إدراك الاعجاز القرآنى ، والتلقى لمراد الله تعالى ، إذ إنها تبعث على الاحتراز عن الخطأ فى العربية ؛ وسلوك جادة الصواب فيها .

(٢)

عالج السكاكى قضية النظم القرآنى فى كتابه معالجة فريدة ، حيث إن القضية أخذت على يديه قالباً منطقياً كلامياً لم تعرفه من قبل ، فجاء منهجه منهجاً مترابطاً وبناء متكاملا تتلاحم أجزاؤه ، وتتضافر فى تحقيق الهدف الذى قصد إليه .

ولعل السكاكى أراد — من خلال كتابه — أن يضع الدليل على إعجاز القرآن الكريم لأصحاب الذوق وأصحاب المنطق كليهما ، وأن يكون ما أورده مقنعاً لكلا الفريقين ، بحيث لا يبقى حجة لهؤلاء وأولئك ، فأهل الذوق إذا تدربوا على القواعد المبثوثة فى ثنايا كتابه ، سواء ما يتصل منها بعلم الصرف ، أو النحو أو البلاغة أو غيرها لا شك ستتهذب أذواقهم وترق مشاعرهم، فيدركوا أمر الإعجاز ، وأهل المنطق إذا فقهوا هذه القواعد مع ما يتبعه من علم الاستدلال ومباحثه ، لا شك سيوقنون بأن أمر الإعجاز هو من جنس الفصاحة والبلاغة ، بعد أن يقتنعوا بإعجازه .

(٣)

جعل السكاكى من قضية الإعجاز بالنظم قضية ذات قواعد يسهل حفظها وتحصيلها ، لأنه أقامها على أساس عقلى ، والمسائل التى تعتمد على العقل يسهل تحصيلها والإحاطة بها ، فمادة المفتاح العلمية ما أسهلها وأيسرها ، ولذا حفظها الصبيان لما شذ بها الخطيب القزوينى فى تلخيصه ، ولم يكن لهذه القضية أن ترسخ وتأخذ حظها من الذيوع والانتشار لولا هذا القالب العقلى الذى وضعها فيه أبو يعقوب السكاكى .

(٤)

الإعجاز القرآنى عند السكاكى يدرك ولا يمكن وصفه ، وأن إدراكه

بحاجة إلى أمر فوق التصور العقلي وهو شحذ البصيرة وتربية الذوق ، وهو أمر لا يتأتى إلا لمن وهبه الله النفس المستعدة لهذا التدريب وتلك التربية ، وما عليه إلا أن قدم — فى كتابه — الوسائل والأدوات التى تؤدى إلى تجلية البصيرة وتربية الذوق .

وقد أكد السكاكى على أهمية الذوق فى إدراك الإعجاز القرآنى ، كما جرى على افتتاح الكتاب وفنونه — غالباً — بتوجيه النصح لمخاطبه ، حاثا له على قدح زناد عقله ، لافتاً إياه إلى مواطن البلاغة ومكمن الأسرار ليدرك أمر الإعجاز .

(٥)

كان للسكاكى عناية خاصة بتطبيق قواعد العلوم التى عرض لها فى كتابه على آيات الكتاب الحكيم . وكشف أسرار النظم القرآنى فى كثير من الأساليب القرآنيه ، كما رأينا له اهتماماً خاصاً بربط كل قاعدة بالعديد من الآيات ، مما يدل على أن غايته هى الكشف عن عظمة هذا الكتاب وأن إعجازه فى نظمه .

كما كان السكاكى يكثر من الاستشهاد بالآيات القرآنية ، كاشفاً عن سر عظمتها ، مبيناً ما حواه نظمها العجيب من أسرار التركيب وخصائصه ، ولم يكن عرضه للآيات والشواهد القرآنية للتمثيل ، وإنما كان للتطبيق ولإبراز ما فيها من روعة النظم وألوانه وفنونه فى كل لون على حدة .

ومما يؤكد هذه العناية وزيادة الربط بين القواعد وبين أسلوب القرآن الكريم ما نراه من اكتفائه بالشواهد القرآنية ، والإكثار منها فى كثير مما عرض له من قواعد وأصول ، وربما يأتى بمثال واحد مصنوع يوضح به القاعدة ويقربها من الأذهان ، ثم يعقبه بالكثير من الشواهد والآيات

القرآنية ، مكتفياً بهذه الآيات ، دون أن يعرض لغيرها من الشواهد الأدبية ، أو الأمثلة المتعارفة .

(٦)

تجاوز السكاكي بالنحو هذه المهمة الضيقة في حدود الإعراب ، وضبط أواخر الكلمات إلى المعاني النحوية وعناصر الحسن والجمال التي يحويها الأدب ويحرص عليها صناع الكلام ، كالتقديم والتأخير وغيرهما من الهيئات المخصوصة . فمهمة النحو « عنده » تكمن في الاحتراز عن الخطأ في التركيب من حيث التقديم والتأخير ورعاية الهيئات التي يكون عليها الكلام .

ولذا فقد كانت الصلة وثيقة بين النحو والمعاني عند السكاكي ، فارتفاع شأن الكلام في باب البلاغة ووقوفه فيها إلى حيث يناطح السحاب بمراعاة النحو وأحكامه ، ووقوع ذلك الكلام موقعه كما أن تجاهل هذه الأحكام وتجنبها يوقع في الخطأ ويخرج الكلام من دائرة البلاغة .

وكثيراً ما نراه وهو يتحدث عن النحو في قسمه الخاص به لا ينسى أنه يتحدث عن المعاني وأحوالها وموافقتها للمقاصد والأغراض ، كما أنه في دراسته للمعاني طغت عليه عقليته النحوية والصرفية ، فلم يكشف عن المعاني الخاصة التي يؤديها التقديم والتأخير والحذف والذكر وغير ذلك من مسائل النظم ، كما كشف عنها عبد القاهر ، وإن كنا لا نعدم عنده كثيراً من الإشارات التي تنبض بالحياة وتدل على روحه الأدبي الأخاذ .

(٧)

تعرض السكاكي لعلمي المعاني والبيان وأفاض القول في مسائلهما

وأقسامهما ، بحيث لم يترك كبيرة ولا صغيرة من قواعد العلمين إلا أتى عليها أو تعرض لها ، وقد أفاض فى حديثه عن العلمين إفاضة لم نرها له عن تعرضه لعلمى النحو والصرف ، ولعل هذا يرجع إلى عدة أسباب :

١ — أن علم النحو والصرف كان قد استوى على أشده واستقرت قوانينه وضبطت مسائله قبل السكاكى ، بينما علم البلاغة (المعانى والبيان) لم تكن قواعده قد حددت وضبطت بمثل ذلك التحديد أو الضبط الذى وصفه السكاكى .

٢ — أن هذين العلمين — أعنى المعانى والبيان — لهما فضل كبير وأثر مباشر فى فهم الإعجاز وإدراكه . فعلاقة العلمين بقضية الإعجاز تبدو أكثر وضوحاً من كل من علمى النحو والصرف .

٣ — لعل السكاكى وجد أن هذا العلم لم يأخذ من اهتمام العلماء ما يتناسب وفضله ومكانته ، وأن الناس شغلوا عن هذا العلم وقواعده ، وظلموه أيما ظلم ، فأراد أن يرد لهذا العلم بعض حقه المسلوب فوقف معه هذه الوقفة الطويلة بهدف الإحاطة بمسائله وبسط أحكامه .

(٨)

لم يقصد السكاكى إلى تمييز علوم البلاغة بعضها عن بعض ، وتصنيفها هذا التصنيف الذى عرف لهذه العلوم ، كما لم يكن يقصد إلى تمييز هذا العلم — أعنى علم البلاغة — واستقلاله عن غيره من العلوم .

وإنما كان هذان الأمران — أعنى تقسيمه المسائل البلاغية إلى معان وبيان وبديع ، وتمييز علم البلاغة عن غيره — كانا وليدى منهجه الذى عنى بضبط معاقل قضية النظم القرآنى وإعجازه ، فجاء هذا التصنيف أو التمييز بما يقتضيه منهجه وإن لم يكن مقصوداً ، وبهذا الصنيع أخذت البلاغة

- على يديه - صورتها النهائية بعد أن جعلت أصنافاً ثلاثة ووضعت فى قالب لم تعرفه من قبل .

- الصنف الأول : الباحث عن الهيئات والأحوال التى تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال وهو علم المعانى .

- الصنف الثانى : الباحث عن الدلالة على اللازم اللفظى وملزومه ، وهو علم البيان .

- الصنف الثالث : وجعله كالتابع للصنفين الأولين ، وهو الباحث فى تزيين الكلام وتحسينه بنوع من الزخرف والتنمـــيق ، وهو علم البديع .

(٩)

لم يكن السكاكى ذلك الرجل الذى تبارت الأقلام فى النيل منه ، واتهامه بإفساد الذوق البلاغى ، وأنه لم تتح له ظروف حياته الإدمان والممارسة والمعايشة للغة والأدب ، وأنه لم يتهيأ له اكتساب ذوق هذه اللغة ، فقد أثبتت هذه الدراسة أنه كان ذا ذوق مرهف ، وحس مدرك لدقائق الأسرار وبصر نافذ إلى غور الأساليب ولطائفها .

ومن الثابت المقرر أنه لا يستطيع أن يدرك الإعجاز فى نظم القرآن إلا من وفق لاكتساب عدة أمور هى :

١ - ذهن صاف ، وقلب سليم من الأمراض ، نقى من الآفات ، مملوء بحب الله وحب رسوله ﷺ .

٢ - إحاطة تامة بعلم التجويد تمكنه من تلاوة كتاب الله تلاوة صحيحة سليمة .

٣ – حفظ كتاب الله عز وجل ، والمداومة على تلاوته فى تدبر وتأمل وخشوع .

٤ – ذوق رقيق ، وطبع سليم، وطول معاشرة لأساليب اللغة العربية شعراً ونثراً .

• بصيرة نافذة حكيمة ، وحس مرهف يدرك ما احتجب من الأسرار خلف الأستار[١] .

والسكاكى بما قدمه من دقائق الإعجاز ، وفهمه العميق لعظمة النظم القرآنى ، وإدراكه للكثير من الأسرار واللطائف التى تكمن فى كثير من الأساليب القرآنية ، وعرضه الفريد لقضية الإعجاز والنظم القرآنى ، كل ذلك يشهد له بأنه كان ذا ذوق وبصر وطول معاشرة لأساليب اللغة العربية شعراً ونثراً على ما تقضى به أصول التربية الفنية الصحيحة .

***

(١) انظر الإعجاز فى نظم القرآن صـ ١١٧ .

مراجع البحث

١ - الإتقان فى علوم القرآن - جلال الدين السيوطى - ط : دار إحياء التراث - القاهرة .

٢ - أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم - شمس الدين المقدسى - ط : ليدن : ١٩٠٢ م .

٣ - أدب الكاتب - ابن قتيبة - تحقيق / محمد محى الدين عبد الحميد - ط : القاهرة ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م الثالثة .

٤ - الإعجاز فى نظم القرآن - د/ محمود السيد شيخون - ط مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م .

٥ - إعجاز القرآن - أبو بكر الباقلانى - ط دار المعارف بمصر ١٩٦٢م .

٦ - إعجاز القرآن - محمد بن إبراهيم الخطابى - ط دار التأليف ١٣٧٢ هـ .

٧ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - مصطفى صادق الرافعى - ط : مصر ١٩٢٦ م .

٨ - الأعلام - خير الدين الزركلى ط : ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧ م .

٩ - أمالى على عبد الرازق فى علم البيان وتاريخه - الشيخ على عبد الرازق - ط : مطبعة مقداد ١٣٣٠ هـ / ١٩١٢ م بالقاهرة .

١٠ - الانتصار والرد على ابن الراوندى - أبو الحسين الخياط - ط : ١٩٢٥ م .

١١ - الإيضاح لتلخيص المفتاح - الخطيب القزوينى - ط مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز بمصر .

١٢ - بديع القرآن - ابن أبى الإصبع المصرى - تحقيق / حفنى شرف - ط : ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م الأولى بالقاهرة .

١٣ — بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح - عبدالمتعال الصعيدى - ط : مكتبة الآداب ومطبعتها بالجاميز بمصر .

١٤ — بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة - جلال الدين السيوطي - ط : مطبعة السعادة ١٣٢٦ هـ الأولى .

١٥ — البلاغة تطور وتاريخ - د/ شوقى ضيف - ط : دار المعارف بمصر .

١٦ — البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها - أمين الخولى - نشرت فى صحيفة الجامعة المصرية - العدد الخامس مايو ١٩٣١ م .

١٧ — البلاغة عند السكاكى - د/ أحمد مطلوب - ط : دار التضامن - بغداد ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م الأولى .

١٨ — البلاغة القرآنية فى كشاف الزمخشرى - د/ محمد حسنين أبو موسى - ط : دار الفكر العربى .

١٩ — البيان العربى - د/ بدوى طبانة - ط : الأنجلو المصرية ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م الأولى .

٢٠ — تأويل مشكل القرآن - ابن قتيبة - شرح / السيد أحمد صقر - ط : دار التراث ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م الثانية .

٢١ — تاج التراجم فى طبقات الحنفية - زين الدين بن قطلوبغا - ط : مطبعة ليبزك ١٨٦٢ م .

٢٢ — تحفة النظار فى غرائب الأمصار - وعجائب الأسفار ، المشتهر : رحلة ابن بطوطة - ابن بطوطة - ط : مطبعة مصطفى محمد ١٣٥٨ هـ بالقاهرة .

٢٣ — تلخيص البيان فى مجازات القرآن - الشريف الرضى - تحقيق / محمد عبد الغنى حسن - ط : عيسى البابى الحلبى ١٩٥٥ م

٢٤ — حاشية التفتازانى على الكشاف — سعد الدين التفتازانى - تحقيق د/ فوزى السيد عبد ربه - مخطوط بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة .

٢٥ — حاشية الرازى على الكشاف — قطب الدين الرازى - تحقيق د/ أيوب عبدالعزيز - مخطوط بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة .

٢٦ — الحيوان - أبو عثمان الجاحظ - تحقيق الأستاذ/ عبد السلام هارون ط : مصطفى البابى الحلبى ١٩٣٨ م .

٢٧ — الخصائص - أبو الفتح ابن جنى - ط : دار الهلال للطباعة والنشر بيروت لبنان .

٢٨ — دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر - عبد الهادى العدل - ط : دار الفكر الحديث ١٣٦٩ هـ - ١٣٥٠م القاهرة .

٢٩ — دلائل الاعجاز - عبدالقاهر الجرجانى - شرح وتعليق / أحمد مصطفى المراغى - ط المكتبة المحمودية بمصر ،

٣٠ — ربيع الأبرار - جارالله الزمخشرى - مخطوط بمكتبة الاسكندرية.

٣١ — رسائل الجاحظ - أبو عثمان الجاحظ - ط : مطبعة التقدم ١٣٢٣ هـ بمصر .

٣٢ — روضات الجنات فى أصول العلماء والسادات - زين العابدين الخوانسارى - ط : إيران حجرية ١٣٠٧ هـ .

٣٣ — سر الفصاحة - ابن سنان الخفاجى - تحقيق الشيخ / عبد المتعال الصعيدى - ط : ١٩٧٢ هـ - ١٩٥٣ م القاهرة .

٣٤ — شذرات الذهب فى أخبار من ذهب - ابن العماد الحنبلى - ط : القاهرة ١٣٥١ هـ .

٣٥ — الصناعتين - أبو هلال العسكرى - تحقيق / على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل - ط : عيسى البابى الحلبى .

٣٦ — الطراز - يحيى بن حمزة العلوى - ط : دار الكتب العلمية - بيروت لبنان ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

٣٧ — ظهر الإسلام - أحمد أمين - ط : النهضة العربية ١٩٧٧ م - الطبعة الخامسة .

٣٨ — عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح (ضمن شروح التلخيص) بهاء الدين السبكى - ط : عيسى البابى الحلبى بمصر .

٣٩ — فكرة النظم بين وجوه الإعجاز - د. فتحى أحمد عامر - ط : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .

٤٠ — الفوائد البهية فى تراجم الحنفية - محمد بن عبد الحى اللكنوى - ط : المطبع اليوسفى ١٣٣٢ هـ - ١٩١٨ م .

٤١ — الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل - جار الله الزمخشرى - ط : مصطفى محمد ١٣٥٤ هـ .

٤٢ — لسان العرب - ابن منظور المصرى - ط : دار المعارف بمصر .

٤٣ — مجاز القرآن - أبو عبيدة معمر بن المثنى - تعليق / فؤاد سزكين - ط : الخانجى بمصر .

٤٤ — مجمع البيان لعلوم القرآن - أبو الفضل الطبرسى - ط : دار التقريب بالقاهرة ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م .

٤٥ — المختصر على تلخيص المفتاح - سعد الدين التفتازانى (ضمن شروح التلخيص) - ط : عيسى البابى الحلبى بمصر .

٤٦ — مصر فى تاريخ البلاغة - أمين الخولى - نشرت فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، مايو ١٩٣٤ م .

٤٧ — المطول على تلخيص المفتاح - سعد الدين التفتازانى - ط : مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠ هـ .

٤٨ — معجم الأدباء - ياقوت الحموى - ط : دار المستشرق ، بيروت لبنان .

٤٩ — معجم البلدان - ياقوت الحموى - ط : القاهرة ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦ م الطبعة الأولى

٥٠ - المغنى فى أبواب التوحيد والعدل جـ ١٦ - القاضى عبد الجبار - ط : وزارة الثقافة : تحقيق / أمين الخولى .

٥١ - مفتاح العلوم - أبو يعقوب السكاكى - ط : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

٥٢ — المقاييس البلاغية عند الجاحظ فى البيان والتبيين - د/ فوزى السيد عبد ربه - ط : دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٨٣م

٥٣ — مقدمة ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - ط : دار الكشاف ، بيروت ، لبنان .

٥٤ — من أسرار البلاغة فى القرآن - د/ محمود السيد شيخون - ط : مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م الأولى بالقاهرة .

٥٥ — منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن وبيان إعجازه - مصطفى الصاوى الجوينى - ط : دار المعارف ١٩٨٤ م الطبعة الثالثة .

٥٦ - نحو بلاغة جديدة - د/ محمد عبد المنعم خفاجى ، د/ عبد العزيز شرف - ط : دار غريب .

٥٧ نظرات فى التمثيل البلاغى - د/ محمود السيد شيخون - ط : مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م الطبعة الأولى .

٥٨ — النقد المنهجي عند الجاحظ - د/ داوود سلام - ط : المعارف بغداد ١٩٦٠ م .

٥٩ — نقد النثر - المنسوب لقدامة بن جعفر - تقديم د/ طه حسين ، وعبد الحميد العبادي - ط : وزارة المعارف العمومية ١٩٣٨ م .

٦٠ — النكت في إعجاز القرآن الكريم - أبو الحسن الرماني - ط : دار المعارف بمصر (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) .

٦١ — نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز - فخر الدين الرازي - ط : الآداب بالقاهرة ١٣١٧ هـ .

٦٢ — يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر - أبو منصور الثعالبي - ط : مطبعة الصاوي بمصر ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٤ م .

●●●

فهرس الموضوعات

الموضـــوع | الصفحة

* * *

رقم الإيداع
بدار الكتب المصرية
٤٦٦٦/ ١٩٨٩

مطبعة الحسيني الإسلامية
٥٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر - القاهرة